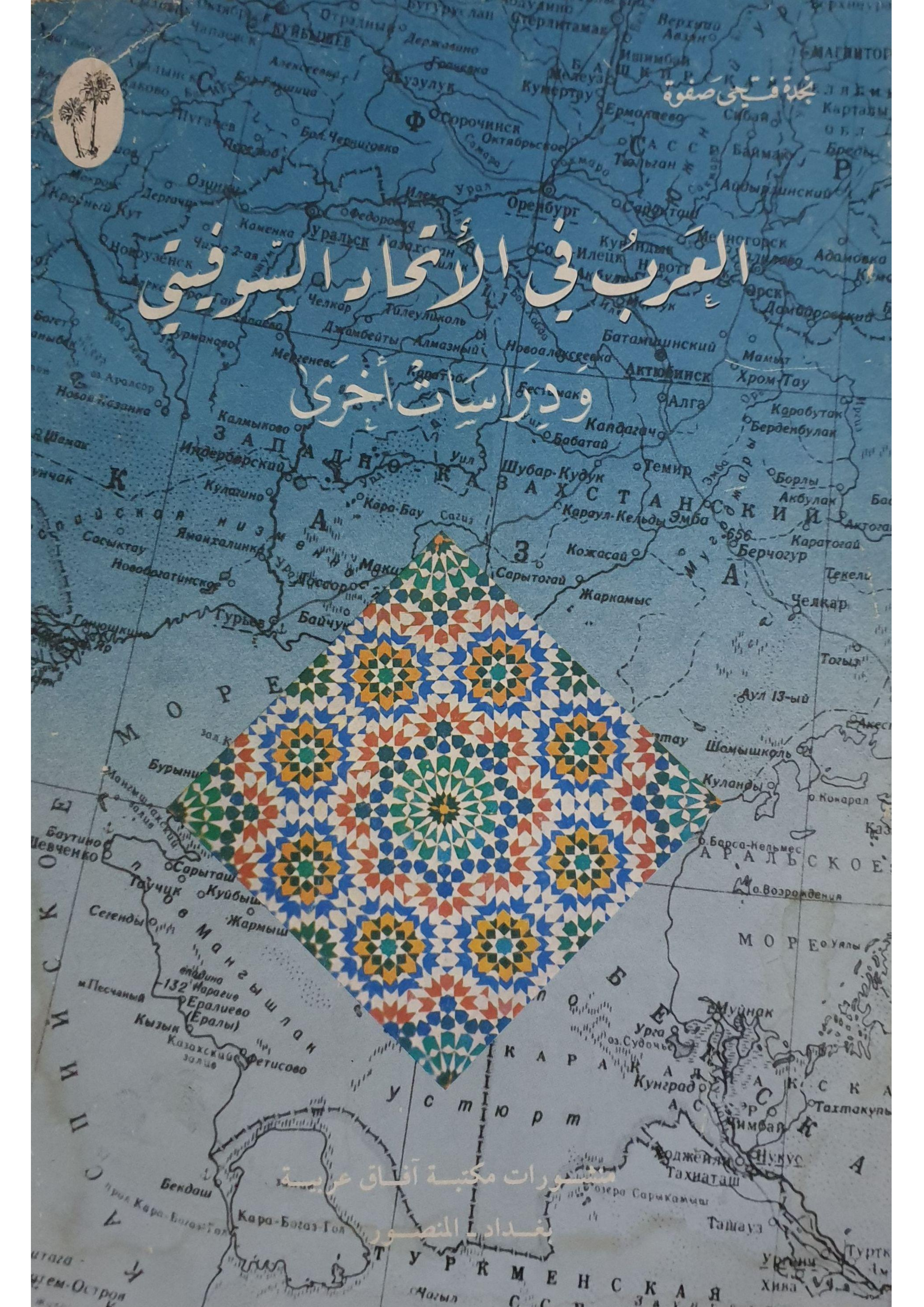

نجدة فتحي صفوة
العرب في الاتحاد السوفيتي
ودراسات أخرى
منشورات مكتبة آفاق عربية
بغداد - المنصور

العرب في الاتحاد السوفيتي

ودراسات أخرى

نجدة فتحي صفوة

العرب في الاتحاد السوفيتي

ودراسات أخرى
في العلاقات التاريخية والثقافية
بين العرب والروس



منشورات مكتبة آفاق عربية

بغداد — المنصور

الطبعة الأولى
بغداد
١٩٨٤

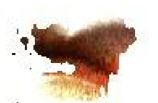
الاهداء

الى زوجتي الغالية

نرمين

التي ابتسمت معي للحياة في سرّائها
ولم تفارقها ابتسامتها في ضرّائها

حباً وتقديراً



المحتويات

مقدمة

كتبت معظم فصول هذا الكتاب خلال زمن عملي الدبلوماسي في موسكو بين سنتي ١٩٦٣ و ١٩٦٦ ، أو بعده بمدة قصيرة .

إن السنوات التي قضيتها في الاتحاد السوفيتي كانت لي تجربة مفيدة وثقافة جديدة . وكنت قبلها في واشنطن حيث قضيت ثلاث سنوات أيضاً ، ومنها نقلت الى موسكو مباشرة . وكان هذا الانتقال من عاصمة أكبر دولة رأسمالية في العالم ، الى عاصمة أكبر دولة اشتراكية ، أشبه بالانتقال من عالم الى عالم ، هيّأ لي فرصة فريدة للموازنة بين مجتمعين ، وثقافتين ، وعقليتين ، وشعبين ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً .

وقد حاولت إبان وجودي في موسكو ـ على قدر سماح وقتي وظروف عملي ـ أن أتعلم ما أستطيع تعلمه من اللغة الروسية ، وانتهزت تلك الفرصة أيضا لدراسة تاريخ روسية ، وتعرّف أعمال المستشرقين السوفييت والدراسات العربية في الاتحاد السوفيتي ، ما استطعت الى ذلك سبيلاً . وكان من المتع الحقيقية التي وجدتها هناك هي إعادة قراءة آثار الأدب الروسي التي سبق أن أصبتها في أوقات مختلفة . فقد وجدت أن قراءة تلك الآثار في الجوّ الذي كتبت فيه ، والوسط الذي أوحى بها ، كان لها في نفسي وقع مختلف ، كما شعرت أن فهمي لها ـ بعد التعرّف الى البلاد الروسية وأهلها ـ كان أعمق ، ومتعتي بها أكبر .

وكان من حصيلة تلك السنوات الثلاث ، كتابان مستقلان ، وعدد غير قليل من الأبحاث والمقالات التي نشرت في مجلات مختلفة .

أما الكتابان ، فأولهما : «اليهود والصهيونية في علاقات الدولة الكبرى»[1] ، وفيه وازنت بين أحوال الجاليات اليهودية والنفوذ الصهيوني في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

والثاني كتاب «بيروبيجان : التجربة السوفيتية لانشاء وطن قومي يهودي»[2] ، وهو دراسة للمقاطعة اليهودية ذات الحكم الذاتي في الاتحاد السوفيتي . وكان تأسيس هذه المقاطعة احدى التجارب التي لجأت اليها الحكومة السوفيتية منذ سنة ١٩٢٦ لحلّ ما سمي «المشكلة اليهودية» . وعلى الرغم من فشل هذه التجربة التي لم يشجعها اليهود ، بل حاربها بعضهم بغير هوادة ، فان تلك المقاطعة ماتزال ، من الناحية الدستورية والشكلية ، قائمة حتى اليوم ، وتسمى «المقاطعة اليهودية ذات الحكم الذاتي» أو «بيروبيجان» ، ويمثلها في «مجلس القوميات» السوفيتي خمسة نواب . وقد جمعت كل ما تيسر لي جمعه من معلومات ووثائق ودراسات عن تلك المقاطعة ، وتأريخها ، وظروف تأسيسها ، وأسباب اخفاقها ، وكتبت فيها دراسة مفصلة استندت فيها ، اضافة الى تلك المصادر ، الى ما توصلت اليه بتحقيقاتي الشخصية . وكان هذا الكتاب أول كتاب في موضوعه يصدر باللغة العربية ، وبأية لغة أخرى ، فيما أعلم .

أما الأبحاث والمقالات الأخرى ، فقد رأيت أن أجمع في هذا الكتاب ما يتعلق منها بقضايا الاستشراق ، والعلاقات الثقافية والتاريخية بين العرب والروس منذ أقدم الأزمنة ، لتكون في متناول المهمتين بهذه الموضوعات ، وقد نشر معظمها في مجلات مختلفة .

وأول هذه الأبحاث دراسة مختصرة لتاريخ «دولة الخزر» التي قامت على أراضي روسية في القرن السادس الميلادي ، وأدخلت اليهودية الى تلك الأصقاع ، ثم انقرضت بعد أربعة قرون أو نحوها ، وتشتت سكانها في أوربا الشرقية وغيرها من البلاد .

تليها دراسة عن «رحلة ابن فضلان» التي قام بها من بغداد في مطلع القرن العاشر الميلادي ، فذهب الى بلاد «البلغار» المسلمين على نهر «الفولغا» ، موفداً بمهمة

---

(١) طبع هذا الكتاب بنفقة وزارة الخارجية العراقية في بغداد (مطبعة الحكومة) عام ١٩٦٧ ، وكان في الاصل محاضرة القيت في «الحلقة الدراسية للسياسة الدولية» التي عقدت في «كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» بجامعة بغداد في السنة نفسها .

(٢) من منشورات «مركز الدراسات الفلسطينية» بجامعة بغداد، سلسلة «دراسات فلسطينية» ، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٣ .

دبلوماسية وثقافية ودينية من الخليفة «المقتدر» العباسي ، فكان أول دبلوماسي عربي يزور أراضي روسية التي كانت تعرف في ذلك الوقت ببلاد «الصقالبة» . وقد دوّن ابن فضلان مشاهداته في رسالة مشهورة كانت مفقودة طوال قرون عديدة ، ثم اكتشفت في سنة ١٩٢٤ ، فكان اكتشافها حدثاً له دويّ واسع في الأوساط العلمية . وقد رجعت في هاتين الدراستين الى كثير من المصادر الروسية ، اضافة الى المصادر العربية والغربية المتوافرة .

وعلمت ابان أيامي في الاتحاد السوفيتي أن بين الأقليات القومية العديدة ، التي تعيش على أراضيه ، جاليةً عربيةً قديمة قوامها بضعة آلاف شخص ، تعيش منذ عدة قرون في جمهورياته الجنوبية ، وأنها ماتزال محتفظة بلغتها ومعظم تقاليدها العربية ، وتتكلم بلجهات عربية تختلف فيما بينها ، ولكنها بصورة عامة أقرب الى اللهجة العراقية . وقد لفت أمر هذه الجاليات انتباهي ، وأثار اهتمامي ، بطبيعة الحال ، فحاولت زيارة مناطق توطنها ، ولكن ظروف العمل حالت دون تحقيق رغبتي هذه . ومع ذلك ، جمعت كل ما تيسر لي من معلومات ومصادر عن هذه الجاليات العربية ، ووجدت أن هناك عدداً من التقارير عنهم ، أعدها باحثون وباحثات من السوفييت ، أوفدتهم الحكومة السوفيتية لدراسة أحوالهم ، وبعض الدراسات التي كتبها فيهم باحثون سوفييت وفرنسيون وانكليز ، فراجعت معظم ما استطعت الحصول عليه منها ، وكتبت فيهم مقالتين نشرتا في سنة ١٩٧٧ ، وأعيدُ الآن نشرهما في هذا الكتاب بعد توحيدهما ، مع بعض الاضافات والتنقيحات .

وتضم المجموعة أيضاً فصلاً عن رحلتي «مكاريوس الأنطاكي» ، وهو البطريرك العربي الذي رحل الى موسكو في القرن السابع عشر مرتين، ومعه ولده «الشماس بولص» الذي دوّن يوميات هاتين الرحلتين الشاقتين ، وقد استغرقت أولا هما سنتين وسبعة أشهر ، واستغرقت الثانية مدة أقصر من تلك بقليل . وتعدّ هاتان الرحلتان من أغرب الرحلات في تاريخ الرحّالة العرب . وفي يوميات «بولص» كثير من المعلومات المهمة والطريفة عن الحياة الروسية وعن البلاط الروسي والكنيسة في تلك العصور. وهذه اليوميات وثيقة ثمينة لاتوجد منها الاّ نسخ معدودة ماتزال مخطوطة، إحداها محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني بلندن، وأخرى في مكتبة معهد الدراسات الشرقية في موسكو، وثالثة في المكتبة الوطنية بباريس .

ومن فصول الكتاب أيضا دراسة عن الحرب الروسية ـ اليابانية ، التي درات رحاها في سنة ١٩٠٥ ، والصدى الكبير الذي أحدثته في الأدب العربي الحديث ، وأسباب إعارة الشعراء والكتاب العرب اياها اهتماماً خاصاً . وأخرى عن الأدب

العربي الحديث في الاستشراق الروسي ، وانفراد المستشرقين السوفييت بالاهتمام بالأدب العربي الحديث عن معظم المستشرقين في الغرب ، وأسباب ذلك .

وفصل عن «كلثوم عوده فاسيليفا» ، وهي سيدة فلسطينية جليلة ، قضت معظم حياتها في تدريس اللغة العربية في لينغراد وموسكو ، وكانت مساعدة للمستشرق الشهير كراتشكوفسكي ، حتى صارت تلقب «أم المستعرب بين السوفييت» لكثرة طلابها بينهم .

وثَمّ فصل في أديب المهجر الكبير ميخائيل نعيمه ، الذي أمضى سنوات عديدة من يفاعته في احدى المدارس الدينية في مدينة «بولتافا» ، وأثر تلك السنوات في فكره وفي أدبه الذي احتل مكانة مهمة في ادب المهجر بعد ذلك .

ويحتوي الكتاب أيضا على مقالة أو بحث قصير في الأديب الروسي الشهير ايليا اهرينبورغ ، وموقفه من الصهيونية . وقد كتبتُ هذا المقال بمناسبة وفاته بطلب من جريدة «الجمهورية» البغدادية .

وكذلك على فصل مختصر عن «الباليه الروسي» مع نبذة عن تأريخه .

وآخر محتويات الكتاب وصف زيارة لبيت الأديب الروسي الكبير «تولستوى» . على أن هذه القطعة لا يمكن أن توضع في عداد الأبحاث والدراسات العلمية ، اذ هي أقرب الى المقالات الأدبية ، ولكنها تعود الى العهد الذي كتبت فيه فصول الكتاب الأخرى ، وهي عزيزة على نفسي ، لأنها تسجل زيارة ممتعة أوحت اليّ كثيراً من الخواطر والمشاعر ، فلم أر بأسا بضمّها الى هذه المجموعة ، معتذراً الى القارئ الكريم اذا وجدها لا تنسجم في أسلوبها مع سائر فصول الكتاب ، راجيا أن يعتبرها قطعة من فاكهة خفيفة يتناولها بعد وجبة الطعام الأصلية .

وكان المفروض أن تحتوي هذه المجموعة على دراستين أخريين : أولاهما في الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي ، العالم الأزهري الذي نُدِب لتدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية في «سنت بطرسبرغ» سنة ١٨٤٠ م ، فبقي فيها اثنتين وعشرين سنة ، وألف عديدا من الكتب ونظم كثيرا من القصائد ، ثم توفي ودفن هناك . وقد زرت ضريحه في مقبرة «فولكوفو» الاسلامية في لينغراد .

والثانية في المستشرق الروسي الكبير «كراتشكوفسكي» الذي قضى خمسة وأربعين عاما في دراسة اللغة العربية وآدابها ، وألف فيها أكثر من خمس مئة بحث ومقالة . وقد قرر مجلس الوزراء السوفيتي وأكاديمية العلوم السوفيتية ، على أثر وفاته ، نشر مجموعة مختارة من مؤلفاته في ستة أجزاء ضخمة ، كان صدورها حدثاً مهماً في الحياة الثقافية والعلمية في الاتحاد السوفيتي ، وفي عالم الاستشراق أو الاستعراب . وفي

سيرة الأستاذ كراتشكوفسكي دروس نافعة ، ومعلومات طريفة ، وأنموذج رائع للعمل في سبيل العلم . وقد كان كراتشكوفسكي - كما قالت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - «من أحرص المستشرقين على ضبط قلمه من جموح الهوى وضلال التعصب»[3] ، وآثاره تفيض بمحبة العرب واللغة العربية ، وتخلو من الدسّ والغرض اللذين يشوبان كتابات كثير من المستشرقين . ولكن الظروف لم تسمح لي باكمال هاتين الدراستين ، فاضطررت الى تأجيل نشرهما الى مناسبة أخرى . ومع ذلك . ففي فصول الكتاب الأخرى اشارات كثيرة الى أعمال كراتشكوفسكي ومنجزاته العلمية ومشاركته الواسعة في الدراسات العربية في روسية ، وخاصة في الفصل المعنون «الأدب العربي الحديث في الاستشراق الروسي» .

وقد تفضل بقراءة الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب ، الصديق الكريم الدكتور صالح أحمد العلي ، رئيس المجمع العلمي العراقي ، وأبدى عليها ملاحظات قيمة ، أخذت بمعظمها ، واحتفظت برأيي في بعضها . وانني اذ أسجل له شكري الجمّ ، لا يفوتني أن أبدي أن ما تبقى في هذه الدراسات من أخطاء أو نواقص ، لا تقع تبعتها على أحد سواي .

وبعد ، فانني أقدم هذه الدراسات المتواضعة الى القارئ المعني بموضوعاتها ، آملا أن يجد فيها شيئا من الفائدة ، أو على الأقل أن يشعر خلال مطالعتها ببعض ما شعرت به عند كتابتها من متعة .

نجدة فتحي صفوة

---

(٣) الدكتورة عائشة عبد الرحمن، من تعليقها الملحق بكتاب كراتشكوفسكي **تاريخ الادب الجغرافي عند العرب**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ١٩٥٧، القسم الثاني ص ٨٧١ .

دَولة الخَزَر

نزحت الى المنطقة الجنوبية من روسيا في القرن السادس الميلادي قبائل بدوية قادمة من الشرق ، فاستقرت فيها ، وأقامت دولة قوية أتّسعت رقعتها ، وازدهرت تجارتها، وأثرت في مصائر ماجاورها من الاقطار وما نأى، وعاشت زهاء أربعة قرون ، ثم انقرضت فلم يعد لها ذكر ، ولم يعرف لشعبها أثر . وهذه الدولة هي «دولة الخزر» التي تعود أهميتها التاريخية الى عدة اعتبارات : فهي التي وقفت في وجه الامبراطورية البيزنطية ، وقاومت الخلافة العربية الاسلامية ، وحدّت من انتشار الاسلام في روسيا ، وكانت أول من أدخل اليهودية الى تلك البلاد .

وهنالك اعتبار مهم آخر ، وهو أن تهوّد هذه الدولة من الأدلة التاريخية التي تفنّد الزعم القائل بأن اليهود يمثلون جنساً نقياً لم يدخله عنصر غريب ، وأنهم جميعاً يتحدرون من سلالة واحدة هي سلالة اسرائيل . كما أنه يفند الخرافة القائلة بأن اليهودية لم تكن من الأديان التبشيرية ، وأن أبناءها لم يحاولوا نشرها بين غيرهم من الشعوب .

فما قصة دولة الخزر البائدة ؟

وممن تألف شعبها ؟

وكيف اعتنقت اليهودية ؟

شهد جنوب روسيا ـ أو المنطقة التي تعرف بمنطقة السهوب (*Steppes*) ـ أقواماً عديدة تعاقبت على غزوها واستيطانها منذ أقدم الازمنة . ومن أوائل هذه الاقوام «القوط» (*Goth*) ـ وهم قبائل المانية نزلت من الشمال ـ ثم «الهون» (*Huns*) ـ وهم قبائل بدوية تركية ـ مغولية جاءت من أواسط آسيا في أواخر القرن الرابع الميلادي فهزمت القوط ـ ثم أعقبهم «الأفاريون» (*Avars*) ، حتى أغارت على المنطقة اخيراً في القرن السادس ، قبائل بدوية نشأت عنها فيما بعد دولتا «الخزر» اليهودية و «البلغار» المسلمة .

وهذه القبائل لا يعرف أصلها على التحقيق ، وان كان الاعتقاد السائد انها من أصل تركي - مغولي . وقد اصبحت للخزر دولة قوية امتدت في منطقة واسعة من بحر الخزر (بحر قزوين) ونهر الفولغا شرقاً ، الى شبه جزيرة «القرم» ونهر «دنيبر» غرباً .

ومازال معلوماتنا قليلة عن الوقت الذي انفصل فيه البلغار عن اخوانهم الخزر ، وعن كيفية هذا الانفصال . ويبدو أن قبائل «البلغار» لم ترغب الخضوع لدولة الخزر التي كانت أقوى منها واكبر ، فاضطرت الى المهاجرة ، وانشطرت قسمين ذهب أولهما الى شمال بلاد الخزر ، وقد استقرت تلك المجموعة في حوض نهر الفولغا (او نهر «أتل» كما تسميه المصادر العربية) وأسست هناك دولة «بلغار الفولغا» واعتنقت الاسلام . اما المجموعة الثانية فقد اتجهت غرباً الى منطقة الدانوب السفلي، فأخضعت القبائل السلافية التي كانت فيها ، واندمجت بها ، وأقامت لنفسها دولة على الارض التي احتفظت باسم «بلغاريا» حتى اليوم .

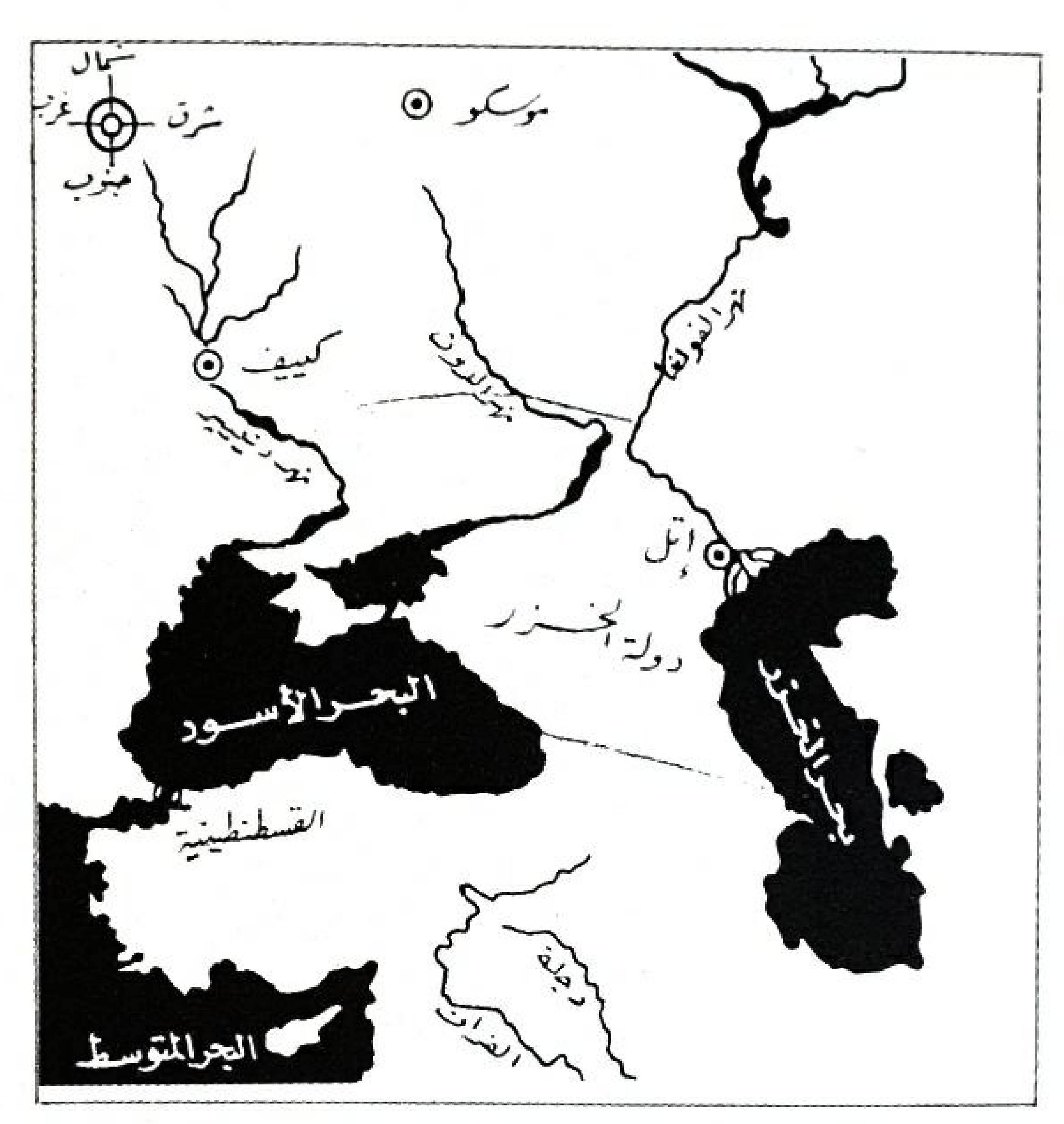
وقد ذُكرت «دولة الخزر» للمرة الاولى سنة ٦٢٧ م . بوصفها حليفةً قويةً للامبراطورية البيزنطية في حروبها مع الفرس . وكانت عاصمتها في البداية في سهوب القفقاس الشمالية ، ثم نقلت في مطلع القرن الثامن الميلادي الى مدينة «اتل» في مصب نهر «الفولغا» وقرب موقع مدينة «استراخان» الحالية .

وأصبحت دولة الخزر دولةً مستقرة وآمنةً نسبياً ، وعلى الرغم من أن بعض الخزر اكتسبوا شيئاً من الخبرة في الزراعة وتربية المواشي وصيد الاسماك ، فان اهتمامهم الرئيسي كان موجهاً الى التجارة . وقد ساعد دولة الخزر موقعها الجغرافي على ممرّ الطرق أن تكون مركزاً تجارياً دولياً مهما . ويقول المستشرق دنلوب : «من الواضح أن ازدهار دولة الخزر ورخاءها اعتمدا على موقعها الممتاز على طرق التجارة أكثر من اعتمادها على مواردها»[1] ، وقد انشأ الخزر على هذه الطرق تجارةً نشيطةً بين الشرق الأقصى والبحر الأسود من جهة ، وبين بلاد الخلافة العربية في الجنوب والشمال السلافي ، من جهة اخرى . وكانت واردات الدولة تعتمد على المعاملات التجارية ، وكذلك على الاتاوة التي فرضتها على الشعوب المجاورة لها والواقعة تحت نفوذها . وقد ازدادت تلك الاتاوة كلما اتسعت رقعتها نحو الغرب في السهوب الروسية .

وكان زعيم الخزر يحمل اللقب التركي «خاقان» ، وكانت السلطة قسمةً بينه وبين قائد الجيش الملقب «بك» - فالسلطة الشكلية في شؤون الدولة والدين كانت بيد

---

(١) Dunlop, D. M., *The History of the Jewish Khazars*, Princeton, 1954, p. 27.



دولة الخزر في القرن التاسع الميلادي

الأول، على حين أن الثاني كان يمارس السلطة الفعلية . وذكر ياقوت في «معجم البلدان» ان مدة حكم الملك ـ او الخاقان ـ لا تكون أكثر من اربعين سنة ، فاذا جاوزها يوماً واحداً قتلوه وقالوا : هذا نقصَ عقلُه واضطربَ رأيه[٢] . وذكر المسعودي في «مروج الذهب» انه اذا اجدبت الارض أو نابت بلدهم نائبة أو أغارت عليهم أمة من الأمم او فاجأهم أمر من الأمور نفرت الخاصة والعامة الى قائد الجيش «البك» فقالوا له قد تطيّرنا بهذا الخاقان فاقتله أو سلمه الينا لنقتله ، فربما فعل ذلك أو دافع عنه[٣] .

اختلط الخزر بسكان البلاد من «السلاف» ، كما كان يزورهم التجار المسلمون والمسيحيون واليهود ، فانتشرت هذه الديانات بينهم بعد أن كان معظمهم وثنيين قبل ذلك . وفي القرن الثامن كان «الخاقان» وحاشيته والطبقة الحاكمة قد بلغوا درجة من التحضر والاستنارة أرادوا معها التخلي عن وثنيتهم واعتناق أحد الاديان السماوية التي تؤمن بالتوحيد . وكان التجار من الامبراطورية البيزنطية يبشّرون بينهم بالمسيحية ، والتجار المسلمون يدعونهم الى الاسلام ، كما أن اليهود الموجودين في مناطق القفقاس والقرم ـ القريبة منهم ـ يحسّنون اليهم اليهودية . وأصبح للاسلام والمسيحية اتباع كثيرون بين الخزر ، ولكن «الخاقان» كان متردداً في قبول إحدى هاتين الديانتين . ويرى المؤرخ «فرنادسكي» ـ وهو أكبر أساتذة التاريخ الروسي المعاصرين وأوثقهم ـ أن تردد الخاقان ربما كان لاسباب سياسية . فقد كانت هاتان ديانتي الدولتين الفاتحتين : الامبراطورية البيزنطية ، والخلافة الاسلامية ، فتخوّف أن يتبع اعتناق إحداهما نفوذ سياسي أجنبي أيضا ، فحلّ المشكلة باختيار ديانة محايدة هي «اليهودية» التي لم تكن تعلق بها أية خيوط سياسية[٤] ، فاعتنقها هو وأسرته ومعظم أفراد الطبقة الحاكمة والغنية ، ويقال إن عدد الذين تهوّدوا مع الملك بلغ أربعة آلاف[٥] .

وهكذا تهوّدت دولة الخزر ـ أو بالأصح حكومتها ـ لأسباب سياسية وليس بسبب إعجاب حكامها بتعاليم الديانة اليهودية ، أو تفضيلهم اياها على سواها من الأديان السماوية ، كما ذكرت بعض المصادر اليهودية[٦] .

---

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، لايبزك، ١٨٦٧، ج٢، ص ٤٣٩ .

(٣) المسعودي، مروج الذهب، بيروت، ١٩٦٥، ج١، ص ٢١٥

(٤) Vernadsky, George, *A History of Russia*, New Haven & London, 1964, p. 28 .

(٥) انظر مثلا: Grayzel, Solomon, *A History of the Jews*, Philadalphia 1964, p. 280 - 1 .

(٦) *The Standard Jewish Encyclopedia*, (Ed. in- Chief: Cecil Roth), London, 1966 p. 1125

أدى تهوّد الطبقة الحاكمة في هذه الدولة الى وضع غريب شاذ . فقد كانت أكثرية السكان من المسلمين ، كما كان بينهم عدد من المسيحيين والوثنيين ، ولكن الملك والطبقة الحاكمة والغنية ـ وهي تمثل أقليةً عدديةً ضئيلة ـ كانت تدين بعقيدة تختلف عن عقيدة شعبها ، فالناس في هذه الدولة لم يكونوا «على دين ملوكهم» . ومع ذلك ، فان اعتناق هذه الطبقة الديانة اليهودية كان سبباً في انتشارها التدريجي بين الشعب الخزري .

وأول من اعتنق اليهودية من ملوك الخزر هو «بولان» ، وذلك في حدود سنة ٧٤٠ ميلادية . وكان معاصراً للخليفة هرون الرشيد والامبراطور شارلمان .

وقد تزوّج الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس كبرونيموس (٧٤١ ـ ٧٧٥م). أميرة خزرية ، وتولى ابنه العرش باسم الامبراطور ليون الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠م). ولقّب بـ «الخزري» نسبة الى امه .

ويقال إن يزيد بن أسيد السلمي، والي أرمينية، تزوج خلال ذلك الوقت ابنةَ ملك الخزر تلبيةً لرغبة الخليفة المنصور.

وسمع «حسداي بن شبروط» ، الطبيب اليهودي في الاندلس ، بوجود دولة يهودية في تلك المنطقة ، فتراسل مع آخر ملوكها «يوسف» ، وكان ذلك في عهد الحَكَم الثاني . وقد روت بعض المصادر نصوص الكتب المتبادلة بين حسداي وملك الخزر ، ولكن صحة هذه الوثائق كانت موضوع نقاش كثير بين الباحثين ، ومعظمهم يرى انها موضوعة(٧) .

وقد اشتبك الخزر ـ منذ منتصف القرن السابع الميلادي ـ في سلسلة من الحروب مع الفرس ثم مع العرب الذين نازعوهم السيطرة على القفقاس ، وقد تمكن العرب من ردّهم في كل مرة .

وفي سنة ٧٣٧ م جهز العرب حملة قوية اسفرت عن هزيمةٍ منكرةٍ للخزر ، فاكتسحوا القفقاس الشمالي (ما وراء النهر) وتغلغلوا شمالاً حتى نهر الدون ، وأسر العرب في هذه الحملة قرابة عشرين ألف اسير سلافي أرسلوهم الى سورية .

وأغار الخزر لآخر مرة على أقاليم الخلافة التي على الحدود في عهد هرون الرشيد عام ١٨٣ هـ . (٧٧٩ م .) ، ويقول «الطبري» إن الباعث على هذه الغارة كان فشل المحاولة التي رمت الى تحالف الدولتين بزواج الفضل بن يحيى البرمكي من ابنة ملك الخزر(٨) .

---

(٧) *Ibid.* p. 1125.

(٨) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج٣، ص ٦٤٧ .

وفي المصادر العربية إشارات كثيرة الى الخزر ودولتهم . وقد روى المسعودي في «مروج الذهب» أن جيش الخزر الذي أغار على البلاد الاسلامية كان على رأسه قائد خوارزمي ، على حين انه كان في حرس ملك الخزر فيها بعد جنود مسلمون من خوارزم لم يرضوا بالقتال في صفه الآ بعد أن سُمِح لهم بالبقاء على الحياد كلما أعلن ملك الخزر الحرب على المسلمين[9] .

على أن أهم مصدر عربي عن الخزر ودولتهم ـ ولعله أهم مصدر على الاطلاق ـ هو «رسالة ابن فضلان» الذي أرسله الخليفة العباسي «المقتدر بالله في سفارة الى مملكة البلغار ـ على الفولغا ـ في مطلع القرن العاشر الميلادي»[10] .

وكان ملك «البلغار المسلمين» أرسل الى عاصمة الخلافة العباسية رسولاً ، وطلب الى الخليفة أن يمدّه بالعون تجاه ضغط الخزر على بلاده من الجنوب ، وأن يُنفذ اليه من يعرّف شعبه بشعائر الاسلام ـ الذي اعتنقوه منذ عهد غير بعيد ـ ويبني لهم مسجداً، ويقيم لهم حصناً يتحصنون فيه من الخزر واعتداءاتهم .

وقد استجاب «المقتدر» لطلب ملك البلغار فارسل اليه سفارةً او وفداً كان «أحمد بن فضلان» عضواً بارزاً فيه ، فدوّن في وصف هذه الرحلة رسالةً اصبحت مرجعاً مهماً نقل عنه المؤلفون المسلمون والغربيون فيما كتبوه عن «بلغار الفولغا» وكذلك عن الخزر. ولعل هذه الرسالة هي الوصف الوحيد الذي دبّجته يراعة شاهد عيان عربي زار تلك المناطق .

وعلى الرغم من أن ابن فضلان لم يذهب الى بلاد الخزر ، لأنه كان في سفارة أُنفذت الى اعدائهم البلغار المسلمين، وفي مهمة تهدف الى حمايتهم من اعتداءات الخزر ، فان رسالته تحتوي على كثير من المعلومات عن الخزر وبلادهم ، مما لا نجده في أي مصدر آخر ، وهي معلومات حصل عليها خلال مروره بالمناطق المجاورة لبلادهم ، ومن الخزر الموجودين في بلاد البلغار .

قال ابن فضلان إن لملك الخزر مدينةً عظيمةً على نهر «أتل» ، وهي جانبان : في أحدهما المسلمون ، وفي الآخر الملك وأصحابه . واشار الى اعتداءات الخزر على البلغار المسلمين فقال إنهم كانوا يفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت في المملكة، وان ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك البلغار، ويتزوجها غصباً.

---

(٩) المسعودي، المرجع سالف الذكر، ج١ ،ص٢١٢ ـ ٢١٣ .

(١٠) انظر تفاصيل رحلة ابن فضلان في الفصل التالي من هذا الكتاب .

والخزري يهودي، وابنة الملك مسلمة[١١].

وروى ياقوت في «معجم البلدان» اخباراً أخرى فيها معلومات مهمة[١٢]، منها أن دولة الخزر كان «فيها خلق كثير من المسلمين، يقال إنهم يزيدون عن عشرة آلاف مسلم، وان لهم نحو ثلاثين مسجداً. والشعب يتألف من المسلمين والنصارى، وفيهم عبدة الاوثان، وأقل الفرق هناك اليهود، على ان الملك وخاصته منهم. والغالب على أخلاقهم أخلاق اهل الاوثان، ويسجد بعضهم لبعض عند التعظيم. وجريدة جيش الملك اثنا عشر ألف رجل». وتحدث عن موارد الدولة فقال: «إنها من الارصاد، وعشور التجارات، على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر». وذكر انه كان «للملك تسعة من الحكام، من اليهود والنصارى وأهل الأوثان، اذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء، ولا يصل أهل الحوايج الى الملك نفسه». وقال: «إن الغالب على قوتهم الأرز والسمك، وما عدا ذلك مما لايوجد عندهم يُحمل اليهم من الروس وبلغار وكويابه»[١٣].

وتروى المصادر العربية أيضا انه كان في «أتل» العاصمة مسجد جامع له مئذنة شامخة. وبلغ ملك الخزر في عام ٣١٠ هـ. (٩٢٢/٩٢٣ م.) ان معبداً لليهود قد دُمر في بعض البلاد الاسلامية، فما كان منه الا أن هدم مئذنة المسجد، وقتل المؤذن، ولكنه لم يمسّ المسجد نفسه بسوء مخافة أن تُدمَّر جميع المعابد اليهودية في البلاد الاسلامية[١٤].

أما عن الشعب الخزري وصفاته، فقد روى ياقوت: «انهم لا يشبهون الأتراك، وهم سود الشعور. وهم صنفان، صنف يسمّون قره خزر (أي الخزر السود) وهم سمر يضربون بشدة الى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف من البيض، ظاهروا الجمال والحسن».

وقال في لغتهم: «إن لسانهم غير لسان الترك والفارسية، ولا يشاركه لسان فريق من الأمم»[١٥].

---

(١١) رسالة ابن فضلان، حققها ونشرها الدكتور سامي الدهان، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٦٠، ص٢٤.

(١٢) ذكر ياقوت انه نقل هذه المعلومات عن رسالة ابن فضلان، غير ان تحقيقات عدد من الباحثين دلت على ان نصف مارواه ياقوت لم ترد فيها، ولعله نقلها عن مصادر اخرى، وفاته ان يشير الى ذلك.

(١٣) كويابه: هي مدينة «كييف» - عاصمة اوكراينا - كما تسميها المصادر العربية.

(١٤) ياقوت، مجلد ٢، ص ٣٦٩

(١٥) المرجع نفسه، ص٤٣٨

واما كتابتهم ، فقد ذكر ابن النديم في «الفهرس» ان «الخزر تكتب بالعبرانية»[١٦] .

وتشير الحوليات الروسية بوضوح ـ شأن المصادر العربية ـ الى أن مملكة الخزر في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) كانت اقوى بكثير من مملكة «البلغار» ، وان سلطان الخزر امتد كثيراً من ناحية الشمال الغربي[١٧] حتى شملت حمايتهم الروس المجاورين ، وكان أمير كييف يدفع لها الاتاوة ايضا . وفي هذه الفترة كانت أول دولة روسية تتكون بتوحيد القسم الجنوبي من قبائل السلاف المتمركزة حول كييف مع القبائل السلافية من الشمال الشرقي . وكان مقر «الخاقانية» الروسية قبل ذلك في مدينة «تموتوروكان» وكانت في البداية تحت حماية الخزر ، وتعتمد عليها في تسيير تجارتها . ولكن الخزر تضعضعوا بنتيجة الحملات العربية ـ خاصة بعد سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) ـ ثم ضعفوا بعد الهجوم العربي سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) . فاعتمد الروس على أنفسهم ، واستعانوا بقوات الشماليين ، فأعلنوا استقلالهم ، واتخذ أميرهم لقب «خاقان ـ روس» مقابل «خاقان الخزر» وسيطروا على التجارة .

وأحس الخزر بالخطر ، فاستعانوا بالبيزنطيين لبناء حصون على نهري «الدونتز» و «الدون» . وقد أنشأوا بمعونتهم قلعة على نهر الدون ـ سميت «ساركل» ـ وبهذه الطريقة سيطروا على طرق التجارة الى الشرق . وفي خلال عشر سنوات استولى «الخزر» على «السلاف» الموجودين في منطقة (اوكا) وسيطر أتباعهم على منطقة كييف . واضطرب وضع الروس ، وحاولوا التفاهم مع الامبراطورية البيزنطية ، فلم ينجحوا في ذلك[١٨] .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري في سنة ٢٧٠ هـ (القرن التاسع الميلادي) ، سنة ٨٨٢ م) اتجه «اوليغ» امير «نوفغورود» الى الجنوب ، واستولى على «كييف» ووحّدها مع إمارة «نوفغورود» في الشمال ، وبذلك قامت أول دولة روسية موحدة هي دولة «كييف ـ روس» التي دامت ثلاثة قرون ، وكان مركزها مدينة «كييف» .

وكانت المهمة الرئيسية التي تواجه هذه الدولة هي توسيع التجارة ، لأنها كانت أساس اقتصادها ، وكان من نتائج ذلك ، أو من مقتضياته ، التوسع الاقليمي . وقد قام «اوليغ» بحملات عسكرية عديدة معظمها كان موجهاً الى الامبراطورية

---

(١٦) ابن النديم، **الفهرس**، القاهرة، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠، ص ٢٩ .

(١٧) بارتولد، (في **دائرة المعارف الاسلامية**، مادة: بلغار) الطبعة العربية، مجلد ٤، ص ٨٨ .

(١٨) الدكتور عبد العزيز الدوري، «الجغرافيون العرب وروسيا»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، المجلد ١٣، بغداد ١٩٦٦، ص٦ .

البيزنطية ، وقد هدد القسطنطينية مرارا .

وخلف «اوليغ» على العرش ابنه «ايغـور» الذي خـاض حربـين طاحنتـين مع بيزنطة ، وخلف «ايغور» ابنه «سفياتوسلاف» وهو لا يزال طفلاً ، فأقيمت امه وصية على العرش ، فلما شب وتولى الحكم في سنة ٩٦٠ م ، استأنف سياسـة التوسـع الاقليمي ، وعادت الحملات العسكرية فكان اهمها توجيه ضربة قاصمة الى دولة الخزر ، فسقطت قلعة «ساركل» بيد الروس، ثم العاصمة «اتل» ، وبعدهما المدينة الثانية في البلاد وهي «سمندر» .

ولم تدم دولة الخزر بعد ذلك اكثر من نصف قرن آخر وقد انتقل مقرها الى شبه جزيرة القرم ، حتى أسقطها نهائيا «ماستيسلاف الاول» بمعاونة البيزنطيين في سنة ١٠١٦ ميلادية[١٩] ، فهرب ذوو قربى الخاقان الأخير الى اسبانيا ، والتحقوا بأبناء ديانتهم فيها ، وتشتت الشعب الخزري . فقد انضم بقايا الخزر في القرم - في أقوى الاحتمالات - الى الجاليات اليهودية القديمة الموجودة فيها[٢٠] ، وبذلك انتقل قسم كبير منهم الى «إمارة كييف» ، كما تغلغلوا في داخل روسيا ، ومنها الى اوربا الوسطى في ظروف مختلفة، واعتنق بعضهم المسيحية ، ودخل آخرون في الاسلام ، واحتفظ قسم منهم بديانته اليهودية . والراجح أن أغلبية يهود اوربا الشرقية يتحدرون من أولئك اليهود .

ولم يعرف لشعب الخزر أثر منذ القرن الثاني عشر ، واندثرت آثار دولتهم ، ولم تبقَ من شعبها بقية .

---

(١٩) اورد ابن حوقل خبر هذه الغزوة واجتياح الروس لمنطقة «اتل» فعين تاريخها في سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م)، ووصف الخزر بانهم قوم همج دمروا هذه البلاد وتركوها خرابا بلقعا، وقال ان الذين نجوا من القتل فروا الى شبه جزيرة (سياه كوه) في بحر الخزر (انظر: ابن حوقل، صورة الارض، طبعة لايدن، ١٩٣٨ - ١٩٣٩، ص ١٤، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٦ .

Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland* Philadelphia 1946, v01. I, p. 78



رحلة ابن فضلان

أول دبلوماسي عربي في روسية

تحتل «رسالة ابن فضلان» عن رحلته الى بلاد الصقالبة في مطلع القرن الرابع الهجري (او منتصف القرن العاشر الميلادي)، مكانة فريدة في الادب الجغرافي العربي، وتاريخ علاقات العرب الدبلوماسية، وأدب الرحلات. وقد أصبحت تلك الرسالة من أهم المصادر عن تاريخ بلاد الصقالبة، ومن أول مايُعتمد عليه في وصف كثير من النواحي المجهولة من تاريخ روسية وبلاد البلغار في عهودهما القديمة. فقد حرص ابن فضلان على أن يرسم في رسالته، او مذكراته، صورة واضحة لشعوب تلك المناطق، وأن يصور عادات أهلها وأخلاقهم، وتقاليدهم، وحياتهم الاجتماعية، تصويراً دقيقاً لانجده في مصدر عربي او غربي آخر. ولذلك كان ابن فضلان مصدراً مهماً للمؤلفين المسلمين منذ القرن الرابع الهجري، كالاصطخري والمسعودي. ثم نقل ياقوت الحموى في كتابه المعروف (معجم البلدان) أجزاء كبيرة من الرسالة، تكاد تبلغ ثلثيها.

قال ياقوت: «وقصة ابن فضلان، وإنفاذ المقتدر له الى بلغار، مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس، رأيت منها عدة نسخ»[1]. ويدل هذا على أن نُسخ الرسالة كانت متوافرة في القرن السابع، وأن ياقوت رأى بعض هذه النسخ خلال أسفاره في بلاد الفرس والاتراك، فنقل منها فصولا عدة، وجعلها في كتابه مادةً للدلالة على الأقاليم والبلدان التي أراد ان يصفها على طريقته.

ومع ذلك، فقد أصبحت الرسالة، فيما بعد، مفقودة او في حكم المفقودة، فكان مانقله ياقوت الحموى عنها كل ما بقي في ايدينا منها.

وقد تنبه المستشرقون الى اهمية هذه الرسالة، فبحثوا عنها في المراجع العربية، وجمع المستشرق فران (*C. M. Frahn*) مانقله ياقوت وغيره من هذه الرسالة، ونشره في

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة لايبزك، ١٨٦٧، الجزء الاول، ص ١١٣.

سنت بطرسبرغ في سنة ١٨٢٣ في طبعة عربية بذل في تحقيقها جهودا كبيرة.

وبعد نشر مجموعة «فران» بقرن كامل، وفي سنة ١٩٢٣، اكتشف العالم التركي «زكي وليدى طوغان» في مدينة مشهد (طوس) بايران نسخة مخطوطة من «رسالة ابن فضلان»، فكان ذلك حدثاً علمياً عظيماً غيّر سير الدراسات عن هذه الرحلة الشائقة.

وكانت المخطوطة الثمينة التي اكتشفت في مشهد تحتوي على أربع رسائل إحداها رسالة ابن فضلان. ولكن آخر المخطوطة كان مبتوراً مخروماً، ولذلك بقيت الرسالة ناقصة. ومن يدري، فقد تظهر منها نسخة أخرى في وقت قريب او بعيد، فتضيف جديداً الى معلوماتنا عن هذه الرحلة.

وقد انصرف المستشرقون منذ اكتشاف المخطوطة الى دراستها والتعريف بها. وقام «زكي وليدي طوغان» بتحقيقها والتعليق عليها وترجمتها الى اللغة الالمانية. فأكمل مافيها، وقابلها على ياقوت وغيره، وأتبعها بنصوص من الجغرافيين العرب، ونشر نصها العربي مع ترجمة المانيّة لها، في سنة ١٩٣٩[٢].

وتوالت بعد ذلك الأبحاث والدراسات عن رحلة ابن فضلان. وكان أكثر من عني بها المستشرق الخاركوفي كوفاليفسكي الذي كتب عدة أبحاث عنها منذ سنة ١٩٣٩، حين أصدر ترجمة روسية للرسالة مع تعليقات وشروح ثمينة. وصورة فوتوغرافية للرسالة كلها منقولة عن مخطوطة مشهد. وكتب المستشرق الكبير كراتشكوفسكي مقدمة لهذا الكتاب تضمنت دراسةً قيمةً للرحلة وصاحبها. ثم اتخذ كوفاليفسكي تلك الدراسة فيما بعد اساساً لرسالة الدكتوراه التي كتبها عن ابن فضلان في سنة ١٩٥٠[٣]، واحتوت الرسالة على مواد جديدة تصور عصر ابن فضلان وشخصيته. وقال الاستاذ كراتشكوفسكي إن دراسة ابن فضلان دخلت في طور جديد بفضل هذا البحث[٤]. ولكوفاليفسكي مقالات وأبحاث عديدة عن ابن فضلان ورحلته في المجلات العلمية السوفيتية[٥]، وكتب المستشرق الالماني «ريتر» في سنة ١٩٤٢ دراسةً ونقداً لدراستي طوغان وكوفاليفسكي وأضاف اليهما معلومات

---

(٢) *Abhandlungen fur die Kunde des Morgenlandes* xxiv. 3 (Leipzig - Brockhaus 1939).

(٣) نشرت الرسالة في خاركوف سنة ١٩٥١ بعنوان «ابن فضلان» ثم صدرت لها طبعة اخرى موسعة، في خاركوف ايضا، سنة ١٩٥٦، في ٣٤٧ صفحة.

(٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة، ١٩٥٧، القسم الاول، ص ١٨٧.

مفيدة، وصحح كثيرا من العبارات التي وردت في متن الرسالة[٦].

وكان آخر الدراسات التي صدرت عن «رسالة ابن فضلان» هي التي كتبها ريجارد فراي، الاستاذ في جامعة «هافارد» الامريكية، في سنة ١٩٧٩. وقد تضمنت الدراسة ملاحظات مهمة عن الرسالة، مع ترجمة انكليزية للفصول التي لم تسبق ترجمتها الى اللغة الانكليزية، وهي الفصول التي لم ينقلها ياقوت في «معجم البلدان». وقد حلل «فراى» المعلومات الجديدة التي أضافتها الرسالة الى مانعرفه عن البلدان والاقوام التي مرت بها البعثة وهي معلومات طوبوغرافية وطبيعية ونباتية، وأخرى تتعلق بشعوب تلك الاقاليم وأديانهم وعاداتهم الاجتماعية وملابسهم ولغاتهم وكتابتهم وحكوماتهم وشؤونهم السياسية[٧].

وكان هذا الاهتمام الكبير الذي نالته «رسالة ابن فضلان» وماتضمنته من معلومات، حافزاً على ترجمتها الى لغات عديدة. فالى جانب الترجمتين الالمانية والروسية سالفتي الذكر، تُرجمت الرسالة الى اللغة الهنغارية[٨]، والتركية ـ وقد ترجمت اليها مرتين ـ[٩]، والفارسية[١٠]، والانكليزية[١١]، والفرنسية[١٢]، وللرسالة ترجمة يابانية ايضا[١٣].

---

(٦) Ritter. H., Zum text von Ibn Fadlan's Reisebericht, ZDMG, XCVI, 1942, pp. 95 - 126 .

(٧) نشرت هذه الدراسة بعنوان: Notes on the Risala of Ibn - Fadlan Richard N. Frye, *Islamic Iran and Central Asia (7th - 12th Centuries)*, Variorum Reprints, London, 1979.

(٨) Czegledy, K., Zur Meshheder Handschrift von Ibn Fadlan's Reisebericht, *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, I, 1 - II, 1951, p. 217 - 260.*

ومما يدل على اهتمام الهنغاريين (المجر) برسالة ابن فضلان ما قاله الدكتور شاندور فودور، الأستاذ بقسم الدراسات العربية في جامعة بودابست، في محاضرة ألقاها في مؤتمر «الجمعية الاسلامية» الذي عقد في تلك الجامعة في ١١ شباط ١٩٨٢ بعنوان «تاريخ حركة البحوث الاسلامية في المجر»:

«ان تاريخ الشعب المجري قبل توطنه الحالي يستمدّ معلوماته الأساسية من مصادر كتابات الرحالة المسلمين ومؤرخيهم وجغرافييهم الذين ندين لهم بالشكر والامتنان، ومنهم: ابن فضلان، وابن رستة، والبكري، والمسعودي، وعشرات غيرهم ...»

(أنظر: الدكتور محمد التونجي: «أول جمعية اسلامية تنشأ في المجر»، مجلة العربي، العدد ٢٨٣، الكويت، حزيران، ٢٩٨٢، ص ٨٤

(٩) نشرت الترجمة الاولى بقلم (لطفي طوغان) في مجلة كلية الالهيات، جامعة استانبول، العددان ١ أ ٢، ١٩٥٤، ص ٥٨ ـ ٨٠، اما الترجمة الثانية فقد نشرها (رمضان ششن) في كتاب مستقل:

Şeşen, Ramazan, *İbn Fazlan Seyahatnamesi*, (Bedir Yayınevi), Istanbul, 1975.

(١٠) رسالة ابن فضلان، ترجمة ابو الفضل الطاطبائي، طهران، سنة ١٣٤٥ شمسية.

(١١) ترجمتها R. P. Blake و R. N. Frye.

(١٢) نشرت هذه الترجمة في الجزائر سنة ١٩٥٨:

M. La Relation du voyage d' Ibn Fadlan chez les Bulgares de la volga, Extr. *Annales Institute Etudes Orientales*, XVI, pp. 41 - 46, Alger, 1958 .

(١٣) اشير اليها في الترجمة التركية لـ «ششن»، ولم نقع على تفاصيلها ولامكان نشرها.

أما في اللغة العربية، فقد كانت الطبعة الوحيدة للرسالة بالحروف العربية هي التي نشرها زكي وليدى طوغان، لأن الدراسة التي نشرها كوفاليفسكي اكتفت بنشر الصور الفوتوغرافية لمخطوطة مشهد، ولم تُعنَ بطبع النص بحروف الطباعة العربية، ولذلك فانها لم تكن نافعة للقارىء العربي العادي لصعوبة قراءة المخطوطة وكثرة مافيها من نواقص ومواضع مبتورة ومخرومة. ومع ذلك، فان طبعة زكي وليدى، التي كانت الطبعة العربية الوحيدة، تحتوي على أخطاء كثيرة، وهي، بعد، نادرة لاتصل اليها الأيدي بسهولة، لأنها ظهرت في مجلة المانية يصعب الحصول على نسخ منها.

ولذلك عُني بأمر هذه الرسالة البحاثة السوري المرحوم الدكتور سامي الدهان منذ سنة ١٩٥١، باشارة من المرحوم محمد كرد علي، فحققها وعلق عليها ونشرها في طبعة عربية جديدة صدرت عام ١٩٥٩ في جملة مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مؤدياً بذلك خدمة علمية جليلة. وهكذا أصبحت بين أيدينا، للمرة الأولى، طبعة عربية واضحة لهذه الرسالة التي كتبت قبل ألف عام تقريبا.

* * *

قام ابن فضلان برحلته في عهد الخليفة المقتدر بالله الذي وُلّي الخلافة في سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) وهو يافع في الثالثة عشرة من عمره. وكانت الدولة العباسية في ذلك العهد ماتزال ـ في مظاهرها الخارجية على الأقل ـ على شيء من القوة والازدهار. وعلى الرغم من أن فترة رخاء الدولة العباسية كانت قد بدأت بالاضمحلال منذ عهد المعتصم، أو ربما الواثق، حين بدأت سلطة الخلفاء بالتدهور السريع بسبب الحرس التركي، والمصالح الشخصية، وثورة الزنج، وحركة القرامطة، وسقوط ايران ومصر، فان الخليفة المعتضد ـ والد المقتدر ـ وأخاه الاكبر «المكتفي» قد نجحا الى حد ما في توطيد هيبة الخلافة. فقد أصبح غرب ايران وجنوبها يعتمدان على بغداد مرة أخرى. وعين الخليفة المعتضد ولده الاكبر المكتفي والياً على الري. وفي بخارى ـ من آسيا الوسطى ـ قويت سلالة التاجيك السامانية ودانت بالولاء للخليفة العباسي، ونصرته على خصومه العلويين في طبرستان. ولما امتدت حركة القرامطة الى بلاد الشام، هزَمها قائد الخليفة في معركة حماه، واعدم قائدهم في بغداد مع عدد من الأسرى وأنصار القرامطة. وبعد ان كانت مصر قد استقلت عن الخلافة وسيطرت على سورية تماماً افلح القائد محمد بن سليمان في دحر الدولة الطولونية واعادة مصر الى حظيرة الخلافة، وأصبح والياً عليها.

أما الوضع الداخلي فقد كان متأزماً جدا. فالتذمر في كل مكان، والثورات على وشك الانفجار، ونضال الأحزاب من أجل السلطة على أشدّه. ولذلك كله فان

سلطة الخليفة الفتي، في بداية تسنمه الخلافة، كانت تتهددها مخاطر كبيرة. ولكن أنصاره ومؤيديه تمكنوا من الحفاظ على عرشه.

وكان أقرب رجاله اليه صفي الحرمي، وهو من رجال أبيه وأخيه، ورئيس الخدم في قصره. والواقع أن الخليفة المقتدر كان مديناً بتوليه العرش الى صفي الحرمي الذي وقف بدهائه الى جانبه، وصد كل فتنة واقعة او محتملة.

ولم يكد الخليفة المقتدر يتول الخلافة حتى قامت محاولة لخلعه، دُبرت بقصد تولية بن عمه «ابن المعتز» مكانه. وقد تولى ابن المعتز الخلافة ليوم واحد، ولكن أنصار المقتدر تمكنوا في آخره من خلع ابن المعتز وقتله واعادة المقتدر الى الخلافة.

وكان المقتدر ضعيف الشخصية عديم الكفاية، فتحكم الوزراء في شؤون الدولة، وصرّفوها حسب أهوائهم، وأصابوا ثراءً فاحشا. وكانت الرشوة، والاختلاس، والتبذير أمورا شائعة في ذلك العهد، واعتيادية للوزير، ولم يكن الوزراء ليحاسبوا أو يعاقبوا الا في حالات سوء التصرف الفاحشة.

وتوفي صفي الحرمي، رئيس الخدم في سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م)، فخَلَفَه في منصبه نذير الحرمي الذي أصبح بدوره أقرب المقربين الى الخليفة.

لقد حاول رئيس بطانة القصر، وجميع المحيطين به أن يهيئوا للخليفة كل اسباب المتعة والتسلية ليخلو لهم الجو في تصريف الأمور حسب اهوائهم.

وقد وصف الخطيب البغدادي دار الخلافة في زمن المقتدر بالله فقال إنه كان له أحد عشر ألف خادم، وفي قصره خزائن وكنوز. فكانت في أحد قصوره مثلاً شجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات خاصة. . وكان عدد ماعُلّق في القصور من الستور الديباج المذهبة والمصورة ثمانية وثلاثين ألف ستر. وكان في القصر أكثر من ألف فرس عليها مراكب ذهبية وفضية[١٤].

وكانت في قصر المقتدر حديقة خاصة للحيوانات تدعى «دار الوحش». ويُروى أن أحمد بن هلال أرسل اليه هدية تتألف من مجموعة كاملة من الحيوانات الغريبة، بينها وحوش البحر، والقردة النادرة من شرق آسيا، وأفاع كبيرة، وحتى نملة هائلة الحجم من افريقية الشمالية بحجم قطة كبيرة، مقيدة بسلاسل، وموضوعة في قفص من حديد. وعلى الرغم من أنها ماتت في الطريق، فقد احتفظ بها في سائل خاص، وحملت الى بغداد، وشاهدها الخليفة المقتدر وسكان بغداد.

أما الخليفة الذي كان يعيش في مثل هذا الجو، محاطاً بمثل هؤلاء الوزراء، فكان بمعزل عن شؤون الدولة، ينفق وقته في الحرم، بين نسائه وجواريه، ويقال إنه قلما

كان يشاهد صاحيا.

وفي غمرة هذه الحياة اللاهية التي كان الخليفة يحياها، وصل بغداد في ربيع سنة ٩٢١ م مبعوث من بلد ناءٍ اسمه عبد الله بن بشتو، ولقبه الخزري، يحمل رسائل من ملك الصقالبة في الشمال. وكانت إحدى الرسائل معنونة الى الخليفة المقتدر نفسه. والاخرى الى نذير الحرمي الذي يبدو أن ملك الصقالبة كان يعلم بوجوده، والثالثة الى الوزير حامد بن العباس.

وكان ملك الصقالبة (او السلاف) في رسالته يطلب الى خليفة المسلمين أن يبعث اليه «من يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الاسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً لقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له».

ولكن من هو ملك الصقالبة؟ وأين تقع بلاده؟ وكيف أسلم؟ ومن هم الملوك المخالفون له؟

ملك الصقالبة الذي أرسل الى الخليفة العباسي هذه الرسالة طالبا معونته كان يحكم الشعب البلغاري الذي استوطن روسية واقام لنفسه دولة في أعالي نهر الفولغا واعتنق الاسلام.

فقد كانت المنطقة الجنوبية من روسية ـ والتي تعرف بمنطقة السهوب ـ منذ أقدم الأزمنة ساحةً للمعارك بين سكانها الاصليين، وبين الأقوام التي تعاقبت على غزوها واستيطانها. وآخر هذه الاقوام قبائل بدوية، يقال إنها من أصل تركي ـ مغولي، أغارت على المنطقة في القرن السادس الميلادي، ونشأت عنها فيما بعد دولتا «الخزر» و «البلغار». وقد اعتنقت أولاهما الديانة اليهودية، ودخلت الثانية في الاسلام.

وانفصل «البلغار» عن «الخزر» لأنهم لم يرغبوا في الخضوع لهم، وقد كانت دولة الخزر أقوى من دولتهم وأكبر. فاضطروا الى المهاجرة، فذهب قسم منهم الى شمال بلاد الخزر، واستقروا في حوض نهر اتل (او نهر «الفولغا») وأسسوا هناك دولة «بلغار الفولغا». وقد اعتنقت هذه القبائل الاسلام فيما بعد. أما المجموعة الثانية منهم فقد اتجهت الى الغرب، فأخضعت القبائل السلافية التي كانت فيها، واندمجت بها، واقامت لها دولةً على الارض التي تعرف باسم «بلغاريا» حتى اليوم.

ان أقدم مايعي التاريخ من أخبار الاسلام في اوربا الشرقية يرجع الى بلاد البلغار. وهي ثانية البقاع الأوربية استنارة بالاسلام، وأولاها الأندلس.

---

(١٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد مدينة السلام، طبعة (دار الكتاب العربي)، بيروت (بلاتاريخ)، ص ٩٩ـ١٠٥.

وكلمة «بلغار» اسم للقوم، وللوطن الذي استوطنوه، ولعاصمة البلاد. وكانت هذه المملكة تمتد من جبال اورال في الشرق الى مجرى نهر ولفا ونهر اوفا في الغرب. ونهر «ولفا» هو نهر «الفولغا» المشهور. وحدودها الجنوبية تمتد الى بحر الخزر او مايقرب منه، وقد اختلف على مر الزمان. واما الحدود الشمالية فكانت تنتهي الى البلاد التي سماها القدماء ارض الظلمة، يعنون آخر المعمور المعروف في تلك العصور[١٥].

وقد ذكر «البلغار» كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين كالمسعودي، وابن رستة، وأبي عبد الله الغرناطي، وياقوت. كما زارها ابن بطوطة (في حدود سنة ٧٣٢ هـ. ١٣٣٢ م.) وقال عن سفره اليها:

«وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لأرى ماذكر عنها من انتهاء قِصَر الليل بها وقصر النهار ايضا في عكس ذلك الفصل. وكان بينها وبين محلة السلطان[١٦] مسيرة عشر، فطلبت منه من يوصلني اليها، فبعث معي من أوصلني اليها وردني اليه ووصلتها في رمضان، فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذّن بالعشاء في أثناء إفطارنا، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر، وطلع الفجر اثر ذلك. وكذلك يقصر النهار بها في فصل قِصَره ايضا، واقمت بها ثلاثا»[١٧].

اما مدينة «بلغار» حاضرة المملكة، فكانت شرقيّ نهر «اتل» على نصف فرسخ منه، حيث الدرجة خمس وخمسون من العرض الشمالي، والدرجة ست وستون من الطول الشرقي، وهي تبعد حوالي تسعين كيلومتراً عن موقع مدينة «قازان» الحالية في روسية.

واما دخول البلغار في الاسلام، فقد روى أنه كان في أيام المأمون العباسي والواثق، ولايبعد أن يكون الاسلام عرف بينهم في ذلك الزمان، ولكن أكثر المؤرخين يؤرخون إسلامهم في عهد الخليفة المقتدر، ويستندون في ذلك الى الوفد الذي أرسلوه الى بغداد في ذلك العهد طالبين مساعدة الخليفة. ولكن الأرجح انه كان قبل ذلك.

ولم يقتصر طلب ملك البلغار على إرسال من يعلمهم الاسلام، بل طلب الى الخليفة ايضا أن يمده بالعون على أعدائه، وأن يرسل اليه من يبني له حصنا يتحصن به

---

(١٥) عبد الوهاب عزام، «البلغار المسلمون»، مجلة (الثقافة) القاهرة، ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤، العددان ٢٦١ و ٢٦٢.

(١٦) يريد السلطان **محمد اوزبك**، خان مغول القبيلة الذهبية، وكانت محلته (اي عاصمته) تدعى: «بش داغ».

(١٧) **رحلة ابن بطوطة**، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ص ٣٣٨.

ضدهم. وكان هذا الطلب أشبه بالمساعدات الفنية والعسكرية التي تطلبها الدولة النامية في هذه الايام من الدول الكبرى.

اما الاعداء الذين أراد ملك البلغار أن يحتمي منهم فهم الخزر الذين اعتنقت الطبقة الحاكمة فيهم الديانة اليهودية. وحسبما فهم من رسالة ابن فضلان فيما بعد فان ملوك الخزر كانوا يعتدون على البلغار، ويفرضون عليهم الضرائب، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك البلغار، ويتزوجها غصبا، وكانت مملكة الخزر في ذلك الوقت أقوى من مملكة البلغار كثيرا، وتؤكد ذلك الحوليات الروسية بوضوح، وكذلك المصادر العربية.

ويلاحظ أن رسول ملك البلغار الى الخليفة المقتدر كان خزري الاصل. وانه لأمر يبدو غريباً أن يعتمده ملك البلغار في مثل هذه المهمة الخطيرة الموجهة ضد ملك الخزر. ويفسر كوفاليفسكي ذلك بأن عبد الله بن بشتو ـ رسول ملك البلغار ـ كان لاجئا سياسيا من الخزر يمثل مسلميها الذين حاولوا الاطاحة بالملك، وقلب بلادهم الى دولة مسلمة. وان اعتناق جيرانهم البلغار الديانة الاسلامية كان من شأنه تقوية مكانة المسلمين في بلاد الخزر. وقد اختار ملك البلغار «عبد الله بن بشتو» سفيراً له لدى الخليفة لأنه كان أقدر على اعطائه معلومات دقيقة عن الحالة الداخلية في بلاد الخزر.

وقد بحث طلب ملك البلغار في بلاط المقتدر وتقرر تلبيته وارسال وفد أو سفارة الى مملكته.

ان نجاحا، ولو كان جزئيا، في مثل هذه المهمة، كان له معنى كبير الاهمية. فقد كانت هنالك، في أجزاء الخلافة كلها، معارضة قوية، وعدم ارتياح بالغ ظهرا في صورة مذاهب مختلفة أخذت تهدد سلطة الخليفة والطبقة الحاكمة بأسرها. وكان هجوم القرامطة على البصرة مايزال ماثلاً في الاذهان. وفي غرب فارس كان النزاع على السلطة مستمرا. وفي السواحل الجنوبية لبحر الخزر، وفي طبرستان وجيلان، كان العلويون معادين للخليفة العباسي بشدة، وقد استقروا فيها وأخذوا ينشرون دعايتهم ويمدون سلطتهم على بلاد فارس كلها. اما الأقاليم الشمالية والشرقية بما في ذلك اذربيجان وارمينيا وبلاد ماوراء النهر وخوارزم، فقد كانت كلها تدين للخليفة بالولاء.

ولذلك فان تقوية نفوذ الخلافة في منطقة بلغار الفولغا، وهي الدولة التي دخلت في الاسلام حديثا، كان من شأنه ان يعزز مركز الخلافة في المناطق الشمالية قبل أن تمتد اليها دعايات خصومهم ونفوذهم. ولذلك استقر الرأي على تلبية الطلب وإنفاذ

السفارة.

وهنا ظهرت المشاكل المعتادة التي تواجه لدى تأليف الوفود. فممن يتألف هذا الوفد؟

ان السفر الى تلك الاصقاع النائية، في ذلك العهد، لم يكن بطبيعة الحال لوناً من الوان المتعة والترف التي يتنافس فيها المتنافسون اليوم كلما تقرر إرسال وفد أو بعثة، وانما كان مغامرة شاقة، محفوفة بالمخاطر والاهوال، قد يعود المسافر بعدها سالماً، وقد لايعود.

ثم كيف تدبر الأموال اللازمة لهذه السفرة الطويلة، وما سيتبعها من بناء المسجد والحصن، ومايجب ان يحمله الوفد من هدايا؟

ولاشك ان مشاكل التحويل الخارجي، والعملة الصعبة والسهلة، كانت لحسن الحظ أموراً غير معروفة في ذلك الوقت. ومع ذلك فكان لابد من تدبير مبلغ محترم من المال يكفي لتغطية هذا المشروع.

اما فيما يتعلق بتأليف الوفد، فكان لابدّ من اختيار شخص موثوق. ولم يكن أحد من الأمراء أو الوزراء المحيطين بالخليفة مستعداً للذهاب في هذه السفرة الطويلة الخطرة. ولما كان نذير الحرميّ هو المحرك الأول لهذه الفكرة، واليه وجه ملك البلغار إحدى رسائله، وهو الذي أوصل الى الخليفة الرسالة الموجهة اليه، فقد أخذ الأمر على عاتقه ورشّح لهذه المهمة أحد مواليه، وهو (سوسن الرسّي).

وذهب مع سوسن عديله ـ ولم يذكر اسمه ـ ويبدو أنه لم يكن له دور كبير. ثم غلامان من غلمان الخليفة هما (تكين التركي) و (بارس الصقلابي). ويبدو أن اثنين من أعضاء الوفد كانا يعرفان اللغة الروسية، فالأول (سوسن) يبدو في نسبته من بلاد الروس[١٨]. وقد استُجلب كرقيق، ثم تعلم العربية، وحسُن إسلامه وتقدمت به مراتبه، والثاني (بارس الصقلابي)، واسمه ونسبته دليلان على أصله.

وأما الثالث فهو تركي الأصل، يجيد لغات الاتراك الذين يمرّ الوفد ببلادهم في طريقه الى الفولغا، وهو الذي أقنع نذير الحرميّ بايصال كتاب ملك البلغار الى الخليفة المقتدر.

ان طريقة اختيار الوفد تدل على إدراك لمهمة الدبلوماسي، ومايبنغي أن يتحلى به من مؤهلات تجعله مقبولاً لدى الجهة التي يوفد اليها، وتسهّل عليه القيام بمهمته لديها. وهذا الاختيار يدل أيضا على نضج التفكير السياسي، وعلى مستوى الكفاءة

---

(١٨) سوسن الرّسي: ومن المحتمل ايضا ان تكون هذه النسبة الى نهر «الرس»، وهو النهر المعروف اليوم باسم نهر «أراكس» في اذربيجان.

الذي كان عليه جهاز الدولة في العهد العباسي حتى في أدوار ضعفها، وهو مستوى ماتزال بعض الحكومات مفتقرة اليه في القرن العشرين .

ومع ذلك، فلم يكن بين أعضاء البعثة مَن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدبلوماسية والدينية في وقت واحد، ويعرّف منطقة بخارى - التي كان الوفد سيمرّ بها - بالاسلام وشرائعه وأحكامه، وبمراسم الخلافة في بغداد. ولذلك تقرر أن يُضم الى البعثة شخصٌ يدعى أحمد بن فضلان .

إننا لانعرف عن هذا الشخص الا القليل، ولا نقع على ترجمة له في كتب الجغرافية والتاريخ والأخبار، ولانرى سطراً واحداً يشير اليه .

واسمه الكامل (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد)، وهذه السلسلة من الأسماء تشير الى أنه كان عربيا، كما يبدو من رسالته أنه كان يعدّ نفسه عربيا، وكذلك كان المحيطون به يعدّونه عربيا، واذا صحّ ذلك كان ابن فضلان العربي الوحيد في البعثة .

على أن اسم (فضلان) لم يكن من الأسماء الشائعة او المألوفة في ذلك العصر، مع ان الرسالة تقول إنه كان مولى محمد بن سليمان الذي هزم الدولة الطولونية في مصر، ويقول ياقوت انه كان مولى لمحمد بن سليمان ثم مولى أمير المؤمنين .فاذا صحّ ذلك، فهو من العجم الموالي لذلك الزمان .

أما في البلاد الشمالية التي أوفدت اليها البعثة فقد كان جميع أعضائها يوصفون بالعرب، لأنهم كانوا رسل الخليفة العربي. فقد كانوا يقدمون الى رؤساء الغزيين الذين مرّوا بهم في طريقهم بأنهم (سفراء ملك العرب) وتقول زوجة ملكهم «هذه هي الهدايا التي أعطاها اياها العرب». والروس خاطبوا ابن فضلان قائلين: أنتم يامعشر العرب .

وهناك نقطة رئيسية اختلف فيها المؤرخون والباحثون اختلافاً كبيراً، وهي رئاسة البعثة. ويذهب الدكتور سامي الدهان الى ان رئاسة الوفد كانت لابن فضلان[19]. بينما يرى كوفاليفسكي ان رئيس الوفد كان (سوسن الرسيّ)[20] ويؤيده في هذا الرأي كراتشكوفسكي فيقول ان رئاسة الوفد كانت لسوسن الرسي، وان احمد بن فضلان كان عضواً فيه، الا انه في رسالته يحاول دائما ان ينسب الى نفسه الدور الرئيسي[21].

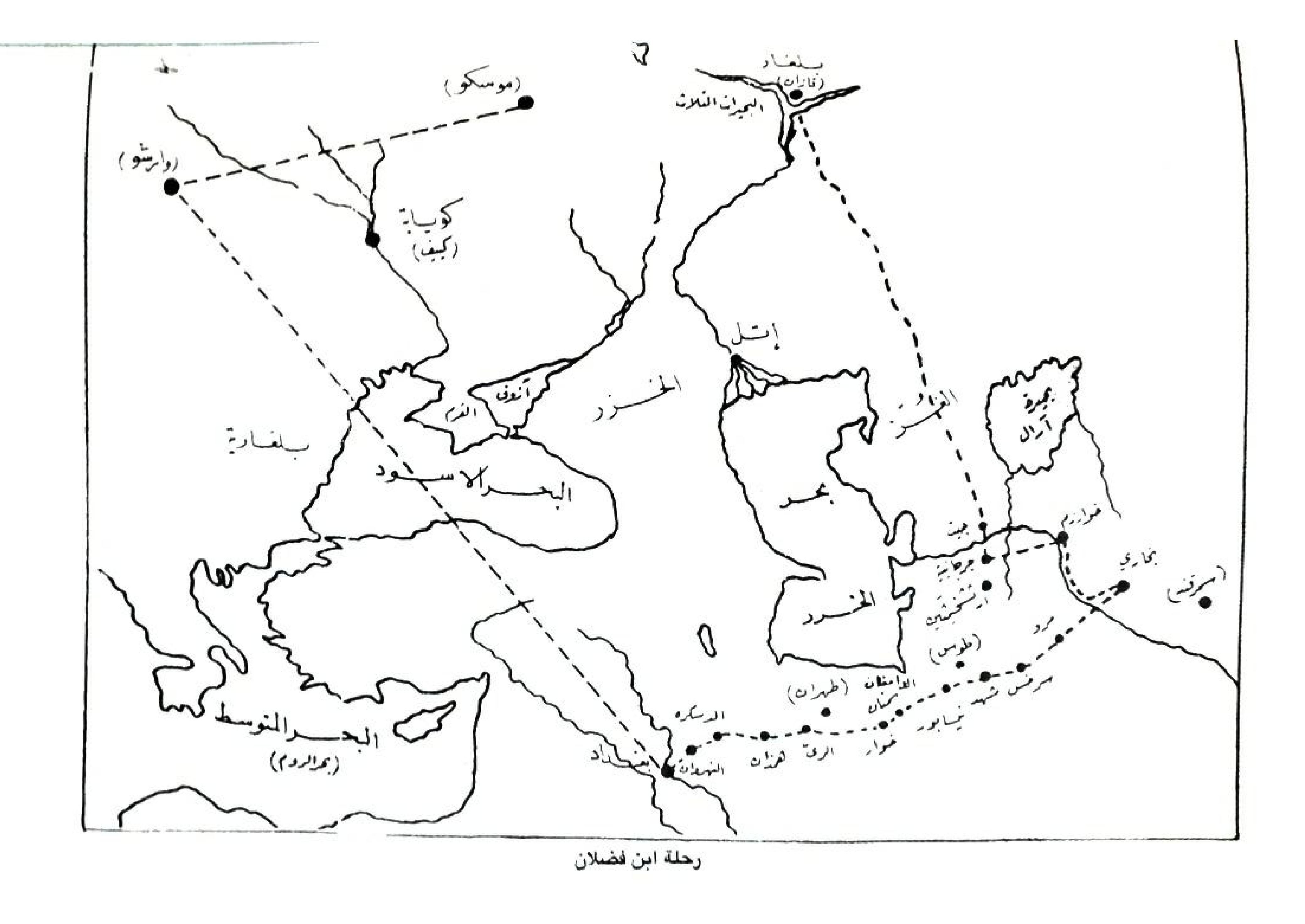
ويبدو لنا ان هذا الرأي اقرب الى الصحة، بل اننا نعتقد ان هذا الاختلاف غير

---

(١٩) سامي الدهان، رسالة ابن فضلان، دمشق، ١٩٥٩، ص ٢٤ .

(٢٠) آندريه كوفاليفسكي، «سفارة الخليفة الى ملك بلغار الفولغا» .

(٢١) كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي - ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الاول، ص ١٨٧



رحلة ابن فضلان

ذي موضوع، لأن ابن فضلان نفسه ـ على الرغم من محاولته أن ينسب الى نفسه الدور الرئيسي في الوفد ـ قد اثبت ذلك في رسالته بصورة غير مباشرة حين قال في مقدمتها :

«وكان الرسول الى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله ابن باشتو الخزري، والرسول من جهة السلطان سوسن الرسي، مولى نذير الحرمي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي، وانا معهم . . .» .

ولو كانت رئاسة الوفد الى ابن فضلان لقال مثلا إنني كنت الرسول عن جهة السلطان ومعي فلان وفلان . .

ولذلك يبدو أن دور ابن فضلان في السفارة كان أقرب الى دور مانعرفه اليوم بالملحق الثقافي منه الى دور السفير. على أن اشتهار الرحلة باسمه كان سببه أنه كتب مذكراته عنها. فعُرفت هذه المذكرات باسم رسالة ابن فضلان، وبالتالي اشتهرت الرحلة باسم رحلة ابن فضلان .

اما فيما يتعلق بنفقات الرحلة، والمال اللازم للفقهاء والمعلمين، ولبناء الحصن، فقد تقرر أن تؤخذ من خراج ضيعة معينة من ضياع الوزير السابق (ابن الفرات)[22] .

اما الضيعة التي خصص خراجها لنفقات السفارة فكانت تسمى (أرثُخُشمِثَين) وهي قريبة من خوارزم . وقد زُوّد الوفد بكتاب الى وكيل ابن الفرات، أوعز اليه فيه بتسليم المبلغ الى أحمد بن موسى بن الخوارزمي الذي كان سيرافق الوفد الى خوارزم .

* * *

رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٠٩ هـ (الموافق ٢١ حزيران سنة ٩٢١ م) وصعّد شرقاً وشمالاً، ماراً باقليم الجبال، فهمدان، فالري (قرب طهران اليوم) .

وعلى الرغم من أن ابن فضلان يؤكد في مذكراته على حرص الوفد على الاستعجال في السفر، فان القافلة بقيت أحد عشر يوماً في الري، بانتظار مقابلة واليها أحمد بن علي، ثم واصلت السفر فلقيته في المحطة التالية في الري، وهي «خوار» ،حيث أقاموا ثلاثة أيام أخرى .

وكان الطريق الى نيسابور محفوفاً بالمخاطر لوجود العلويين في طبرستان. وقد

---

(٢٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، وكان من أجل الناس، استوزره المقتدر، ثم خلعه وصادر املاكه ومنع جراياتها، وجعلها للدولة.

خشي الوفد أن يعرف انهم رسل الخليفة العباسي، فتنكروا في القافلة، ومروا كمسافرين عاديين .

ومن نيسابور سافرت البعثة الى «بخارى» ، وكان الطريق آمنا، وفي بخاري قابلوا أميرَها الشاب نصر (الثاني) بن أحمد، صاحب خراسان، وهنأوه - باسم الخليفة - على اعتلائه عرش السامانيين. ويروي ابن فضلان باستغراب أن الامير الجديد لم تكن له لحية، ووصفه بانه كان غلاماً امرد. ولكنه أشار بصورة خاصة الى انه حين استفسر عن الخليفة خلال المقابلة سماه «مولاي امير المؤمنين» وابدى استعداده لتنفيذ أوامره. ونالت البعثة كل ترحاب وتأييد، وكثيرا من الهدايا، ولكن الحصول على مبلغ الـ ٤٠٠٠ دينار المخصصة لمصروفات البعثة من جراية مقاطعة ابن الفرات (ارثخشمثين) كانت فاشلةً على الرغم من أن البعثة قضت في بخاري ثمانية وعشرين يوما .

فقد كان وكيل ابن الفرات في (ارثخشمثين) شخصا يدعى الفضل بن موسى النصراني، وكان كتاب الخليفة يقضي بتسليم المبلغ الى أحمد بن موسى بن الخوارزمي الذي كان من المفروض أن يرافق البعثة، ولكنه تأخر عنها وسأل امير خراسان: وأين أحمد بن موسى؟ فقالوا له: خلّفناه بمدينة السلام ليخرج خلفنا لخمسة أيام .

وحين اتصل الخبر بوكيل ابن الفرات أعمل الحيلة في منع وصول أحمد بن موسى الى بخارى، وكتب الى عمال المعاون - اي قائد الشرطة بطريق خراسان ان يعتقلوه الى ان يرد عليه كتاب منه .

وأقامت البعثة في بخاري ثمانية وعشرين يوما، وكان الوكيل يحرض الوفد على مواصلة السفر، ويلقي في روعهم أنه اذا داهمهم الشتاء لما تمكنوا من السفر. أما أحمد بن موسى فانه يستطيع اذا وافاهم ان يلتحق بهم .

فرحلوا من بخارى راجعين الى النهر، ثم تكاروا سفينة الى خوارزم. ولما وصلوها قابلوا اميرها «محمد بن عراق بن خوارزم شاه» فأكرمهم وأحلّهم ضيوفاً عليه، ولكنه حاول منعهم من مواصلة السفر شمالا بحجة الحرص على سلامتهم. فما زالوا يلحون عليه ويرفقون به حتى سمح لهم بالسفر، فتوجهوا الى «الجرجانية» .

ويقول ابن فضلان: «فرأينا بلداً ماظننا الا أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولايسقط فيه الثلج الا ومعه ريح عاصف شديدة»[٢٣] ويقول أيضا: «ولقد رأيت

---

(٢٣) رسالة ابن فضلان، طبعة الدكتور سامي الدهان، ص٨٣، والمقتبسات التالية من الرسالة كلها من هذه الطبعة .

لهواء بردها بان السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الانسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً، ولا يستقبله انسان. ولقد كنت أخرج من الحمام، فاذا دخلت الى البيت نظرت الى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج، حتى كنت أدنيها الى النار»[٢٤].

وقد تطاول مقام البعثة في الجرجانية، فأقاموا بها أياماً من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال (وكانت تصادف تشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط) حتى اذا أخذ الزمان في التغيّر وانحل نهر جيحون بعد جموده، شدت البعثة رحالها، واتجهت شمالا في ٢ ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ (أي ٤ مارت ١٩٢٢ م).

وكانت لحظة السفر حاسمة. فقد افترق عن البعثة الغلمان الذين غادروا بغداد معها، كما افترق عنها آخر من بقي من الفقهاء والمعلمين خوفا من مواصلة السفر، بعد أن هالهم ماشاهدوه في الجرجانية من قسوة الطبيعة.

ويرى كوفاليفسكي أن ذلك كان بسبب عدم تسلم البعثة مبلغ الـ ٤٠٠٠ دينار الذي منه كانت ستدفع رواتبهم. ومنذ ذلك الوقت وقعت جميع اعمال البعثة ومهماتها الادارية والكتابية على عاتق ابن فضلان وحده.

وبعد مسيرة شاقة وصلت البعثة الى بلاد الغُزيين، وهم قبيلة من الأتراك يقيمون قرب (كازاخستان) الحالية:

«واذا هم بادية لهم بيوت شعر، يحلّون ويرتحلون، ترى منهم الأبيات في كل مكان، ومثلها في مكان آخر، على عمل البادية وتنقلهم، وإذا هُم في شقاء»[٢٥]

ووصف ابن فضلان عاداتِ هؤلاء القوم الاجتماعية وطرازَ معيشتهم، وديانتهم، ورسوم تزويجهم، وجنازاتهم.

وواصلت البعثة سفرها، حتى وصلت الى بلد قوم آخرين من الأتراك يقال لهم «الباشغرد»، وسارت حتى اجتازت عدة انهار ووصلت أخيرا الى بلاد الصقالبة بعد مغادرة الجرجانية بسبعين يوما.

وعلى الرغم من قيام مملكة البلغار التي ظهرت نتيجة للتطور الاجتماعي الاقتصادي لبعض الشعوب التي احتلت شواطيء الفولغا الوسطى وفروعها، فقد كانت هنالك الى جانبها قبائل فنلندية وسلافية. ولكن البلغار قاموا بالدور الرئيسي في تكوين الدولة.

وفي بداية القرن العاشر قُضي على النظام القبلي هناك، وظهر مجتمع طبقي من

---

(٢٤) ص ٨٥

(٢٥) ص ٦١

نوع ماقبل نظام الاقطاع، حيث يكون أعضاؤه الاحرار المنتجين الرئيسيين، ويستخدم العبيد جزئياً للعمل في الحقول. ولكن العبيد في الغالب كانوا بمثابة بضائع أو أموال للتصدير، وكانت الزراعة تحتل مكانة مهمة في الاقتصاد القومي .

وكانت دولة البلغار قد تأسست على أسس المجتمع الطبقي، ويقوم على رأسها الملك، وهو يدّعي لنفسه السلطة المطلقة. واذا كان الملك يتمتع بالسلطة المطلقة فأنه ـ بطبيعة الحال ـ لم يكن يتمتع بشعبية مطلقة. ولكن عدم الارتياح لسلطانه لم يكن ليظهر نفسه بوضوح .

ويلاحِظ ابن فضلان، ويسجل باستغراب، أن الملك يسير في الأسواق وحيداً بدون حراسة، ولكنه كان يقيم في مركز مقاطعته، حيث السكان المحليون، وخاصة التجار منهم، يهمهم وجود سلطة قوية تضمن مصالحهم. وكلما ابتعد المرء عن هذا المركز، وخاصة عن طرق التجارة، قويت التقاليد القبلية ومعارضة الملك .

وكان من الواضح أنه حتى لمجرد توطيد الطبقة الحاكمة التي ظهرت حديثا، ورفع سلطة الملك الى مستوى عال، كان اعتناق الاسلام ضروريا، وكان الاسلام قد تغلغل في تلك المناطق منذ مدة طويلة، وانتقل من آسيا الوسطى بنتيجة الصلات التجارية. واخذ الملك والنبلاء المحيطون به بتأييد الاسلام، وجلبوا من آسيا الوسطى رجال الدين الذين أعلنوا اسم الملك في الخطب .

ومع ذلك، فان هذا جميعا كان مجرد بداية، وكان هنالك مسجد، ولكن لم يستطع أن يؤدي فيه الصلاة الا القلة. وأقرب الأمراء الى الملك كان صهره ـ أمير قبيلة «ايزغيل» ـ الذى لم يكن دخل في الاسلام بعد. وحتى أن الملك نفسه له يكن له اسم إسلامي: «المش بن يلطوار» ولذلك كان من الضروري للبلغار أن يرجعوا الى جهة ذات سلطة في العالم الاسلامي لاكمال دينهم .

والى جانب هذه الاسباب ذات الطابَع الداخلي لاعتناق الاسلام، كان هنالك أيضا سبب خارجي في غاية الاهمية:

فقد كان بقاء الدولة البلغارية وثيق الصلة بالتجارة. وكانت الدولة قد أسست في ملتقى الطرق التجارية في الفولغا الوسطى. ونفهم من ابن فضلان أن لديهم (اي البلغار) كثيراً من التجار الذين يذهبون الى بلاد الترك، وأن الملك كان يراسل أهلها. وقد وصلت البعثة ذاتها من الطريق الموصلة الى اراضي الترك، وهي تمتد على منطقة الباشكير الى بلاد الغُزية ومنها الى خوارزم وبلاد السامانيين .

والى جانب ذلك فقد كانت مصالح البلغار والخزر متعارضة وغير قابلة التوفيق. فجميع الطرق الشمالية على الفولغا وفروعه كانت مفتوحة للبلغار، ومنها كان

الروس يصلون الى بلاد البلغار. ولكن هذه الطريق كانت موصدة بوجه الخزريين الذين كانوا يرغبون في الاتجار مع البلاد الشمالية مباشرة، فيحول البلغار بينهم وبين ذلك .

ومن هنا كانت أمنية ملك الخزر، أو خاقانهم كما كان يلقب، أن يسيطر على بلاد البلغار، وقد نجح في ذلك فعلاً لمدة مؤقتة. ويروي ابن فضلان أن ملك الصقالبة كان يؤدي الى ملك الخزر ضريبة سنوية، وأن ابن ملك الصقالبة كان رهينة عند ملك الخزر. وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال، فوجه يخطبها، فاحتج عليه، وردّه، فبعث وأخذها غصبا، وهو يهودي، وهي مسلمة فماتت عنده، فوجّه يطلب بنتاً له أخرى .

ولذلك فقد وجد البلغار من الضروري، توطيدا لقوتهم العسكرية، ان يبحثوا عن حلفاء لهم. وكان الغُزّيون يمثلون هؤلاء الحلفاء في البداية، ولكن الغزيين كانوا في حروب مستمرة مع خوارزم والدولة السامانية، وأن رسوخ الاسلام في بلاد البلغار، كان معناه توتر علاقاتها مع تينك الدولتين، فانصرفوا عن آسيا الوسطى الى بغداد .

وكانت بغداد مهتمةً بالقضاء على دولة الخزر واكتشاف الطرق المائية المباشرة الى الشمال، في حين أن اندحار الخزريين لم يكن في مصلحة أقطار آسيا الوسطى، ولذلك رأينا أن (خوارزم شاه) حاول بعناد أن يُثني البعثة عن السفر الى الشمال .

وفي بلاد الخزر نفسها كان ثَمّ كفاح شديد بين الأحزاب. ونحن نعلم أن دولة الخزر، على الرغم من تهوّد ملوكها وأمرائها ، كانت تضم بين عامتها نسبة كبيرة من المسلمين. كما كان هنالك حرس مأجورون من المسلمين في خدمة خاقان الخزر من أصول مختلفة. وكان في عاصمة الخزر قاض للمسلمين تعيّنه الحكومة، وثلاثون مسجدا. وكان جيش المسلمين مرتبطا باتفاق خاص مع الخاقان يقضي بعدم اشتراكه في أية حرب على المسلمين .

وقبل تطور الأحداث بهذه الصورة لم يكن لهذا الشرط مغزى خاص، لأن الدولة الاسلامية الرئيسية المجاورة لدولة الخزر كانت «خوارزم» ، وصلاتها مع مملكة الخزر كانت ودية، وتجمعها بهم عداوة مشتركة للغزيين. ولكن اعتناق البلغار للاسلام غيرّ هذا الوضع تغييراً كلياً. فقد وجد ملك البلغار في مسلمي الخزر حلفاء مخلصين له، أو «رتلا خامسا» يمكن الاستعانة به في الملمات، حتى أنه اختار مسلماً خزرياً سفيراً له الى الخليفة المقتدر .

وكان ملك البلغار، في الواقع، يعلم أن الخليفة لايستطيع أن يمده بمعونة عسكرية

فعلية ، وأن اقصى مايستطيع أن يطمح اليه هو أن يبني لـه حِصنا يقيـه هجمات الخزريين. ولكن اعتراف ملك البلغار بالخليفة العباسي رئيسا ـ ولو اسمياً ـ للدولة زاد في مكانته المعنوية بنظر رعيته وبنظر الشعوب المجاورة. وقد حوّل ذلك البلغار من الاعتماد على دولتي السامانيين وخوارزم ، وبذلك سهل عليها التحالف مع الغزيين، وإن لم يدخلوا في الاسلام .

وهكذا وصلت سفارة الخليفة المقتدر الى بلاد البلغار بعد سبعين يوماً من مغادرتها الجرجانيّة، فلما كانت على مسيرة يوم وليلة من مقر الملك توجه لاستقبالها الملوك الأربعة الذين كانوا تحت يده، وكذلك إخوته وأولاده، فلما أصبحوا على فرسخين تلقاهم هو بنفسه :

«فلما رآنا خرّ ساجداً لله ـ جل وعز ـ وكان في كُمّه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قِبابا فنزلناها»[٢٦] .

وكان وصول البعثة يوم الاحد ١٢ مايس، فأقامت أربعة ايام في القبـاب التي ضُربت لهم، وبنفس الوقت كان يُجري المفاوضات مع ابن فضلان حـول صيغة الخطبة ومختلف الشعائر. وقد ألح ابن فضلان على إدخال الاقامة المفردة في الاذان كما هو المتبع في بغداد، بدلاً من تثنيتها حسب العادة في آسيا الوسـطى، وأولَمَ الملك الولائم للوفد، وشرب الحاضرون شراب العسل الذي يسمونه (السجو)، وقيلت فيها أنخاب للخليفة، وقدّم ابن فضلان هدايا الخليفة الى الملك وزوجه، وكانت جالسة الى جنبه، وفي أول جمعة أُقيمت أول صـلاة جماعـة، وتَسَمّى الملك باسم إسلامي جديد، وهو (جعفر) ـ اسم الخليفة المقتدر ـ الذي اختاره تبركا وتيمنا .

وبعد قراءة كتـاب الخليفة بثـلاثة ايـام، وتقديم الهـدايا، بعث الملك الى ابن فضلان، ورمى اليه كتاب الخليفة والوزير، وجرى بينهما فصل عاصف بسبب الـ ٤٠٠٠ دينار التي لم يوصلها الوفد، وطالب ابن فضلان بالمبلغ قائلاً للترجمان: «قل له أنا لاأعرف هؤلاء، إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم، ولـو علم الأستاذ ـ أيده الله ـ [يريد الخليفة] أنهم يبلغون ماتبلغ مابعث بك حتى تحفظ علي وتقرأ كتابي وتسمع جوابي، ولست أُطالب غيرك بدرهم، فاخرج من المال فهو أصلح لك»[٢٧] .

فانصرف ابن فضلان من بين يديه مذعورا مغموما .

وبعد ذلك أمر الملك مؤذنه أن يثنّي الاقامة مرة أخرى ففعـل، فلما سمع ابن

(٢٦) ص ١١٣

(٢٧) ص ١١٩ ـ ١٢٠

فضلان تثنيتها نهاه وصاح عليه، فعرف الملك ذلك، فأحضره وأحضر أصحابه، وأجرى مناظرة غريبة. وقد أظهر للسفراء سوء العمل الذي ارتكبوه بعدم حمل الـ ٤٠٠٠ دينار، كما رفض تبني الشعائر الاسلامية المتبعة في بغداد، وأبدى تمسكه بشعائر آسيا الوسطى. وقد فسر ذلك بان المذهب الحنفي الذي كان سائداً في آسيا الوسطى هو أكثر تساهلاً وأقرب الى ظروف حياة البلغار من المذهب المتبع في العراق. والى جانب ذلك فان الاحتفاظ بالمذهب الحنفي كان ضرورياً بسبب العلاقات التجارية والثقافية التي كانت قد تأسست بين مملكة البلغار وأقطار آسيا الوسطى، وفي بلاد البلغار كان رئيس التجار من آسيا الوسطى، وكان فيها كثير من النساء الخوارزميات.

وبنتيجة هذا التغير في مزاج الملك تضعضعت مكانة سفارة الخليفة في بلاد البلغار، ومع ذلك فان الملك لم يرغب في قطيعة كاملة مع الخليفة فجامل ابن فضلان مجاملة خاصة، وأسماه ابا بكر الصديق.

وفي محادثة تالية سأل ابن فضلان الملك قائلا: «مملكتك واسعة، وأموالك جمة، وخراجك كثير، فلِمَ سألت السلطان أن يبني حِصنا بمال من عنده لامقدار له؟ فأكد له الملك ان أموال الخليفة لم تكن في الواقع ضرورية جدا، إذ أن لديه المال الكافي لبناء الحصن: «ولو أني أردت ان أبني حصناً من أموالي من فضة وذهب، لما تعذر ذلك عليّ»[٢٨] وانما أراد أن يتبرك بمال أمير المؤمنين، لان اموال الخليفة مأخوذة من حِلّها اي مما حللته الشريعة. وهذه العبارات لاتحمل مغزى دبلوماسياً فقط، وانما هي تدل أيضا على وجود سحر خاص في الفكرة التي لدى ملك البلغار عن الخليفة. ومن جهة أخرى يعلن الملك تخوّفه من غضب أمير المؤمنين إذ يقول: «فوالله اني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، واني لخائف من مولاي أمير المؤمنين. ذلك اني اخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو عليّ، فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبينه البلدان الشاسعة»[٢٩]

وخلال ذلك كله كانت تجري في بلاد الخزر المجاورة أحداث خطيرة فالأنباء التي وردتها عن وصول سفارة الخليفة الى مملكة البلغار، وعن توطد الاسلام فيها بصورة نهائية، أثارت هياجاً عظيماً بين المسلمين المحليين. وكان المهيجون الرئيسيون رجال الدين المسلمين، وخاصة المؤذنون فيما يظهر. وعلى الرغم من وجود أكثرية مسلمة في بلاد الخزر، فقد كانت الحكومة من القوة بحيث تمكنت من قمع الحركة. وقد حدث

---

(٢٨) ص ١٤٦

(٢٩) ص ١٢٢

أن أحرق كنيس يهودي في محل يدعى «دار البابونج» فاستغل «خاقان» الخزر هذه الحادثة فأمر بهدم إحدى المنائر الموجودة في عاصمة الخزر، وقتل المؤذن ولكنه أبقى على الجامع خوفاً من أن تهدم جميع الكنائس اليهودية الموجودة في بلاد المسلمين، ولكن ليس من المستبعد أنه خشي أن يتفاقم الأمر داخل مملكة الخزر، فيؤدي هدم الجامع الى هياج المسلمين وثورتهم .

وبعد هذه الأحداث، وحتى منتصف حزيران تقريبا، بقي بن فضلان في مقر الملك قرب البحيرات الثلاث، وراقب الحيّاتِ في الغابات المجاورة، وركب الخيل مع الملوك لمشاهدة عظام عملاق ميت. واخيراً أزجى وقته في سوق على سواحل نهر اتل. وهنالك على سواحل ذلك النهر، وفي أحد أيام الجمعة شاهد عملية حرق جثة أحد الموتى الروس .

والحقّ أن ابن فضلان ترك لنا في وصف رحلته صورةً واضحةً للبلغار والروس وحضارتهم وعاداتهم وتجارتهم. ويشهد ماكتبه بأن البلغار كانوا مايزالون دون ماوصل اليه العرب في مدنيتهم، وان بدت بعض عاداتهم طريفة ،كأن يأكل كل واحد من مائدته لايشاركه فيها أحد، ولايتناول من مائدة غيره شيئا. وأنهم كانوا يتبركون بعواء الكلاب، ويعدونه بشيراً بسنة خصب وبركة وسلامة. وأن الحيّات عندهم كثيرة، وانهم لايقتلونها ولاتؤذيهم :

«كل من زرع شيئاً أخذه لنفسه، ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدون اليه من كل بيت جلد ثور. واذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كانت له معهم حصة. وكلهم يلبسون القلانس، فاذا ركب الملك ركب وحده بلا غلام ولاأحد معه. فاذا اجتاز في السوق لم يبق أحد الاّ وقام وأخذ قلنسوته عن رأسه تحت ابطه، فاذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم، وكذلك كل من يدخل على الملك من صغير وكبير حتى أولاده وإخوته . .»[٣٠] .

ومما أتعب ابن فضلان في مهمته الدينية أن الرجال والنساء كانوا ينزلون النهر فيغتسلون جميعا عراة لايستتر بعضهم من بعض. وقد اجتهد في منع ذلك فلم يوفق. وكان مركز المرأة بينهم عاليا، وكانت الملكة تجلس الى جانب الملك في المناسبات الرسمية .

ومن الطبيعي أن يعرض ابن فضلان في رسالته لطول الليل شتاءً، وطول النهار صيفاً، وتعذر تحديد ساعات الصلاة، فقد كتب في هذا:

---

(٣٠) ص ١٢٩

«ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قُبتي نتحدث، فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء، فاذا بالاذان، فخرجنا من القبة، وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذن: أي شيء أذنت؟ قال: الفجر. قلت: فعشاء الاخيرة؟ قال: نصليها مع المغرب، قلت: فالليل؟ قال: كما ترى، وقد كان اقصر من هذا، وقد أخذ الآن في الطول . . . الخ»[31] .

أما فيما يتعلق بروسية، فلاشك أن مملكة البلغار القديمة تقع في قلب مايدعى «روسية» اليوم، وان مدينة «قازان» (التي هي اقرب المدن الحالية الى موقع مدينة بلغار القديمة) تقع على خط العرض ذاته مع موسكو التي لم تكن قد بنيت بعد. ولكن دولة الروس في تلك الأيام كانت تدعى «امارة كييف» التي أُسست سنة ٨٨٢م كأول دولة روسية موحدة، وكانت عاصمتها «كييف» وملكها وقت زيارة ابن فضلان لبلاد البغار كان «ايغور». وقد دامت الدولة الروسية في كييف حوالي اربعة قرون (من سنة ٨٧٨م الى سنة ١٢٤٠م) ونمت وازدهرت وتقوت عسكرياً، فأصبحت عاصمة روسيا السياسية والدينية، ولذلك سميت تلك الفترة من تاريخ روسية «عهد كييف». وحينما ظهر اسم موسكو للمرة الأولى في سنة ١١٤٧ لم تكن أكثر من مركز تجاري صغير. أما المدينة الكبرى في روسيا فكانت «فلاديمير» .

ان ابن فضلان الذي تغلغل في روسية الجغرافية، لم يذهب الى ماكان يؤلف «بلاد الروس» أو «الدولة الروسية» في تلك الايام، ولكنه قابل خلال سفرته كثيراً من الروس الذين كانوا يمرون ببلاد البلغار في تجارتهم، وأفرد للتحدث عنهم فصلاً في رسالته، افتتحه قائلا:

«ورأيت الروسيّة، وقد وافوا في تجاراتهم، ونزلوا على نهر اتل، فلم أر أتمَّ أبداناً منهم كأنهم النخل، شقر، حمر الخ. . . .»[32] .

ويصف ابن فضلان ملبسهم وحليهم وبعض صفاتهم وعاداتهم الصحية والجنسية بأوصاف وعبارات صريحة ـ لايسمح المقام باقتباس معظمها ـ ثم يقول:

«واذا مرض الواحد منهم ضربوا له خيمة نائية عنهم، وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء، ولايقربونه ولايكلمونه، بل لايتعاهدونه في كل أيام مرضه لاسيما إن كان ضعيفاً او مملوكاً، فان بريء وقام رجع اليهم، وان مات أحرقوه، فان كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير» .

---

(٣١) ص ١٢٤ ـ ١٢٥

(٣٢) ص ١٤٩

«واذا أصابوا سارقاً أو لصّاً جاءوا الى شجرة غليظة، وشدوا في عنقه حبلا وثيقا، وعلقوه فيها وبقي معلقاً حتى يتقطع من المكث بالرياح والامطار»[٣٣].

ويذكر ابن فضلان: «وكان يقال لي إنهم يفعلون برؤ سائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذلك، حتى بلغني موت رجل منهم جليل، فجعلوه في قبره، وسقفوا عليه عشرة أيام، حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها».

«وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة، ويجعلونه فيها، ويحرقونها. والغني يجمعون ماله، ويجعلونه ثلاثة أثلاث. فثلث لأهله، وثلث يقطعون له به ثيابا، وثلث ينبذونه به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها، وتُحرق مع مولاها».

«وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده، واذا مات الرئيس منهم، قال أهله لجواريه وغلمانه: من منكم يموت معه؟ فيقول بعضهم: أنا، فاذا قال ذلك، فقد وجب عليه، ولايستوي له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ماترك، وأكثر من يفعل هذا الجواري»[٣٤].

ويمضي ابن فضلان في وصف حرق الزعيم الروسي وصفاً مفصلاً دقيقاً قال فيه المستشرق الروسي «مينورسكي» انه كان دقيق الملاحظة، فوصف حفلة الحرق وصفا دقيقا رائعا، حتى لقد استطاع احد رسامي الروس منذ ستين عاما ان يرسم اعتمادا على هذا الوصف صورة لهذا المشهد الرهيب، تزين الآن أحد جدران متحف (ترياكوف) المشهور في موسكو.

* * *

وليس من الممكن أن نقرر ـ على وجه التحديد ـ موعد مغادرة البعثة الى بغداد، ولكن مانستطيع أن نجزم به هو أن البعثة لم تبق في البلاد الشمالية خلال الشتاء، وأنها لم تعد عن طريق بلاد الخزر، بل سلكت الطريق التي جاءت منها عبر بلاد الغزيين، وقد وصلت البعثة الى خوارزم في حدود نهاية تشرين الأول (اكتوبر) أو بعد ذلك، ولابد من الافتراض أنها قضت الشتاء في خوارزم ايضا، ولكنها لم تمر في طريقها ببخارى لعدم وجود ضرورة لذلك.

وعلى أي حال فقد عادت البعثة الى بغداد في ربيع سنة ٩٢٣م ولكنها لم تكن تحمل انباء سارة، ولم يتحقق شيء من الآمال التي عقدت عليها. صحيح، أن أمير

(٣٣) ص ١٥٤ ـ ١٥٥

(٣٤) ص ١٥٥ ـ ١٥٦

السامانيين قدم للسفارة كل مساعدة، وأبدى لها كل احترام، وكذلك فعل ملك البلغار، ولكن النتائج السياسية للسفارة كانت ضئيلة أو معدومة. فالغزيون لم يدخلوا في الاسلام، وملك البلغار - بسبب عدم تسلمه المال الموعود لبناء الحصن - فقد الثقة في مساعدة الخليفة، وفضل الابقاء على صِلاته الوثيقة مع بلاد آسيا الوسطى، وفي بلاد الخزر تعرض المسلمون - بسبب هذه السفارة - للضغط والاضطهاد.

وقد ألقى كل فرد من أفراد البعثة تبعة فشل المهمة على الآخر، وحاول ابن فضلان في مواطن كثيرة من رسالته تبرير موقفه، وابراز جهوده وعدم مسؤ وليته عما وقع من أخطاء، واكد أنه حذر رفاقه منها. كما أنه وصف الاستقبال الرسمي وصفاً مفصلاً مؤكداً اهتمامه بالمحافظة على سمعة الخليفة..

وعلى الرغم من فشل البعثة من الناحية الدبلوماسية، فقد ترك ابن فضلان رسالة ثمينة، أصبحت مصدراً من أهم المصادر عن تاريخ الأصقاع التي زارها، وعن الحياة الاجتماعية فيها. كما أن رسالته ربما كانت أول كتاب مذكرات يكتبها دبلوماسي عربي قبل الف عام بالاسلوب الذي أصبح شائعاً في كتابة المذكرات في العصور الحديثة، وهو من هذه الناحية من المظاهر المهمة لاصالة التراث الثقافي العربي.

العَربُ فى الأتحاد السوفيتى



من الحقائق التي لاتعرف كثيراً عن الاتحاد السوفيتي وقومياته المتعددة، أن فيه جالية عربية قوامها بضعة آلاف شخص، تعيش منذ عدة قرون في جمهورياته الجنوبية - وخاصة في جمهورية «ازبكستان» - وأنها ماتزال محتفظة بلغتها ومعظم تقاليدها العربية، وتتحدث بلهجات عربية تختلف فيما بينها، ولكنها بصورة عامة أقرب الى اللهجة العراقية.

وتمثل هذه الجالية إحدى الأقليات القومية في الاتحاد السوفيتي الذي يُعد من أكثر دول العالم تعدداً في القوميات، بل أكثرها جميعاً[1]، فقد سجل إحصاء السكان العام لسنة **١٩٥٩** أن في الاتحاد السوفيتي (١٠٩) قوميات، الى جانب (١١) مجموعة صغيرة تتصل بقوميات اخرى[2]، ولكل منها لغتها الخاصة وثقافتها وطراز معيشتها.

والعرب في الاتحاد السوفيتي منتشرون في المنطقة التي كانت تدعى في السابق «تركستان»، وتعرف جغرافياً باسم «آسيا الوسطى»، وينقسمون الى مجموعتين رئيسيتين، إحداهما تسكن منطقة «قاشقادريا»، والأخرى تعيش بالقرب من «بخاري»، ولكل من المجموعتين لهجتها الخاصة. وهنالك أكثر من ثمانين قرية يسكنها العرب ولاتزال محتفظة بأسماء مثل: **عرب، عرب خانه، عربليار، عرب قشلاق، عرب مزار**، وماأشبه.

وتختلف الآراء في أصل هذه الجاليات العربية وزمن قدومها الى هذه المنطقة. ويرى بعض الباحثين والمؤرخين أنهم يتحدرون عن العرب الذين رافقوا تيمورلنك الى «سمرقند» عند عودته من حملته الى الشرق الأدنى في القرن الرابع عشر الميلادي. وهنالك من يذهب الى القول بأنهم من بقايا الحملات العربية التي وصلت المنطقة أيام الفتح العربي بقيادة قتيبة بن مسلم في القرن الثامن الميلادي[3].

---

(١) A. pershits, How Many People Live in the USSR, *Nedelya* (A Supplement to the *Izvestia*) No. 26, Moscow, July 1964.

(٢) *USSR / Questions and Answers*, Novosti Press Agency, Moscow, (no date), p. 8.

(٣) A. Bennigsen C. Quelquejay, *The Evolution of the Muslim Nationalities of the USSR and their Linguistic* Problems, *(English tr)*, London, 1961, p. 56.

ولم تكن هنالك ـ حتى أوائل هذا القرن ـ عناية تذكر بدراسة أحوال هذه الجاليات العربية او تاريخها، سوى إشارات عرضية عابرة في كتب بعض الرحالة الذين سافروا الى آسيا الوسطى.

فقد ذكر «ميندورف» الذي اجتاز «بخاري» في سنة ١٨٢٠ عن العرب الذين شاهدهم أنهم «يعيشون في القرى التي يقع بعضها في ضواحي بخاري، وبعضهم من البدو الرحل، وآخرون انصاف رحل، وهم يتنقلون من (كارشي) في اتجاه (ترمذ)، ومعظمهم مزارعون، ولهم مواش يرعونها في السهول، وهم الذين يجهزون التجار بفراء الحمل المشهورة». وقدر ميندورف مجموع العرب في بخاري بحدود خمسين الفا.

وكتب «خانيكوف» عن العرب في سنة ١٨٤٣ أن عددهم يزيد عن «التاجيك»[٤] قليلا، ولكنهم مشتتون في الأقسام الشمالية لامارات «الخانات»[٥] وأكثر مايتجمعون في المناطق القريبة من «سمرقند» ويعيش بعضهم عيشة البدو الرحل، ويستوطن البعض الآخر القرى والمدن لتعاطيهم التجارة، وان ملامحهم تنم عن أصلهم العربي، كما أنهم يتكلمون العربية فيما بينهم ـ وان لم تكن عربية خالصة دائما ـ وعملهم الرئيسي تربية المواشي والاتجار بفراء الحمل التي يبيعونها في اسواق «الخانيات».

ووصف عرب تلك المنطقة أيضاً المستشرق الرحالة المجرى «فامبيري» الذي كان أول أوربي يجتاز صحراء «قره قوم»، وقد اجتازها متخفياً بزي «درويش» ووصل «بخاري» في سنة ١٨٦٣ بقصد دراسة المنطقة وسكانها. قال فامبيري إنهم «فيما عدا ملامحهم ليس لهم شبه كبير باخوانهم في الحجاز او العراق، حتى انني رايت بينهم كثيرين ممن لايتكلمون العربية. ويبلغ عددهم ٦٠ الفا، وهم يعيشون عيشة الحضر»[٦].

كما حدد «غاير» عدد العرب في منطقة سمرقند في سنة ١٩٠١ ـ استناداً الى المعلومات التي جمعها المحققون المحليون ـ بـ ٢٠ الف نسمة.

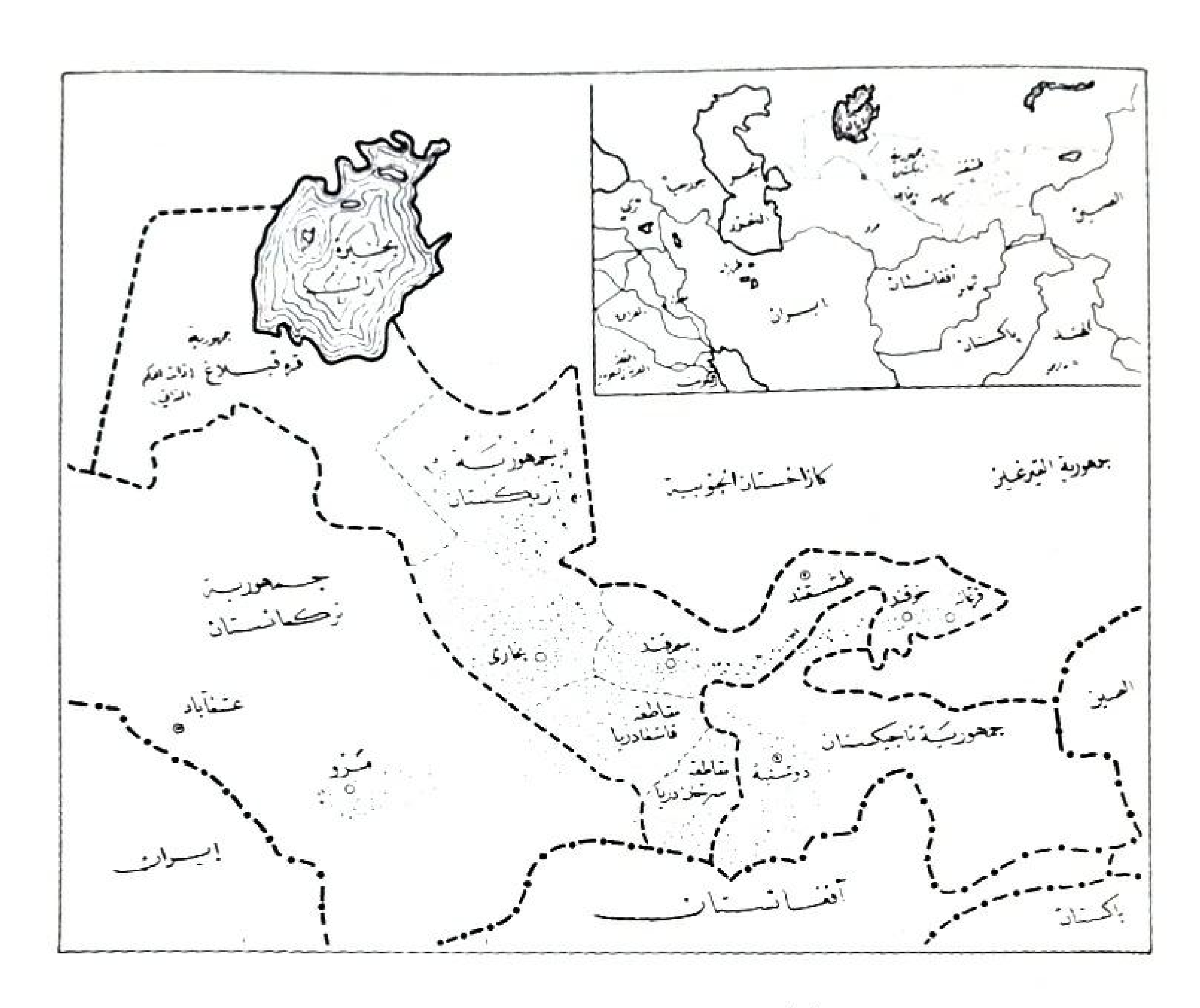
وأخذت الجاليات العربية في آسيا الوسطى تنال شيئا من الاهتمام بعد الثورة

---

(٤) «التاجيك» من الشعوب التي تعيش في آسيا الوسطى والافغان، وتتكلم الفارسية، وعددهم في الاتحاد السوفيتي (حسب احصائية سنة ١٩٥٩) يبلغ ١,٤٠٠,٠٠٠، يعيش معظمهم في «جمهورية تاجيكستان الاشتراكية السوفيتية»، مع اقلية كبيرة منهم في «اوزبكستان».

(٥) «الخانات» ـ جمع: خان ـ هم حكام مقاطعات آسيا الوسطى، وآخر من تبقى منهم حاملاً هذا اللقب هو خان بخارى الذي أطاحت به الثورة البلشفية في نهاية سنة ١٩٢٠.

(٦) A. Vambery, *Travelse in Central Asia*, London, 1864, p. 308



اماكن توطن العرب في الاتحاد السوفيتي

البلشفية وقيام الحكومة السوفيتية، وخاصة بعد الاطاحة بأمير بخاري ـ في نهاية سنة ١٩٢٠ ـ اذ اهتمت «اكاديمية العلوم السوفيتية» بسكان «تركستان» وأرسلت في سنة ١٩٢١ بعثتين اثنوغرافيتين إحداهما الى منطقة «سيردارين» والأخرى الى منطقة «سمرقند» لدراسة طراز معيشة سكانها.

وقد واصلت بعثة «سمرقند» عملها في المنطقة في سنة ١٩٢١، ودرست ـ ضمن سكان المنطقة ـ أحوال عرب منطقتي «سمرقند» و«قاط ـ كورغان»، كما جمعت بعض المعلومات والروايات عن تاريخ ظهور العرب في آسيا الوسطى والظروف التي جاءت بهم اليها، ووجدت أن كثيراً من العرب ربطوا هجرتهم من البلاد العربية باسم «تيمورلنك» واعتبروا المناطق المحيطة بمدينة «كارشي» المركز الأول لتوطن العرب.

وقررت الحكومة السوفيتية في سنة ١٩٢٤ إعادة تقسيم آسيا الوسطى الى مناطق ادارية جديدة على اساس القوميات التي يتألف منها سكانها[٧]، وألفت لجنة خاصة لدراسة الموضوع، فقامت هذه اللجنة ضمن اعمالها بدراسة عدد العرب في منطقة بخاري، وحصلت على مزيد من المعلومات عن العرب المنتشرين في تاجيكستان وتركمانيا.

وتوالت الدراسات عن عرب الاتحاد السوفيتي ولهجاتهم بعد ذلك:

ففي سنة ١٩٢٦ قامت باحثتان سوفياتيتان هما «ن. ن. بوريكينا» و«م. م. اسماعيلوفا» برحلة الى المناطق التي يسكنها العرب، ودرستا لغتهم، واشتركتا في إعداد بحث عن لغة عرب قرية «جوغا» ـ في منطقة بخاري ـ وقرية «جيناو» ـ في منطقة قاشقا دريا ـ في جمهورية ازبكستان، كأنموذجين للهجتين الرئيسيتين لعرب آسيا الوسطى. وكان اكتشاف لغة عرب آسيا الوسطى من الأحداث المهمة في تاريخ الاستعراب السوفيتي. ومما يدل على أهمية هذا الاكتشاف أنه أذيع في أنباء خاصة في كثير من مراكز الدراسات السامية في اوربا.

وفي سنة ١٩٢٧ قامت بعثة انثروبولوجية أرسلتها اكاديمية العلوم في جمهورية ازبكستان بدراسة انثروبولوجية لعرب آسيا الوسطى.

وفي سنة ١٩٣٦ أرسل «معهد الشؤون الشرقية» التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية بعثة الى ازبكستان، فقامت ـ بارشاد المستشرق كراتشكوفسكي ـ بدراسة لغة عرب آسيا الوسطى وفولكلورهم واثنوغرافيتهم. واستؤنف عمل هذه البعثة في سنة ١٩٣٨ بطلب من معهد الاثنوغرافيا التابع للاكاديمية نفسها. وقد ركزت هذه البعثة

---

(٧) كانت آسيا الوسطى في العهد القيصري مقسومة الى ثلاثة اقسام: ولاية تركستان، وامارة بخارى، وامارة خيوه ـ واسمها القديم «خوارزم» ـ وقد أعيد استعماله في العهد السوفيتي.

اهتمامها بالعرب الذين احتفظوا بلغتهم الاصلية. ونجحت عمليات الاحصاء التي أجريت في كل عائلة تتكلم العربية في ازبكستان. كما سجلت البعثة كثيراً من المواد اللغوية والفولكلورية لتثبيت بعض الخصائص التي احتفظ بها العرب من آثار ثقافتهم القومية، وتطور التنظيم الاقتصادي لحقوقهم وكيانهم الاجتماعي والعائلي[٨].

وقد ظهر في الاتحاد السوفيتي عدد من العلماء والمستشرقين الذين اهتموا بدراسة أحوال العرب في آسيا الوسطى ولهجاتهم، وتخصصوا في هذه الموضوعات. ومن أبرزهم المستشرق اللينينغرادي الأستاذ «اسحق فينيكوف» والمستشرق الجورجي «غيورغي ف. تسيريتيلي» أستاذ اللغات السامية في جامعة تبليسي (تفليس).

فقد اتخذ الأول «العرب في الاتحاد السوفيتي» موضوعاً لرسالة الدكتوراه التي قدمها الى جامعة لينينغراد في سنة ١٩٤١، كما نشر عدداً كبيراً من الأبحاث والمقالات اللغوية والاثنوغرافية عن هذا الموضوع تضمنت نتائج الدراسات التي قام بها شخصيا في مناطق توطن العرب في آسيا الوسطى والبعثات الخمس التي اشترك فيها بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٤٣[٩]، كما وضع معاجم كبيرة للهجات آسيا الوسطى العربية على أساس عدد كبير من المواد الفولكلورية. وستقدم هذه المعاجم، حين تطبع، صورة كاملة عن أصول هذه اللهجات وقواعدها وتركيبها. أما «تيسيريتيلي» فقد اهتم بصورة خاصة بدراسة لغة عرب آسيا الوسطى ولهجاتهم وذهب في عدة بعثات الى مناطق توطنهم، وقضى في أبحاثه اثنتين وعشرين سنة كانت حصيلتها كتاباً ضخماً عن الموضوع ـ في أربعة مجلدات ـ الى جانب أبحاث ودراسات مهمة أخرى.

وهنالك دراسات متفرقة اخرى أهمها دراسة المستشرق «يوشمانوف» المعنونة «اللجهة العربية في الشرق السوفيتي»، ودراسة المستشرق الأستاذ «ف. بيليايف» عن الخطوط الرئيسية لتطور الأدب العربي في آسيا الوسطى.

ومما يبعث على الأسف أن لا تكون هذه الدراسات ـ بل ولا واحدة منها ـ مترجمة

---

(٨) عرضت نتائج أعمال هذه البعثة في الدورة الثانية لجمعية المستشرقين في ١٩ ـ ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧، واجتماع جمعية المستشرقين في شباط (فبراير) ١٩٣٩، وعن القسم الآخر من البعثة القى تسيريتيلي تقريراً في الدورة المشار اليها بعنوان «لغة عرب آسيا الوسطى»، كما نشر عنها بحثين في «سجلات معهد اللغات التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية»، المجلد ٧، سنة ١٩٣٩، ص ٢٥٤ ـ ٢٨٣.

(٩) أهمها البحث التفصيلي الذي نشره في مجلة (الاثنوغرافيا السوفيتية) سنة ١٩٤٠ (العدد ٤، ص ٣ ـ ٢٢) بعنوان «العرب في الاتحاد السوفيتي»، وأبحاثه عن «عرب آسيا الوسطى خلال الحرب الوطنية الكبرى» و «المرأة ودورها في حفظ التقاليد الثقافية عند عرب آسيا الوسطى»، ومقالات عديدة عن لغة عرب بخارى وفولكلورهم.

الى اللغة العربية حتى الآن. وعسى أن يضطلع بهذا العمل بعض شبابنا الذين تخرجوا في الجامعات السوفيتية، فيقدموا للغتهم خدمة ممتازة.

كانت الموضوعات الرئيسية التي تناولتها هذه الدراسات عن عرب آسيا الوسطى هي عددهم الحقيقي، والبلاد التي جاءوا منها الى المنطقة، وتاريخ هجرتهم، ومناطق توطنهم، ومدى احتفاظهم بلغتهم وتقاليدهم، ودراسة لهجاتهم وفولكلورهم.

اما فيما يتعلق بعددهم فلم يكن هنالك في السابق إحصاء دقيق له، وكانت التخمينات تتراوح بين عشرين ألفاً واربعين الفاً. وظهر بنتيجة إحصاء السكان العام الذي أجرى في سنة ١٩٢٦ ـ وهو أول احصاء رسمي للسكان في العهد السوفيتي ـ أن عدد العرب الذين تم تسجيلهم يبلغ (٢٨,٩٧٨) نسمة.

وقد ساعدت عمليات الاحصاء والأعمال المتعلقة باعداد قوائم المناطق الأهلة بالسكان في آسيا الوسطى على جمع المزيد من المعلومات عن العرب في الاتحاد السوفيتي، وأماكن توطنهم، ودرجة احتفاظهم بلغتهم.

ولوحظ بنتيجة عمليات الاحصاء وجود اختلاف كبير بين العدد الذي أسفرت عنه تلك العمليات، والعدد الذي توصلت اليه «لجنة تقسيم آسيا الوسطى» التي سبقت الاشارة اليها، على الرغم من أنهما يعودان الى الفترة نفسها. ولكن هذا الاختلاف يفسر بالرجوع الى الطريقة التي اتبعت في جمع المعلومات من جانب القائمين بعمليات إحصاء السكان من جهة، و «لجنة تقسيم آسيا الوسطى» من جهة أخرى.

فقد كانت فِرَق التحقيق التابعة لعمليات الاحصاء تجمع معلوماتها بالاستفسار الفردي المباشر من سكان المنطقة. بينما اتبعت لجنة التقسيم ـ وخاصة في القرى ـ طريقة أخرى، وهي جمع المعلومات من رؤساء القرى ومختاريها (ويسمون: آق سقال[١٠] او: الأمين)، وكذلك من ممثلين مختلفين عن كل قرية أو منطقة آهلة بالسكان، باستدعائهم الى مراكز معينة في كل وحدة ادارية.

وعلى الرغم من أن الطريقة الأولى ـ اي الاستفسار المباشر ـ تبدو أفضل وأدق، فان المعلومات التي توافرت لدى لجنة التقسيم كانت أقرب الى الحقيقة من تلك التي أسفرت عنها عمليات إحصاء السكان. وذلك لأن كثيراً من العرب في المنطقة ـ لأسباب وظروف قديمة ـ كانوا يفضلون إخفاء قوميتهم، ويتظاهرون باحدى القوميتين الأزبكية أو التاجيكية. وهذه الأسباب هي أن عرب آسيا الوسطى في

---

(١٠) «آق سقال»: تسمية باللغة التركية معناها الحرفي «ذو اللحية البيضاء» ويلقب بها ـ في آسيا الوسطى ـ شيوخ القرى ورؤساؤهم.

العهد القيصري كأقلية قومية مستضعفة كانوا يعانون اضطهاداً مزدوجاً من الحكومة القيصرية، ومن أمراء (خانات) بخاري. ففضلاً عن نظام الضرائب الذي كان يطبق على سكان بخاري جميعا، ويثقل كواهلهم، كانت هنالك ضرائب إضافية تفرض على العرب وحدهم، فترهقهم وتستنزف معظم مايدخلهم أو كلّه في بعض الاحيان. وكانت تلك الضرائب على نوعين: ضريبة نقدية مباشرة تسمى «عرب ـ پولي» ـ أي: نقود العرب ـ وضريبة الرؤوس التي كانت تحتم على العرب أن يقدموا الى الأمير عدداً من الرجال حسب نسبة معينة من عددهم، فيمتلك رقابهم، ويكونون تحت تصرفه، ويجندون في جيشه. وقد حمل ذلك كثيراً من العرب على إخفاء قوميتهم وتغيير لغتهم، والتظاهر باحدى القوميات المحيطة بهم، وهجر القرى التي أنشأوها الى اماكن اخرى، مكيفين طراز معيشتهم حسب بيئتهم الجديدة، متبنين لغتها. وقد أدى ذلك الى عملية من الانصهار التدريجي، وضياع المعالم القومية لمعظم أولئك العرب. ويرى «فينيكوف» أن حوالي ٩٥ بالمائة من عرب آسيا الوسطى انقرضوا بهذه الطريقة قبل ثورة اكتوبر[١١].

ولذلك لم تكن طريقة الاستفسار الفردي المباشر ـ على الرغم من أفضليتها من حيث المبدأ ـ ناجحة في التوصل الى معرفة العدد الحقيقي للعرب القاطنين في تلك المناطق، لأن الكثيرين منهم كانوا ومازالوا متأثرين بالمخاوف القديمة، كما انهم ألِفوا اللغات الجديدة التي اتخذوها او اتخذها آباؤهم. وقد أيد ذلك الاستاذ «فينيكوف» قائلا:

«وانني شخصيا شهدت هذه الحقائق خلال عملي بين عرب تلك المنطقة في سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨. ومن الطبيعي جداً أن المعلومات المأخوذة من السلطات المحلية عن هذه الناحية هي أكثر موضوعية من التي تستقى من السكان مباشرة»[١٢].

وعلى هذا الأساس، قدّر «فينيكوف» أن العدد الحقيقي للعرب في آسيا الوسطى خلال العشرينات ـ لم يكن ليقل عن (٥٠,٠٠٠)، بينما كانت نتيجة الاحصاء الرسمي لسنة ١٩٢٦ هي (٣,٩٧٢) نسمة فقط.

أما إحصاء سنة ١٩٣٩ فقد سجل (٢١,٧٩٣) عربياً. وانخفض هذا العدد في احصاء سنة ١٩٥٩ الى (٨,٠٠٠) نسمة. وبذلك تكون نسبة الانخفاض قد بلغت ٦٣ بالمائة خلال عشرين سنة.

---

(١١) فينيكوف، «العرب في الاتحاد السوفيتي»، مجلة (الاثنوغرافيا السوفيتية)، سنة ١٩٤٠، العدد ٤، ص ١٩.
(١٢) المرجع السابق، ص٦

وقدّر المستشرق الفرنسي «بنيگسن» ـ وهو من أكبر الخبراء في شؤون آسيا الوسطى ـ أن نسبة الذين كانوا يستعملون العربية لغة للتخاطب فيما بينهم في سنة ١٩٥٩ كانت (٣٥) بالمائة منهم، أي في حدود (٣,٨٥٠) شخصا. بينما ذكر «تسيريتيلي» في بحث ألقاه في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٦ «أنه يعيش في الوقت الحاضر في مقاطعتي بخاري وقشقادريا في آسيا الوسطى أكثر من خمسة آلاف عربي يتكلمون العربية»[١٣].

وقد أظهرت الدراسات والتحقيقات المختلفة أن العرب الذين احتفظوا بلغتهم العربية في آسيا الوسطى ينتمون الى إحدى قبيلتين: **بني سنان، وبني شيبان**.

أما البلاد التي هاجرت منها تلك القبائل الى آسيا الوسطى فان المعلومات التي استُقيت عن طريق الاستفسار من سكان المنطقة والتحقيق معهم تحمل على الظن بأن تلك القبائل انتقلت الى بخاري من افغانستان.

ويستنتج الأستاذ «فينيكوف» من جداول الأنساب التي أكملها في المنطقة نفسها أن هجرة أفراد قبيلة «شيبان» من شمال افغانستان بدأت قبل حوالي مائتي سنة. وان انتقال إحدى قبائل «بني سنان» بدأ ـ فيما يظهر ـ قبل ذلك الوقت[١٤].

كما أن الاساطير التي يتناقلها أبناء المنطقة، والقصص التي يرويها المعمرون منهم تكمل الصورة، ويمكن أن تتخذ أساساً معقولاً للافتراض بأن بدء توطن أفراد تلك القبائل وانتقالها من «بلخ» و «كيجوفان» يعود الى ثلاثمئة سنة تقريبا.

ولاشك ان معرفة الزمن الذي ترك فيه العرب مواطنهم الاصلية الى افغانستان لأشدّ صعوبة. ولكن المعلومات التي تمكن الباحثون من الحصول عليها تسمح ببعض الافتراضات أيضا:

فان جميع الاساطير والروايات التي يتناقلها السكان العرب ويرددونها ـ دونما استثناء ـ تربط خروج العرب من بلادهم بحملة تيمورلنك أو باسمه. واننا إن لم نأخذ بتلك الأساطير والروايات نفسها، فلنا أن نفترض على أي حال أن خروج أسلاف العرب من موطنهم السابق إن لم يرتبط بتيمورلنك فعلا، فانه لابد أن يكون قد تَمَّ بعد موته (في سنة ١٤٠٥ ميلادية) بمدة قصيرة، وبغير ذلك لايمكن تفسير هذه الأساطير وانتشارها بهذا الشكل الواسع.

ومع ذلك، فهنالك أدلة تشير الى وصول العرب الى تلك المناطق في أوقات سابقة

---

(١٣) نشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٦، العدد ٣١، الجزء ٤، ص ٥٥٩ ـ ٥٧٦.

(١٤) فينيكوف، المرجع سالف الذكر، ص ١٢.

لذلك، وان لم يكن من المعروف هل تبقّى أحد منهم فيها، ومامدى احتفاظهم بلغتهم، او انصارهم في القوميات المحيطة بهم هناك.

وقد أشار الدكتور صالح أحمد العلي في بحث له عن «امتداد العرب في صدر الاسلام» الى المناطق التي وصل اليها العرب في فتوحاتهم، حيث كانت لهم مراكز مهمة في خراسان مثل «هراة» و «نيسابور»، وأنهم لما أتموا فتح بلاد ماوراء النهر في زمن قتيبة أسكنوا في عدد من المدن اهمها سمرقند. وهو يرى أيضا أن بخاري ربما كان يسكنها عدد من العرب، مستدلاً على ذلك بأن بعض أبواب تلك المدينة تحمل أسماء عربية مثل «باب بني أسد» و «باب بني سعد»[١٥].

على أننا لانستطيع أن نجزم هل أن العرب الموجودين في تلك المناطق في الوقت الحاضر هم من بقايا اولئك العرب الاولين، أم أنهم رحلوا اليها في هجرات تالية. ويرى معظم الباحثين أنه لايمكن ارجاع وصول أولئك العرب الى وقت يسبق عهد تيمورلنك كثيراً، إذ لو صح ذلك لما بقيت تلك المجموعات محتفظة الى هذا الحد بلغتها وملامح ثقافتها وصفاتها القومية، وهي في بيئة غريبة، ومحاطة بقوميات أكبر منها عدداً وتختلف عنها في لغاتها وعاداتها. ويدعم هذا الرأي معدل الانخفاض في أعدادهم من إحصائية الى أخرى خلال نصف القرن الاخير.

وقد ظهر بنتيجة الدراسات المختلفة ايضا أن معظم المهاجرين العرب رحلوا أولاً الى واحة بخاري، وفي هذه المنطقة تسكن حتى الآن اغلبية عرب الاتحاد السوفيتي (يقدر عددهم في هذه المنطقة وحدها بثلاثة آلاف)[١٦].

وهنالك كثير من القرى التي يسكنها العرب في منطقة بخاري لاتزال محتفظة بأسمائها العربية، ويظهر من الجداول الحالية الخاصة بالمناطق الأهلة بالسكان من جمهورية ازبكستان أن هناك حوالي (٨٠) قرية تحمل أسماء عربية كالتي سبقت الاشارة اليها، وان (٣٥) منها تقريبا تقع في منطقة بخاري. ولاشك أن هذه الأسماء أيضا تلقي بعض الضوء على المواطن الاولى التي استقر فيها العرب.

وأظهرت التحقيقات التي قام بها الباحثون عن أحوال تلك المجموعات العربية ان كل قبيلة من قبائلها كانت لها ـ حتى في الماضي البعيد ـ مقبرتها الخاصة. فمقبرة «بني سنان» تقوم في قرية «جاخداري»، وعرب بني شيبان لهم مقبرتهم في قرية «كاسبي»، وهي تسمى «مزار مير حيدر». ولاشك أن مواقع المقابر تدل على الأماكن الأولى

---

(١٥) الدكتور صالح احمد العلي، «امتداد العرب في صدر الاسلام»، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزءان الاول والثاني، المجلد ٣٢، كانون الثاني ١٩٨١، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(١٦) تقرير لجنة تقسيم آسيا الوسطى، الجزء الاول، طقشند، سنة ١٩٢٦، ص ٢٤٨.

لتوطن القبائل العربية في هذه المناطق.

وقد احتفظت كل من قبيلتي «بني سنان» و «بني شيبان» باسمها القبلي، وورثت عصبيتها القبلية القديمة. كما احتفظ العرب بصورة عامة بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم، خاصة فيما يتعلق بالزواج. والزيجات مع أعضاء الجاليات الاخرى نادرة جدا[١٧]، فهم لايزوجون بناتهم لأبناء الازبك او التاجيك، ولكنهم قد يتزوجون بناتهم[١٨]. ولايزال الزواج ببنات العم يشكل نسبة مرتفعة في الزيجات بينهم.

اما اللغة العربية الدارجة بينهم في آسيا الوسطى، فيجدها معظم الباحثين اقرب الى اللهجات العراقية. وكان أول من استخلص ذلك العالم السويدي «غ. نيبرغ» في سنة ١٩٣٠ في بحث نشره في مجلة (*Le Monde Oriental*) إذ أشار الى وجود لهجة عربية حية في آسيا الوسطى، قريبة الى اللهجات العراقية، وفيها عناصر مقتبسة من الازبكية والتاجيكية[١٩]. كما خلص الى الاستنتاج نفسه «يوشمانوف» في مقالة نشرت سنة ١٩٣٥[٢٠]. ويقول تسيريتيلي: «لقد دلت البحوث على أن اللغة العربية المستعملة في آسيا الوسطى هي لهجة مستقلة كالمالطية، وتشغل مكاناً خاصاً بين اللهجات الأخرى، على الرغم من أنها تظهر لها في بعض نواحيها صلة باللهجة العراقية، وفي نواحيها الأخرى بلهجات البدو في اواسط شبه الجزيرة العربية»[٢١].

وقد ظهر بنتيجة الدراسات، فضلا عن ذلك، أنه توجد في آسيا الوسطى في الوقت الحاضر على الأقل لهجتان مستقلتان تختلف إحداهما عن الاخرى اختلافاً بيّناً بحيث لايفهم عرب بخاري وقاشقادريا بعضهم بعضا. ولايقتصر هذا الاختلاف على المفردات وحدها، وانما يتعداه الى المخارج الصوتية وتركيب الجمل ايضا، كما أن كثيراً من المفردات المشتركة في اللهجتين تستعمل لمعاني مختلفة.

وكان اكتشاف هذا الاختلاف في اللهجات وتحليلها قرينةً لاستنتاج بعض الحقائق الاضافية عن تلك المجموعات، منها أن هذه الفروق الواضحة كانت دليلاً على أن تلك المجموعات عاشت بمعزل عن بعضها مدة طويلة، كما أنها أيدت الآراء القائلة

---

(١٧) أ. ك. بيسارجيك وب. خ. كارميشيفا «تجربة لتحقيق شامل في مقاطعة قولياب» ـ اعمال اكاديمية العلوم التاجيكية، ستالين‌اباد، سنة ١٩٥٣، العدد ٣، ص ٩٦.

(١٨) المرجع نفسه.

(١٩) (*Le Monde Oriental*) المجلد ٢٤، الجزءان ١ ـ ٢، سنة ١٩٣٠

(٢٠) ن. ن. يوشمانوف، «لهجة عربية في الشرق السوفيتي»، مجلة (حضارة الشرق ولغته الكتابية)، المجلد العاشر، سنة ١٩٣٥.

(٢١) تسيريتيلي، المرجع سالف الذكر، ص ٥٧٤.

بأن هذه المجموعات العربية لم تنتقل الى المناطق التي تستوطنها دفعةً واحدة، وانما في عهود مختلفة.

ولاشك ان العرب في الاتحاد السوفيتي ينصهرون تدريجياً في القوميات الكبيرة المحيطة بهم - وخاصة الازبكية - وان استعمال اللغة العربية فيما بينهم يختفي بسرعة كبيرة لتحل محلها احدى اللغتين الازبكية أو التاجيكية - فضلا عن الروسية - على أن جميع العرب الذين يتكلمون اللغة العربية في الوقت الحاضر، يتكلمون الى جانبها إحدى تينك اللغتين، كما أن هناك كثيرين من الذين يعدون انفسهم عرباً ولايعرفون شيئا من لغة أجدادهم. والأطفال العرب يتعلمون اما في المدارس الازبكية أو التاجيكية لعدم وجود أية دراسة ابتدائية بلغتهم. فان دراسة اللغة العربية في الاتحاد السوفيتي - على الرغم من العناية المتزايدة التي توجه اليها - مقتصرة على الجامعات والمعاهد الاختصاصية لتخريج المستعربين والدبلوماسيين.

وقد درس المستشرقون السوفييت مايمكن القيام به من أجل تحقيق شيء من التنمية الثقافية للعرب في ازبكستان الاستفادة منهم لأي غرض، أو إنشاء مقاطعة خاصة بهم مثلا، فوجدوا أن ذلك يتعذر أو تقوم دونه صعوبات عملية كبيرة بسبب تشتت المجموعات العربية، وقلة عددها، واختلاف لهجاتها، فصرفوا النظر آسفين عن هذا المشروع، وماينطوي عليه من إمكانات الدعاية الواسعة.

ومع ذلك، فان العرب في الاتحاد السوفيتي لايزالون في عداد قومياته الكثيرة، ولايمكن أن يُعدّوا في حكم المنقرضين، ولكن ليس من المحتمل أن يبقى منهم أحد بعد جيل واحد إذا لم يبذل مجهود ما للحيلولة دون انقراضهم. ولعل الاتحاد السوفيتي الذي تربطه بالبلاد العربية علاقات ودية ووثيقة وسبق له أن شجع ازدهار الدراسات الاكاديمية عن العرب الذين استوطنوا أراضيه منذ قرون، سيعير هؤلاء العرب شيئاً من عنايته، ويبذل بعض الجهود العملية بما يتمشى وسياسته إزاء القوميات الكثيرة التي تعيش في بلاده والحفاظ على لغاتها وثقافاتها، لاسيما وان امكاناته للقيام بذلك في الوقت الحاضر هي أكثر توافراً، وعلاقاته بالأمة العربية اليوم أوثق من أي وقت مضى.



رحلة مكاريوس الأنطاكي

العربي الذي زار موسكو في القرن السابع عشر

ان المسافة التي تقطعها الطائرات النفاثة اليوم من بغداد او دمشق او القاهرة الى موسكو في خمس ساعات او نحوها ، ربما تعدّ سفرة طويلة ، وتبدو مملة أحيانـا . ولكن رجلاً عربياً عاش في القرن السابع عشر قام بهذه السفرة ، فرحل الى عاصمة «المسكوف» ، واستغرق وصوله اليها سنتين وسبعة اشهر واثني عشر يوماً بالضبط ، وامتدّت رحلته كلها سبع سنوات . ولم يوهن من عزيمته طول تلك السفرة وما عاناه فيها من مشاق عظيمة واهوال ، فكررها بعد سنوات قلائل ، فاستغرقت ، في هذه المرة ، مدة أقل من ذلك ، وامتدت ـ ذهاباً واياباً واقامة ـ أربع سنوات فقط .

هذا الرجل العربي هو مكاريوس الحلبي الانطاكي ، بطريرك الكنسية الانطاكية التي كان مقرها في دمشق .

وتعدّ رحلة مكاريوس الى روسيا من أغرب الرحلات في تاريخ الرحلات العربية في ذلك العصر ، وأحفلها بالمشاق ، وأبعدها اثرا . ولا تـدانيها في غـرابتها بـين الرحلات المشهورة سوى رحلة أخرى قام بها ، في القرن السابع عشر ايضا ، رجل عراقي الى امريكا الجنوبية ، وهو «الياس الموصلي» الذي رحل من بغداد في عام ١٦٦٨ قاصداً امريكا ، ولكن الياس الموصلي لم يلق في رحلته بعض ما لقيه البطريرك مكاريوس من مشاق وأهوال ، باستثناء عاصفة بحرية واجهت سفينته اثناء عودته ، وكادت تغرقها .

وكذلك لم يكن «البطريرك مكاريوس» أول عربي يزور بـلاد الروس في ذلـك العهد . ففي أيام القيصر يوانوفيج سافر الى روسيـا بطريـرك الكنيسة الانـطاكية «يواكيم ضوّ» ، وهو عربي ايضا ، لبحث أمور تهم البطريركية ، فوصل موسكو في سنة ١٥٨٦ ، وأقام فيها شهرين[١] .

(١) كراتشكوفسكي، **تاريخ الادب الجغرافي العربي** (ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم)، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٧٠٨ .

على أن ما أكسب رحلة مكاريوس شهرتها وأهميتها ، هو انه استصحب معه ابنه «الشماس بولص الحلبي» الذي دوّن تاريخ هذه الرحلة الطويلة وأحداثها ، وما شاهده مع والده خلالها يوماً بعد يوم . ولولا ذلك لما عرفنا شيئا عن هذه الرحلة ، ولا عن اخبارها . وقد أصبحت هذه اليوميات مصدراً مهماً جداً عن تاريخ دولة روسية في العهد الذي يسميه المؤرخون «العهد الموسكوفي» ، كما أنها تكاد تكون المرجع الوحيد في تاريخ انشقاق الكنيسة الاورثودوكسية ـ الروسية عن الكنيسة الشرقية . وتعدّ هذه اليوميات ، كذلك ، من أهم المصادر عن تاريخ «رومانيا» ، وقد مرّ بها مكاريوس ، وأقام فيها شهوراً عديدة . ولذلك حظت الرحلة باهتمام كبير من المستشرقين والمؤرخين الرومانيين ايضا . ويقول العلامة «يتزميرسكي» : «من العسير أن نلتقي ببحث جاد في تاريخ رومانيا لا توجد فيه إشارة الى رحلة الشماس بولص»[٢] .

ان يوميات الشماس بولص وثيقة لا توجد منها سوى نسخ معدودة ماتزال مخطوطة ، إحداها محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني بلندن ، ولعلها أكمل النسخ الموجودة ، وأخرى في مكتبة معهد الدراسات الشرقية في موسكو ، وهي تعود الى عام ١٧٠٠ ، وبينها وبين النسخة الموجودة في لندن اختلافات بسيطة . وهنالك نسخة ثالثة وصلت الى المكتبة الوطنية بباريس ، وهي غير مؤرخة ، ومكتوبة بخطين مختلفين . ويعتقد البعض ان احدها هو خط بولص نفسه . فاذا صحّ ذلك لأمكن الجزم بانها تعود الى القرن السابع عشر ايضا[٣] .

ومن الغريب أن «رحلة مكاريوس» لمّا تنشر باللغة العربية كاملة حتى الان ، وكل ما نشر منها هو نخبة منها عُني بنشرها الخوري «قسطنطين الباشا» في سنة **١٩١٢**[٤] في حين ان هناك ترجمة انكليزية[٥] وأخرى روسية ، كما أنها تُرجمت الى اللغة الرومانية عدة مرات أولاها في عام **١٩٠٣** . ونشرت سيدة انكليزية ، هي «الليدي لورا ريدينغ» فصولاً مختارةً منها باللغة الانكليزية مترجمة عن الأصل العربي[٦] . وقيل إن

---

(٢) A. I. Iatsimirski ص ٥٨٧ (نقلا عن كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٧٢١) .

(٣) حبيب الزيات، مجلة (المشرق)، المجلد ٣٠، بيروت، ١٩٣٢، ص ٥٦١ .

(٤) نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبي بقلم ولده الشماس بولص عُني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا، حريصا ،(لبنان) ١٩١٢ .

(٥) بقلم بلفور: F. C. Belfour ظهرت بين سنتي ١٨٢٩ ـ ١٨٣٦ في جزئين .

(٦) Lady Laura Ridding (Ed), *The Travels of Macarius*, (Oxford University press), London, 1936 .

المستشرق السوفيتي (الجورجي) غ . ف . تسيريتيلي أعدّ الأصل العربي للطبع .
اما الترجمة الروسية (وهي اكمل من أختها الانكليزية) فقد اضطلع بها جرجي مرقص (١٨٤٦ - ١٩١١) ، وهو عربي من دمشق كان استاذا للغة العربية في «معهد لازاريف للغات الشرقية» بموسكو . وقد اعتمدت هذه الترجمة نسخة جديدة من الكتاب ترجع الى منتصف القرن التاسع عشر ، وهي في خمسة اجزاء .

* * *

من هذا البطريرك السوري ؟ وما الذي حمله على شد الرحال الى تلك البلاد النائية في ذلك العهد السحيق ، يوم كانت الأسفار ماتزال محفوفة بالأهوال والمخاطر ؟ وكيف سافر اليها ؟ وأي طريق سلك ؟

عُرف «البطريرك مكاريوس» في الوسط العربي باسم «مكاريوس بن الزعيم الحلبي الأنطاكي»(٧) ، وأصله من شمال سورية . وقد نشأ في وسط ديني فقير ، وانتخب في عام ١٦٣٥ مطراناً لحلب . وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٦٤٧ انتخب لمنصب بطريرك الكنيسة الانطاكية في دمشق . وكان مكاريوس منذ صباه يميل الى المؤلفات التاريخية ، خاصة ما لم يكن معروفا في اللغة العربية منها . كما كان يهتم بتنوير أبناء طائفته وتثقيفهم . ولذلك اهتم بنقل فصول او مقتطفات من اللغة الاغريقية الى اللغة العربية ، اما بنفسه او بمساعدة الآخرين ، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة .

وقُدّر لمكاريوس ان يتجول كثيرا ، خاصة في أسفار تتعلق بمهام مطرانيته وبطريركيته ، وفي عام ١٦٤٢ حج الى القدس ، كما جوّل كثيرا في نواح عديدة من سورية .

ولما انتخب لمنصب بطريرك الكنيسة الاورثوذوكسية وجدها مثقلة بالديون المتراكمة . فقد كان مسيحيو الشرق في القرن السابع عشر - بصورة عامة - على جانب كبير من الفقر ، كما كان الشعب السوري بأجمعه يرزح تحت عبء الضرائب العثمانية ، ولا يكاد يجد ما يكفي لمعاشه . ولذلك لم يكن في وسع أبناء الطائفة الاورثوذوكسية أن يقدموا لكنيستهم سوى تبرعات ضئيلة لا تسد نفقاتها . وكان الغرب المسيحي يمتنع عن مساعدة الكنيسة الشرقية بسبب انشقاقها عن الكنيسة الغربية . وعلى الرغم من وجود طوائف اورثوذوكسية في البلقان (اليونان ، بلغاريا ،

---

(٧) جرجي مرقص، مقدمة الترجمة الروسية، ص ٥ .


ماكاريوس برحمة الله تعالى البطريرك الانطاكي وسائر المشرق

ولاخيا ، مولدافيا) فان البطريرك لم يكن ليطوف عليها طالباً مساعدتها ، لأنها كانت فقيرة ايضا . ولذلك لم تكن هنالك جهة ، غير روسيا ، يستطيع أن يأمل الحصول على أية مساعدة منها . فهنالك أمة يسودها المذهب الاورثوذوكسي ، والمسيحيون لا يخضعون لحكومة من غير دينهم . وفضلا عن ذلك ، ففي تلك البلاد دولة كبيرة اضطربت الدول لرقيها وقوتها .

وهكذا عقد البطريرك مكاريوس العزم على زيارة موسكو ليسألها ما لم يستطع الحصول عليه في الشرق ، لاسيما وأن ولاة الامر فيها كانوا يعربون عن استعدادهم للترحيب به .

وكانت امارة موسكو في ذلك العهد قد نجحت في توحيد أراضي روسيا الكبرى ، بعد أن هزمت التتر في القرن الخامس عشر ، وأصبح في مقدورها أن تعد نفسها من الدولة الكبرى كالدولة البولونية ـ الليتوانية الموحدة ، والسويد ، وغيرها . وكان الروس من رجال دين وملوك ، يعدون أنفسهم بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية ، خلفاءَ أباطرتها ، ويتنبأون لدولتهم الجديدة بمستقبل عظيم . وقد أعلن الملك ايفان الرابع (المعروف بايفان الرهيب) نفسه قيصرا ، أي خلفا لأباطرة الرومان البيزنطيين ، بواسطة بطريرك القسطنطينية في سنة ١٥٦١ ، بعد مئة وثمانية عشر عاماً من دخول «محمد الفاتح» الى «روما الثانية» ـ أي القسطنطينية ـ وسقوط «باليولوغ» قتيلاً في ساحة الحرب .

وكان للدين المسيحي في ذلك العهد دور عظيم في السياسة ، مما حمل الروس على أن يطمحوا الى اقامة بطريرك وطني مستقل الى جانب بطاركة القسطنطينية والاسكندرية والقدس ، ليكون للقيصر بطريرك كما كان للقيصر البيزنطي . ولكن البطاركة الشرقيين لم يعترفوا به الاّ بطريركاً من الدرجة الثانية ، تلي سلطته سلطاتِ كراسي بطاركة الشرق التي أكسبها مرور ثلاثة عشر قرناً عليها السلطة الدينية العليا والأولوية ، فبقيت روسية بذلك محتاجة الى بطاركة القسطنطينية لتثبيت قراراتها الدينية تثبيتاً شرعيا قاطعا . وكان هؤلاء البطاركة يؤمّون موسكو بطلب المال ، والقياصرة لا يمنحونهم اياه الاّ لقاء تأييد قوى لآرائهم ورغباتهم ، وهم لا يلبون مطالب القياصرة دفعة واحدة لئلا يقطعوا حبل المساومة .

وفي مثل هذه الظروف سافر بطريرك أنطاكية مكاريوس الى روسية في سنة ١٦٥٣ م ، وصحبه في سفره ابنه «بولص» الذي أخذ يدوّن أحداث الرحلة ومراحلها يوما بعد يوم ، ولم ينقطع عن ذلك الى لحظة رجوعه الى أرض الوطن .

ويزعم بولص في مقدمة يومياته أنه أخذ في تدوينها نزولاً عند إلحاح صديقه

الشماس جبرائيل قسطنطين ، على الرغم من إحساسه بصعوبة هذه المهمة . وننقل في أدناه ما جاء فيها لاعطاء القارىء ـ في الوقت نفسه ـ فكرة عن أسلوب بولص العربي ولغته ، ولنا اليهما عودة .

كتب «بولص» :

« . . . رغب اليَّ [يريد جبرائيل قسطنطين] أن أجمع تأريخاً يتضمن حال سيرنا وذهابنا يوم فيوم كافة مدة غيابنا وأوصف محرراً جملة أمور البلاد التي نجوزها ليتحقق عند الكافة ما يسمع عنها من اشارات الأحاديث ورموزها ، فاعتذرت اليه أنني لست كفوا لهذه الصناعة سيما وأنا معوزاً (كذا) مما يناسبها من البضاعة أعني من ترتيب تنميق الأقوال واعراب الكلام ومن حسن تركيب الألفاظ كأهل هذا الفن السادة الكرام ، وسألته أن يعفيني مما لا يستطاع سيما اذ نحن سايرين (كذا) بكدّ واسراع ، فلم يقبل مني هذا الاعتذار وألحّ عليَّ بالمطلوب وواظب التكرار فانتهزت حينئذ همتي الثائرة ومددت للمقصود يدي القاصرة لا لكي أنتظم في جريدة المؤرخين ، ولكنني ابتغيت اثبات أمور كثيرة كانت تنكر على الناقلين ، ولم يكن أحد ليصدقها ويظن أن كاتبها لغواً ينمقها، الى أن تحققت ما بالنظر شاهدته وسماعاً صحيحاً سمعته وثبتت عندي صحته ليس البعض منه لكن الجميع بجملته أي ما لا حظته رؤية العين حتى ذهبنا الى بلاد المسيحيين واتضح لنا ساير ما سنذكره أعني كلما ثبت عندنا في مساحة الطريق واقامتنا هناك الى أن عدنا الى بلادنا»[8] .

ثم كتب «بولص» مفتتحا يومياته ببيان أسباب الرحلة قائلا :

«قادتة [يريد والده مكاريوس] يد المقدرة الى طواف أقاصي البلاد والقرى والجزائر ، لا متفرجا متنزها، لا ولا زائرا ، بل مضطرا من شدة ضيق الوقت واعساره، مبعوثا لذلك رغما لا باختياره. وذلك لما كثرت الديون التي كانت على الكرسي المذكور [أي كرسي البطريركية] المتخلفة منذ حياة المرحوم البطريرك افتيموس السافري المشهور، وقد رَبَت برباء الفوائد الكثيرة حتى ما عاد يقوى أبناء نوريته[9] على وفائها اذ صارت غزيرة، فتضجر لذلك وقلق من هذا الضرّ وتلهف للنجاة من هذا الأسر المرّ ، فلم يجد له عند

---

(٨) عن مخطوطة لندن المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني .

(٩) النورية : اللفظ المستعمل انذاك بين المسيحيين للدلالة على التبرعات التي تدفع للكنيسة (كراتشكوفسكي، المرجع سالف الذكر، ص ٧٠٧) .

ذلك وسيلة ولا نجدة من أحد ولا حيلة ، حتى شمّر عن ساعد الكد ، وركب جواد الجهد والجد ، وقصد التوجه والمسير نحو المنهج الخطير العسير ، قاطعا السبل الصعبة ، قاصدا المناهل العذبة ، بل البحار العظام الزاخرة ، أعني بهم أولي الفضائل السنية والحلال الفاخرة ، غياث الطالبين وكفو الراغبين ، وهم الملوك المؤيدين المنصورين (كذا) والأمراء والباكوات المبرورين (كذا) الذين بالديانة المحقة والأمانة الصادقة مشهورين (كذا) أدام الله دولتهم وخلّد سلطتهم . . . »[10]

* * *

خرج مكاريوس مع قافلته من حلب في ٨ تموز (يوليو) سنة ١٦٥٢ م ، فاجتاز الأناضول ماراً بأنطاكية واسكندرونة وادنة وقونية وبروسة . ومن بروسة أرسل مكاريوس رسالة الى بطريرك القسطنطينية يستأذنه فيها زيارة تلك المدينة ، جرياً على عادة قديمة تقضي بذلك ، فرحب به البطريرك ، وأرسل اليه من يستقبله . ولما كانت القافلة على وشك وصول القسطنطينية تقدم الى مكاريوس نفر من التجار القادمين من موسكو واخبروه أن القيصر ، وبطريرك موسكو المعين حديثا «نيكون» ، سمعا باعتزامه السفر الى موسكو ، وأنهما ينتظران وصوله بفارغ الصبر .

ووصل مكاريوس وصحبه القسطنطينية في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) بعد مغادرته حلب بثلاثة اشهر . ويصف بولص في يومياته ما شاهدوه عن معالم القسطنطينية ، وزيارات والده ، ومقابلاته مع رجال الكنيسة فيها .

واضطر مكاريوس الى البقاء في القسطنطينية نيفا وشهرين لأن الجو كان عاصفاً والبحر هائجاً . فلما تحسن الجوّ استقل وصحبه سفينة اكتراها وغادروا القسطنطينية بحراً قاصدين مصب الدانوب ، وفي الطريق صادفتهم عاصفة شديدة ، فقرروا أن يتخلوا عن أية محاولة للسفر بحراً وقطع المسافة المتبقية ، وهي ستمئة ميل ، برا . وفي ١٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٥٣ م وصلوا ميناء قسطانزا ، فنزلوا فيه .

ومن قسطانزا سافروا على عربات خفيفة ، يرافقهم دليل رسمي ، فوصلوا مدينة «فاشلوى» عاصمة مولدافيا (البغدان) القديمة . وفي يوم ٢٥ منه دخلوا مدينة «جاسي» عاصمتها في ذلك الوقت[11] ، فقابل مكاريوس وولده حاكمها (بيك

---

(١٠) نقلا عن مخطوطة لندن ايضا .

(١١) «مولدافيا» و «لاخيا» (أو: البغدان والافلاخ) امارتان على نهر الدانوب اتحدتا في سنة ١٨٥٧م في دولة واحدة اتخذت لها اسم «رومانيا» ومنهما تتألف معظم جمهورية رومانيا اليوم .

مولدافيا) «فاسيلي» ، فاستقبلهما باحترام كبير ، وقبل كلتا يدي البطريرك ، وقدم اليه البطريرك هدايا ثمينة ، كانت إحداها أثراً تاريخياً «ذا قيمة عظيمة» ، وهو الفك الأسفل للقديس بازيل الكبير ، وكان قد وقع بيد مكاريوس في القسطنطينية فاشتراه بثمن باهض . وقابله (البك) بهدايا ثمينة ، ووعده بسداد جميع ديونه .

واضطر البطريرك مكاريوس وجماعته ، مرة اخرى ، الى التخلف في مولدافيا بسبب التغير الذي حدث بين الحكام ، والحرب الأهلية التي أصبحت تلك البلاد مسرحاً لها ، وأدت أخيرا الى الاطاحة بحاكمها «فاسيلي» وفراره . ولم يتمكن مكاريوس من مغادرة «جاسي» الا في ١٣ تشرين الاول ١٦٥٣ ، فعبر حدود مولدافيا الى «ولاخيا» (الفلاّخ) بعد عشرة أيام .

وكانت القافلة تزور في طريقها الكنائس والأديرة ، وتجمع الصدقات لوفاء دين البطريركية . وفي العاشر من حزيران عام ١٦٥٤ عبرت القافلة نهر «الدنيستر» عند بلدة «راشكوف» ودخلت أرض الصقالبة ، حيث خرج الناس لاستقبال البطريرك وصحبه ، وانطلقوا الى كياف (كييف) فدخلوها في ٢٤ حزيران ، فاستضافهم أميرها مدة اسبوعين . وفي ختامها غادروها الى «بونتفيل» ، وكانت يومئذ الموقع الوحيد المسموح للقادمين من الشرق بالعبور منه الى داخل حدود دولة «المسكوف» وهناك ايضاً استقبلت الجماهير البطريرك مكاريوس وجماعته بحفاوة واحترام . وفي ذلك الوقت كانت قد مضت على مغادرتهم حلب سنتان كاملتان .

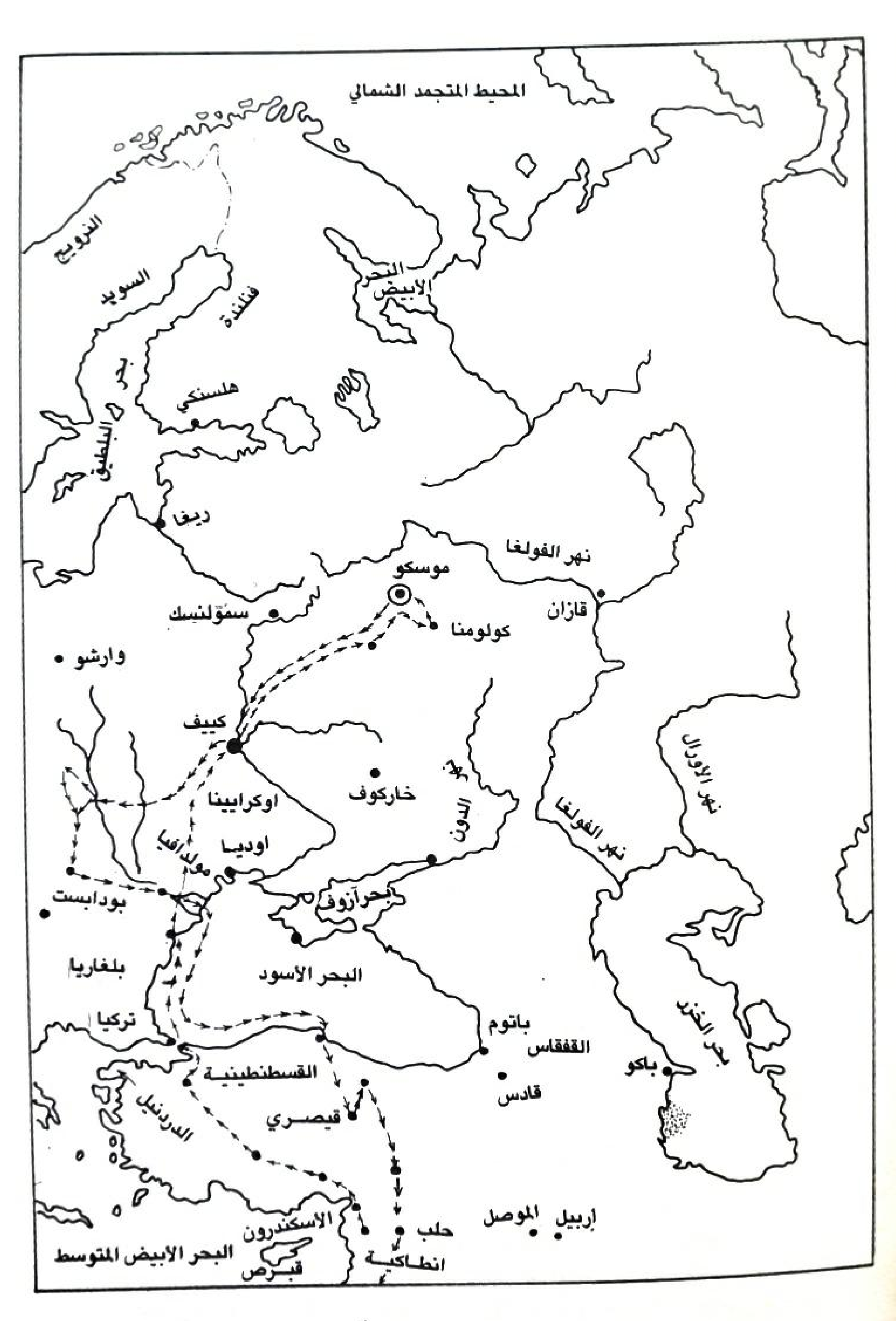
وكان حكام المدن والقرى التي يمر بها موكب مكاريوس يستقبلونه ويحتفون به تنفيذاً للأوامر التي أصدرها القيصر «الكسي ميخائيلوفيج رومانوف» . ويظهر ان الموكب كان مهيباً جليلاً غريب المنظر ، تحيط به هالة دينية كان لها في نفوس عامة الشعب وقع كبير . ويقول بولص :

«فكانوا في جهلهم لنا ، ودهشتهم من منظرنا ، يسألوننا هل عندنا نساء في بلادنا ، وهل نأكل خبزاً ؟ فكنا نسخر منهم ، ونجيبهم : كلا» .

ولما اقتربت القافلة من موسكو ، استقبلها شيخ وقور أوفده بطريرك موسكو ، ومعه أحد مرافقي الامبراطور ، فأخبرا القافلة أن الطاعون سرى في العاصمة ، وأنه يفتك بأهلها ، وأن القيصر غائب عنها ، ولذلك فقد عُهد اليهما أن يقودا القافلة الى مدينة «كولومنا»[١٢] لتنزل في قلعتها ، وتنتظر فيها تقلص ظل الوباء المنتشر ، بمأمن من خطره . وكانت السلطات قد أعدت لمكاريوس ومرافقيه وسائل النقل النهري ،

---

(١٢) كولومنا : مدينة صغيرة تبعد عن موسكو بمسافة مئة كيلومتر ، وتقع في ملتقى نهري «موسكفا» و «آركا» .



رحلة مكاريوس الأنطاكي

فتوجهت القافلة على نهر «اوكا» حتى وصلت ، في السابع عشر من آب ، الى كولومنا ، فاستقبلها حاكم المدينة والنبلاء والاكليروس والشعب .

ودخل مكاريوس وصحبه الى قلعة كولومنا ، وهي ، على وصف بولص ، «تشاهد من مسافة بعيدة لارتفاعها ، ولها أسوار عالية . ومساحة المدينة (اي كولومنا) تعادل تقريباً مساحة حمص ، غير أن أسوارها أوسع وأقوى ، وهي مبنية بحجارة وآجرّ جميل شديد الاحمرار»[١٣]

وأنزل الضيوف في القصر الأسقفي ألذي يصفه بولص قائلا :

«. . وهو كبير جدا ، ومحاط بسور خشبي . وكان الأسقف اذا أراد الصعود الى مقاصيره استخدم سلما عالياً ينتهي بشرفة عريضة من صفائح الخشب تعلو كثيرا عن الأرض . ولما صعدنا اليها تمكنّا من رؤ ية الحقول والقرى في دائرة بعيدة المدى .

وكان الطاعون يزداد انتشارا ، فاضطر حاكم «كولومنا» أن يطوّقها بحرس يمنع الغرباء من دخولها ، ولكن هذا النطاق الصحي لم يُجْدِ نفعا ، فقد اتصل الوباء بها ، وفتك بسكانها وحيواناتها . ويقول بولص :

«فلم تكن العدوى تصيب بيتاً حتى تقضي عليه ، ولا تترك فيه حيّا . وقد أخبرنا الحاكم ان عدد ما أُحصي من الموتى بلغ عشرة آلاف عائلة . ولما كان أكثر الشبان يرافقون القيصر في الحرب ، فقد خُتمت البيوت حماية لها من النهب وخشية انتقام أصحابها بعد عودتهم . وبقيت هذه الحالة حتى عيد الميلاد ، وكان الطاعون قد بلغ اشده ، فشاء الله أن يقف سريانه» .

ووصف بولص حالة الذعر التي كانوا فيها فقال :

«وكان حزناً شديداً ، وذعرنا لا يوصف . فأقمنا في قمة القصر الأسقفي شهود عيان لهذه البلايا . وكنا نرى كل يوم خدام الأسقفية الذين في الغرف السفلى يحملون الموتى اثنين اثنين ، لا بعد مرض سابق أو حمى شديدة ، وانما كانوا يسقطون فجأة منقطعي الأنفاس ، وينتفخون حالاً بصورة فظيعة . ولم نكن لنجازف بأنفسنا فنخرج من مقاصيرنا ، ولكننا بقينا مسجونين ليلاً ونهاراً منتظرين في كل ساعة موتاً مرعباً ، باكين ونادبين حظنا» .

ويظهر أنّ الشماس بولص ، الذي وصف رحلة والده ، كان يقضي وقته في نسخ الانجيل ، وبعض الكتب الدينية والتاريخية الاخرى . ففي سنة ١٩٤٣ اكتشفت

---

(١٣) هذه النصوص مترجمة عن الانكليزية وليست مقتبسة عن الاصل الذي كتبه بولص - مع الاسف - لتعذر الرجوع الى احدى المخطوطات دائما خلال اكمال هذا الفصل في بغداد، اما النصوص المنقولة عن الاصل العربي فقد اشير في هوامشها الى ذلك .

سيدة افرنسية من هواة الكتب القديمة مخطوطة لدى تاجر بيروتي ، تحتوي على نص الأناجيل الأربعة بخط عربي جميل ، فعرضتها على المستشرق والعالم الآثاري الفرنسي «جان رونسان» . وكانت دهشته عظيمة حين وجد في أحد الذيول التي ذُيلت بها الأناجيل أن المخطوطة نُسخت في الأراضي الروسية ، وفي مدينة «كولومنا» الصغيرة . وظهر أن الشماس بولص الذي أكرهَه الطاعون على الانزواء في الطابق العلوي من القصر الاسقفي في كولومنا ، كان يقضي أيام بطالته التي أرغم عليها في نسخ هذه المخطوطة [14] وهو ينتظر انفراج خطر الطاعون الذي كان مستفحلاً .

وهذه المخطوطة مزينة برسوم رهبان روس ، ومكتوبة بخط عربي جميل واضح ، على دقة أحرفه ، استُعمل في كتابتها حبر من ألوان مختلفة . وقد خُطت النقاط التي تفصل بين الآيات وأرقامها وعناوينها وأطر الصفحات تارةً بحبر ذهبي ، وتارةً بحبر أحمر أو أزرق[15] . وتدل سرعة إتمامه لهذا العمل المتقن على أنه لم تكن له أية مشغلة أخرى ، كما تدل ذيول الاناجيل على انه كتب انجيل القديس مرقص في ثمانية أيام ، وانجيل القديس لوقا في أربعة عشر يوما ، وانجيل القديس يوحنا في اثني عشر يوما . وجاء في العبارة التي ذُيلت بها المخطوطة ، فكانت مفتاح اكتشافها ، ما يأتي :

> **«وكان النجازة من كمال هذا الانجيل الشريف الطاهر ، والمصباح المنير الزاهر ، والدرة اليتيمة الذي لا يعادله قيمة ، بعون الله وحمده وتوفيقه ورشده ، نهار الخميس رابع شهر كانون الثاني افتتاح سنة الف وستمائة وخمس وخمسون للتجسد الالهي بقلاية احد اساقفة المصكوف بقلعة كالومنا الحجرية قريبة لمدينة صطوليتا [اي العاصمة باللغة الروسية] التي هي المصكوف وتحت الملك الحسن العبادة العظيم الشان كنازي [يعني امير بالروسية] الكسيوس ابن ميخائيل وهو يومئذ على حرب اللاه [البولونيين] الملاعين اعداء الدين لما فعلوه مع القزق من الغدر والقتل والاستياء فانتصر هو منهم وفتح بلاد أبيه وأجداده المسما**

---

(١٤) كتب «جان رونسان» دراسة قيمة عن هذه المخطوطة، تضمنت معلومات طريفة عن رحلة مكاريوس، وقد نشرت مجلة (المكشوف) البيروتية ترجمة لهذه الدراسة في عددها ٣٥٨ (السنة العاشرة) الصادر بتاريخ ٣٠ اذار ١٩٤٤، ص ١٢ ـ ١٥ .

(١٥) بقيت هذه المخطوطة في سورية، ولاشك ان احد الذين امتلكوها فيما بعد جلدها بالجلدة الفخمة التي تحملها. وكانت الاسر التي تمتلكها تستعملها في «رياضتها التقوية» وتدون على صفحاتها الاخيرة التي بقيت بيضاء حوادثها العائلية المهمة. فقد كتب «الياس اده»، شاعر الامير بشير، انه اشتراها في ٥ نيسان ١٧٨٨، وكتب في السنة التالية انه رزق في ١٣ نيسان الساعة الخامسة ليلا، ولدا اسماه «ناصيف». وقد اجتازت هذه المخطوطة ثلاثمئة سنة وهي بحالة جيدة .

هولا نتصكا [سمولسنك] بالسيف منهم أفناهم قتلاً ويسراً
وحدث يومئذ في المصكوف طاعون عظيم ما كانوا يعرفوه من
القديم أصلاً ، وذلك بيد العبد الأثيم والمرء الذميم الكثير
الخطايا والآثام راجي المغفرة من الله الذي قوّاني على كمالته في
هذه الأيام الفقير بولص بسم [كذا] ارشيدياكون أو شماس
ونجل الأب السيد البطريرك كير ماكاريوس مجمّل الكرسي
الأنطاكي الحلبي أدام الله رئاسته آمين لما كن صحبته في هذه البلاد
وقصدناها بعون الله تعالى وفاء الديون التي كانت على الكرسي
الأنطاكي يومئذ فأودعونا بهذه البلدة بسبب الطاعون ولغيبة
الملك . . . وكانت حالة يرثى لها نجانا الله منها وعيّدنا بها الميلاد
والغطاس والنهار يومئذ سبع ساعات والليل سبعة عشر ساعة
وبتعب عظيم حتى أخرجته للوجود وأنا لا أظن أن له مثيل كتبته
لنفسي وهو نادر عجيب . . . وكملته في أيام ثلج وبرد وجليد
وزمهرير وظلمات بلاد المصكوف المشهورة في العالم كيف لا
والنهور والبحور جمدت وظبطتُ [كذا] هوامشه ظبطا كليا حتى
ولا حرف خارج عن السطر وهذا أمر عسير» .

* * *

بقيت حالة الطاعون على أشدها حتى عيد الميلاد، كما ذكر بولص في هامشه، فلما خفّت قليلا بسبب حلول الشتاء ، وتوقف سريانها أو كاد ، تمكن مكاريوس وجماعته من مغادرة كولومنا في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٦٥٥ ، بعد أن أقاموا فيها خمسة أشهر مليئة بالرعب ، فوصلوا موسكو أخيرا في الثاني من شباط (فبراير) بعد سفرة استغرقت سنتين ونصفا .

وكان امبراطور روسية في ذلك الوقت القيصر آلكسي ميخائيلوفيج الثاني، من السلالة المالكة الجديدة، سلالة رومانوف التي كانت قد شرعت تنهض بروسية من كبوتها بعد خروجها منهوكة القوى من الفتن الداخلية، والمداخلات الأجنبية التي أرهقتها زهاء نصف قرن . وهذا الامبراطور هو والد «بطرس الأكبر» .

وعلى الرغم من أن الدولة الروسية الجديدة تمكنت من اخراج جيوش المملكة الكاثوليكية (بولونيا وليتوانيا المتحدتين) من عاصمتها، فانها كانت ما تزال تخشى خطر هذه الجارة القوية التي ضمت في نطاق حدودها مدن «سمولنسك»

و «نوفغورود» و «بولتافا» ، ما عدا اوكراينا التي أدخلها اتفاق «لوبلين» سنة ١٥٦٩ في الأراضي البولونية . وهذا الاتحاد وان يكن قد ضمن للقوزاق والقرويين حرية مزاولة مذهبهم الاورثودوكسي ، فانه لم يمنع البولونيين عن الاندفاع في سياسة ترمي الى كثلكتهم ، وجعلهم بولونيين . فحمل هذا الأمر القوزاق على الثورة واللجوء الى القيصر الروسي لانقاذ اوكراينا من البولونيين، على أن تصبح جزئاً من امبراطوريته، فرضي بعد تردد، وناجز البولونيين القتال، فأزاحهم من «بولوتسك» و «موهيليف» و «فيتبسك» ، وحاصر «سمولنسك» فصمدت له ثلاثة أسابيع ، ثم سقطت في يده .

وكان اليونان، وهم من الأرثوذكس، يرون في هذه الحرب حرباً مقدسة . وقال رامبو «ان الشرق كله ارتجس للانتصارات الروسية . ويقولون في موسكو ان اليونان يصلون للقيصر ، وانهم لن يطيعوا بعد اليوم الاّ امبراطوراً اورثودكسيا» . وهذا جميعا يفسر تحمّس الشماس بولس لانتصارات القيصر ، وحقده الشديد على البولونيين[١٦] .

ولما وصل مكاريوس الى موسكو كان الامبراطور غائباً عنها في حملته على بولونيا، فاضطرّ الى الانتظار في العاصمة مدة أخرى .

ويصف بولص انطباعاته الأولى عن موسكو قائلا :

«دخلنا مدينة موسكو مخترقين أبواب سورها الخارجي المبني من الطين، والخندق الكبير المحيط بها . ثم اخترقنا سورا ثانيا من الحجارة، ثم سورا ثالثا من الحجارة والآجر يوصل الى سور رابع يدعى القلعة (كرملين) لِمنعته، ويحيط به خندق شديد العمق، وعلى جانبيه جداران، وبداخلها جداران آخران . و «القلعة» هي قصر الامبراطور، ولها خمسة أبواب، وكانت قلوبنا تكاد تنفطر ونحن ندخل المدينة، وبكينا كثيرا إذ رأينا معظم البيوت خاليةً والشوارع مهجورةً بصورة مخيفة على أثر الطاعون . وكان مولانا البطريرك يبارك الناس يميناً وشمالاً . ولما وصلنا مقاصيرنا في دير حجري قرب الباب الملكي، دخل علينا المترجمون الذين عيّنهم الامبراطور . وكان الطعام يُحمل الى مولانا البطريرك يومياً من المطبخ الملكي ، وفيه الخبز والسمك و «الكافيار» مع كثير من المشروبات منها «البراندي» المصنوع من الكرز وأوعية كبيرة من «الميد»[١٧] ، كما كان يُرسَل للخدم برميل كبير من الجعة (البيرة) وهو شراب

---

(١٦) رونسان، المرجع سالف الذكر، ص ١٤ ـ ١٥ .

(١٧) «الميد» (Mead) شراب مخمر يعد من عسل وملت وخميرة .

كحولي فوّار له أثر مخدّر ويصنع من الشعير» .

واخذ المترجمون يدربون الضيوف على ما هو ضروري من تقاليد القصر ورسومه ، وآداب المقابلة الامبراطورية ، ووصف برلص ما عانوه في ذلك قائلا :

«وقد دخلنا في مرحلة من التعب بسبب طول الوقوف على اقدامنا ، نرعى جهدنا اليومي ، ونصقل حركاتنا وكلامنا ، مصطنعين منتهى الوقار ، ممارسين الانحناءات المزعجة . اما الضحك والمزاح فقد نسينا كل ما يمت اليهما بسبب .

وكانت اصوات اجراس الكنائس التي لم تنقطع ترهق اعصاب البطريرك العربي وولده :

«لم يؤثر في شئ بهذه الدرجة مثل قرع اجراس جميع الكنائس مجتمعة ، في اماسي الاحد والاعياد الكبرى ، وفي منتصف الليل قبل الاحتفالات . فقد كانت الأرض تهتز مع رنينها، وأصواتها تتصاعد الى عنان السماء كالرعود . وقد ارهقنا طول قداساتهم وصلواتهم ، وقلما اوينا الى مضاجعنا الّا ونحن على وشك السقوط من التعب .

«وتوجد في هذه المدينة اربعة الاف كنيسة ، ولكل كنيسة ثلاث قاعات او اربع ، اي ان الصلاة تؤدي يوميا في حوالي عشرة آلاف قاعة . وتعلق على باب كل كنيسة عشرة اجراس كبيرة وصغيرة ، وهي تقرع بالتناوب في الايام الاعتيادية ، اما في ايام الاحد والاعياد ، فانها تقرع كلها مرة واحدة ، من منتصف الليل حتى الصباح بلا انقطاع» .

وبعد ان قضى الزوّار عشرة ايام في موسكو ، عاد اليها بطريركها المشهور «نيكون» من منتجعه الذي اوى اليه في الغابات والحقول فراراً من الوباء . وبعد عشرة ايام اخرى استقبلت المدينة كلها الامبراطور الفاتح وهو يعود منتصراً من الحرب التي شنّها على بولونيا . وكان جيشه قد احتل ٩٤ مدينة وقلعة ، وساق امامه مئة الف اسير . واصبح سعر الجواري ديناراً واحداً او اقل لكل سبع او ثمان منهن (وكان الدينار يساوي نصف جنيه استرليني تقريباً) وقد شاهد مكاريوس وصحبه كثيرين من هؤلاء الاسرى ، فبعث منظرهم الحزن في نفوسهم . وسار وراء الامبراطور جيشه الذي قدّر عدده بميلون مقاتل ، بينهم حوالي اربعمئة الف من التتر الوثنيين ، وقد اجبرهم الامبراطور على اعتناق المسيحية ، وشاهدهم مكاريوس وولده وهم يعمدون بالمئات في مياه النهر .

واستقبل الامبراطور على اثر عودته البطريرك مكاريوس استقبالاً ودياً للغاية ، كما استقبله بطريرك موسكو «نيكون» ، وقالا له ان بطاركة الاسكندرية والقدس

والقسطنطينية قد زاروا موسكو مرارا ، على حين لم يزرها بطريرك من انطاكية منذ خمسة وتسعين عاما[١٨] .

واحتفى الامبراطور «الموسكوفي» بالبطريرك العربي حفاوة كبيرة ، فأقام له مأدبة عشاء كبيرة وصف بولص ما جرى خلالها ، وما قُدّم من طعام وشراب ، وما كان من طقوسها المختلفة ، مسجلاً اعجابه بشخصية الامبراطور ، وشجاعته ، وكرمه ، وتقواه .

اما عن ادارة حكومة الامبراطور ، وممتلكاته ، فقد جمع الشماس بولص بعض المعلومات المهمة :

«يحرس القصر ست مئة مسلح ، وتوجد بداخله سبعون محكمة مخصصة للنظر في قضايا طبقات مختلفة من الرعايا ، فهناك محكمة لرجال الجيش ، واخرى لرجال الدين ، وثالثة للحرس ، ورابعة تختص بالنظر في القضايا المتعلقة بواردات الدولة ، وخامسة للاجانب . . . وهكذا .

«وتضم المملكة سبعة اقاليم : روسيا الصغرى ، نوفغورود ، استراخان ، كازاو ، سيبيريا ، بسكوف ، ارخانكل . ويحكم كل اقليم منها «آتامان» ، او وزير ، ويتبع هؤلاء الوزراء الكبار الف وخمس مئة وزير صغير يمارس كل واحد منهم سلطته على قرى يتراوح عددها بين الف والفين .

«اما دخل الامبراطور فيقال انه يبلغ ٣٦ مليون قطعة ذهبية ، يساوي كل منها خمسين (كبيكاً) . وتأتي الواردات من الاتجار بالحنطة ، والشعير ، وتقطير المشروبات الكحولية . وجميع مصانع التقطير في البلاد هي ملك للامبراطور ، كما ان الرسوم الكمركية تدر عليه ثروة كبيرة .

«وكان انتشار الوباء ، والضحايا التي فتك بها ، مصدر ثراء كبير للامبراطور . فقد جاءته ثروات ضخمة من الاغنياء الذين ماتوا بسببه ، ولم يكن لهم وريث .

«وقد اصلح الامبراطور العملة ، وطوّر تجارة بلاده ، مما عزز سلطته واكسبه محبة شعبه . وله قانون عقوبات صارم ، لا رحمة فيه لمرتكبي جرائم الخيانة ، والقتل ، والكفر ، والاغتصاب . ومرتكبو هذه الجرائم يطاف بهم في ارجاء المدينة ، وهم يجلدون ، ويموت الكثيرون منهم تعذيباً . وقد شاهدنا بعضهم ورؤ وسهم تضرب

---

(١٨) الاشارة هنا الى زيارة البطريرك «يواكيم ضو»، ويلاحظ ان بولص لم تكن لديه فكرة واضحة عن تاريخها، فهو يذكر تارة انها حدثت «قبل خمسة وتسعين عاما في عهد القيصر ايفان»، وطورا انه قد «مر على ذلك اثنان وسبعون عاما»، ويروى كراتشكوفسكي ان هذا التاريخ الاخير اقرب الى الصحة (انظر: كراتشكوفسكي، المرجع سالف الذكر، ص ٧٠٨) .

بقضبان شائكة على صخرة كبيرة . وكانت جريمتهم انهم قتلوا اسيادهم . وشاهدنا رجلاً مشدود الوثاق في بيت أُقيم وسط ساحة ، أحرقوه حتى مات . وكان قد أشعل النار في بيت سيدة عمدا . . .

«ولن ينجو من العقاب قط من يذكر الامبراطور بسوء . فمن كفر بخالقه أو ذكره بعبارات فظيعة ، قد تُغتفر زلته ، اما من سبَّ الامبراطور فرأسه مقطوع حتماً .

«ويل لمن يرتكب جريمة ، غنيا كان ام فقيرا ، فلا وساطة تشفع له ، ولا رشوة تنقذه . . »

ولم يمض على عودة الامبراطور الى موسكو زمن قصير الاّ وعاد الى حربه على البولونيين تاركاً بطريرك موسكو «نيكون» نائباً عنه في إدارة شؤون الدولة . وقد جذب انتباه بولص ما كان يتصف به نيكون من صلف وغرور ، وما كان يعامل به وزراء الدولة وكبار رجال الدين من سيطرة واستعلاء ، وكان ذلك سبب سقوطه فيما بعد وانتهائه الى المصير الذي انتهى اليه .

وفي يوم الاحد الثاني من فترة «الصوم الكبير» اقيم قدّاس كبير للاحتفال بتوديع الامبراطور الذاهب الى ساحة الحرب . وقد نَثَرَ عليه الماء المقدس وباركه ، كلا البطريركين مكاريوس ، ونيكون . ولما انتهت المراسم ، استأذن مكاريوس من الامبراطور ان يعود الى بلاده ، وقد مضى على غيابه عنها أكثر من اربع سنوات . فأجابه الامبراطور : كلا ، بل ستبقى هنا لكي تصلي الى الله فيمُنَّ عليّ بالنصر ، واعود مسرورا ، واجزل لك العطاء . . » ، فقابل الزائر العربي هذا الرفض بالسكوت .

وبعد مراسم التوديع الاخيرة غادر الامبراطور (الكرملين) على زحافته الخاصة، يتبعه ٣٠٠ر٠٠٠ من جنوده، وبقي مكاريوس وصحبه في موسكو وصار يقضي اوقاته في زيارة الكنائس والأديرة المجاورة، كما سافر الى نوفغورود. ووصف بولص هذه الزيارات، كما وصف الطقوس الدينية الاورثودوكسية الروسية، متذمرا على الدوام من طولها واتعابها .

ووردت الانباء الى البطريرك نيكون عن الامبراطور انه استولى على عدة قلاع اخرى من البولونيين، والقى القبض على رئيسهم (بول بوتوتسكي) واسرته، كما أسر ٣٠٠ر٠٠٠ من جنوده. وقد قرر الامبراطور ان يملأ بهم البيوت والحقول التي خلت من سكانها بسبب الطاعون . .

وفي ٩ كانون الاول (ديسمبر) قرعت اجراس الكنائس مؤذنة بعودة الامبراطور ظافراً في صباح اليوم التالي، فلما وصل قرع الجرس الكبير الذي استغرق صنعه عشرة اشهر. ووصف بولص مقابلة البطريركين للامبراطور بعد عودته، كما وصف مقابلات بعض السفراء، بينهم سفير البابا، وسفير دولة البندقية .

وكان رغبة البطريرك مكاريوس وولده في العودة الى وطنهما شديدة، فاستطاعا بالحاحهما أن ينتزعا من الامبراطور موافقة على عودتهما، ولكنهما مع ذلك، وجدا نفسيهما محتجزين في موسكو لأن الامبراطور فيما يظهر، كان مصمماً على استبقاء مكاريوس في عاصمته الى مابعد عيد الفصح، وكان ينوي الالتحاق بجيشه مرة أخرى بعده، ويرغب الى البطريرك مكاريوس أن يباركه ويبارك جيوشه في بداية مسيرتها. وأخيراً نزل عند الحاحهما ،وفي الأسبوع الثالث من الصوم الكبير قابلهم ليستأذنوا منه بالسفر بصورة رسمية .

ووصف بولص مادار خلال المقابلة، والهدايا التي منحها الامبراطور لمكاريوس، وكان بينها ٥٠ فروة سمور، وثلاثة آلاف دينار، وقال إن الامبراطور بكى أثناء المقابلة، كما بكى مكاريوس، وقال الامبراطور: لماذا تريد أن تتركني ياأبت؟ ثم أقيمت صلاة طويلة بطلب من الامبراطور وأرسل الى مكاريوس من المطابخ الامبراطورية متاع الطريق، وهدايا أخرى، وبعدها حضر الوزراء فنقلوا عن الامبراطور عبارات منها قوله: حقا ان هذا الرجل مقدس، ونور القداسة يشع من محياه . . الخ وأجاب الامبراطور طلبات مكاريوس، وزوده الأموال اللازمة لبطريركية انطاكية ،كما أجاب طلبات أخرى كان توسط في ايصالها اليه نيابة عن بعض الاشخاص الذين تشفعوا لديه .

وفي يوم ٢٣ مارت (مارس) ١٦٥٦ غادر موكب مكاريوس بعد توديع البطريرك «نيكون». وأمام الكرملين نزل مكاريوس وصلى صلاة قصيرة للامبراطور وعموم سكان مملكته، وكان يرافقه حرس مسلحون ساروا معه حتى ظاهر المدينة.

ويقول بولص: «وكنا لشدة سرورنا لانكاد نصدق اننا مسافرون حقا» وكان من أعز مايتطلعون اليه هو دخول حمام ساخن، لانهم لم يستحموا طوال سنتين منذ مغادرتهم «ولاخيا» .وكانوا يأملون السفر متزحلقين على الجليد، ولكن الذوبان كان قد بدأ، فاضطروا الى بيع زحافاتهم وشراء عربات ذات عجلات. وفي الطريق بنوا، بمساعدة مرافقيهم في السفر، أكثر من عشرة جسور على النهر والأماكن التي كان فيها الوحل عميقاً، وكانت صعوبات الطريق ومشاقه عظيمة .

وقضى الركب عيد الفصح في مدينة تبعد ثمانين ميلاً عن موسكو، وبينما هم على

وشك استئناف السفر، وصل من موسكو رسول خاص يحمل رسالة من الامبراطور وكان يطلب فيها الى البطريرك ان يعود الى موسكو للاشتراك في المجمع الكنسي الذي سيعقد للبحث في أمور خطيرة تهم الكنيسة والدولة، جدّت بعد مغادرته: «وهذا يتطلب منك أن تعود الينا أيها الاب المبارك. لاتجلب معك شيئاً غيرأرديتك الكهنوتية وبضعة خدم. اما بقية أمتعتك فلك أن تودعها في القلعة التي تتسلم فيها هذه الرسالة». وكانت الرسالة مؤرخة في ٤ نيسان (ابريل) سنة ١٦٥٦.

ولم يسع مكاريوس الا أن يسارع بالعودة الى موسكو ثانية، متأثراً من وعورة الطريق وعمق الاوحال. وفي الطريق قابل الركب بعض التجار الاغريق وكانوا عائدين من موسكو، فأخبروه أن نزاعاً حاداً نشب بين الامبراطور والبطريرك «نيكون» بسبب سوء فعال الاخير وخشونته. وقد بدأ النزاع بخلاف حول امر يتعلق بالطقوس، فوبخه الامبراطور وسماه «مهرجا احمق»، فقال له البطريرك: «كيف تشتمني وأنا أبوك الروحي؟» فأجابه الامبراطور قائلا: «لست أنت أبي، بل بطريرك انطاكية المقدس هو أبي الحقيقي، وسأُرسل بطلبه».

وذكر بولص أن التجار الاغريق كانت تغمرهم الفرحة والامتنان لأن الامبراطور وعدهم أن يبذل منتهى جهده لانقاذ بلادهم من الأتراك، أعداء دينهم، قائلا: سيحاسبني الله إذا أنا اهملت قضيتكم وكان بمقدوري إنقاذ الاغريق من العبودية.

وفي ١٧ نيسان وصل المسافرون الى موسكو ثانية، فدعاهم الامبراطور الى حفلة كبيرة، ورحب بالبطريرك مكاريوس ترحيباً عظيماً واعتذر اليه عن المشقة التي سببها له. وقد علم مكاريوس وجماعته أن الامبراطور دخل في مفاوضات مع ملك بولونيا وحاكم مولدافيا في سبيل إحلال السلام، ثم حضروا الاحتفال بتنصيب بطريرك جديد لموسكو بمكان «نيكون». وكان الملك يستعد للسفر الى الحرب، وكان العدو في هذه المرة ملك السويد، وكان سفير السويد سيء الحظ متحجزا تحت حراسة شديدة، ومحل اقامته محاطا بألف ومئتي رجل مسلح.

وفي ١١ مايس عقد المجمع الكنسي (السنودس) اجتماعه الذي استُدعي مكاريوس لحضوره كما استُدعي اليه جميع مطارنة البلاد. وكان الموضوع الخطير الذي سيبحث هو تعميد البولونيين وغيرهم من المسيحيين الافرنج. فقد كان الأسرى البولونيون ينتمون الى الكنيسة الكاثوليكية، والآن أصبحوا من رعايا القيصر، ولابد من انتمائهم الى الكنيسة الاورثودوكسية، فهل يتطلب ذلك تعميدَهم مرة اخرى كاورثودوكس؟ تلك كانت القضية التي أراد القيصر استشارة مكاريوس والمجمع الكنسي فيها، واستدعاهم لاجلها. وقد أفتى مكاريوس بعدم ضرورة تعميدهم

ثانية". وفي «عيد الصعود» بدأت مراسم سفر الامبراطور التي يصف بولص تفاصيلها الدقيقة، وموكب الامبراطور وخيله، ومغادرته مع قواته التي لايُحصى عددها.

وبعد هذا الاجتماع، غادر مكاريوس موسكو في ٢٩ مايس مرة أخرى بعربة زودها الامبراطور، لأن عربة مكاريوس وجماعته كانت قد تحطمت في الطريق قبل بضعة أيام. وبدأت رحلة العودة من جديد، وروى بولص أن سكان المدن والقرى التي كانوا يمرون بها كانوا يخرجون لمشاهدتهم والترحيب بهم. وأضيف الى الركب عشرة مسلحين كانوا يساعدونه ويدفعون العربة في المواقع الصعبة من الطريق، حتى وصلوا القلعة التي تركوا فيها أمتعتهم، ثم واصلوا السير حتى وصلوا (بونتفيل) في ١٢ حزيران، وبعد أن قطعوا ٤٥٠ ميلا في أسبوعين.

ووصلوا كييف في ٢٨ حزيران، وكان سرورهم بوصول بلاد القوزاق عظيماً «لأن هاتين السنتين اللتين قضيناهما في موسكوفي» كانت وكأن اقفالا وضعت على قلوبنا خلالها، وكنا في غاية الضيق، والضغط على عقولنا كان شديدا، إذ لايستطيع أحد أن يشعر في تلك البلاد بشيء من الحرية او البهجة، الاّ إذا كان من أهلها. اما بلاد القوزاق فهي على العكس من ذلك بدت وكأنها بلادنا، وسكانها كانوا رفاقاً مرحين وأشخاصاً مثلنا.

وعبر الركب نهر «الدنيبر» واستقبلهم الناس بحفاوة، وكان البيت الذي نزلوا فيه مكتظاً بالناس من الصباح الى المساء ممن جاءوا لرؤيتهم والترحيب بهم. وقد كان مما أثار استغرابهم وبعث السرور في نفوسهم أن شاهدوا على جدران البيت صورة البطريرك «يواكيم ضو»، بطريرك انطاكية الذي زار روسية في سنة ١٥٨٤، أي قبل مكاريوس بثمانين عاما أو نحوها«وكان وجهه أسمر، ولحيته بيضاء مدببة. وكانت جانبها تصاوير لبطاركة الاسكندرية والقسطنطينية والقدس».

وبعد أن أمضوا في كييف أسبوعين، غادروها عابرين نهر الدنيبر مرة أخرى، وساروا في «بلاد الاوكرايين» حتى دخلوا حدود «مولدافيا» عند بلدة «راشكوف» نفسها، وكان «البك» قد أرسل لهم حرساً يرافقونهم حتى مدينة «جاسي»، حيث استقبلهم حاكمها بحفاوة عظيمة، ورتب لهم مكافأة يومية سخية. ويقول بولص إنهم هناك في مولدافيا، استنشقوا هواء بلادهم للمرة الاولى، ودخلوا الحمام بعد سبعة وعشرين شهراً لم يدخلوا خلالها حماما قط، ولم يغسلوا أجسادهم بالماء.

وبعد قضاء شهرين في مولدافيا، واصلوا سفرهم الى «ولاخيا» في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر)، ونزلوا في أحد الأديرة التي كانوا قد مرّوا بها في طريقهم الى روسية. فقضوا الشتاء هناك، وكان الحاكم (البك) هو قسطنطين الذي حضروا مراسم

تنصيبه قبل سنتين ونصف ، فاحتفى بهم واكرم وفادتهم .

ووصف بولص أحوال تلك البلاد، ومباركة البطريرك مياه النهر، والثلوج الكثيفة المتساقطة، وتجمد الدانوب ثلاث مرات، وكان سُمك ماتجمد من صفحته في إحداها يبلغ ٨١ بوصة، وهو عمق لم يسبق له مثيل منذ ثلاثين عاما .

وابان وجودهم هناك وصلت الانباء الى (البك) بان الوزير التركي أمر بقتل بطريرك القسطنطينية بدون جريمة ارتكبها، فألح على مكاريوس أن يبقى في حمايته خوفاً عليه من رجال الوزير. فقضى مكاريوس مدة أخرى من الاقامة الاجبارية في «ولاخيا» وأزجي أوقاته بزيارة شتى أديرة البلاد وكنائسها .

وكانت هنالك أسباب أخرى أثارت مخاوف الركب، وجعلته يحجم عن السفر فقد وصلت الأنباء بأن الأتراك كانوا يتجهون نحو البحر، متحالفين مع التتر، وأنهم قد يشنون حملة انتقامية عبر ولاخيا ومولدافيا، لأن ملك المجر «كارل» كان قد أجبر حكام هذه البلاد على تزويده بالجنود، وكانت المجر تحارب امبراطور روسية الى جانب السويد .

ان هذه الاضطرابات التي سادت البلاد حملت مكاريوس وولده على الابتعاد عن مواقع الخطر، والبقاء على مقربة من الجبال الهنغارية التي تعوّد الولاخيون اللجوء اليها في أوقات الشدة، وكانت حجتهما في ذلك الرغبة في زيارة مافيها من أديرة .

سافر مكاريوس وولده وأصحاب رحله في ١٨ حزيران حاملين معهم جميع أمتعتهم ، وساروا على سواحل نهر «آلوتا» الكبير، متجهين الى دير «كوزيا» المشهور، ومخترقين ممراً ضيقاً معلقا فوق النهر، خلال واد سحيق مليء بالصخور والمياه المضطربة ، ووصلوا الدير بعد مسيرة عشرة أيام، وكان مكاريوس وولده قد خططا لزيارة هذا الدير بصورة خاصة إذ بلغهم أن فيه كتاباً عظيم الاهمية من مجموعة (آيا صوفيا) الامبراطورية في القسطنطينية. وكان الكتاب عرضاً لمزامير داود، جمعه القديس (نيسيتياس) في القرن الحادي عشر من مصادر كنسية عديدة، ويقع في ٣٠٠ صفحة، وكان المعتقد أن هذا الكتاب فريد، ولاتوجد نسخة أخرى منه حتى في مكتبة البابا او مكتبة أية مدينة اوربية. وكان الكتاب باللغة الاغريقية، فاستنسخوا نسخة منه، وكلفوا بهذا العمل قسيساً يونانياً يحب النبيذ حبًا مفرطاً، فأغدقوا عليه به، وحملوه الى دير صغير وأجبروه على استنساخ الكتاب وكانوا يرسلون اليه في كل يوم قنطارين من النبيذ لغدائه وعشائه «فشحذت مشاعره ،وأشرقت قوته العقلية حتى أكمل نسخ الكتاب» .

أن كان مطران غزة نازلاً في الدير الذي نزلوا فيه، فحصلوا من هذا

المطران على كتاب مهم آخر كان قد جمع محتوياته في شتى البلاد التي زارها، ومن عدة مؤلفين. وكان كتاباً فريداً ايضاً لاتوجد نسخة اخرى منه، وقد سماه (كتاب النبوّات). ولم يسمح مطران غزة باستنساخ هذا الكتاب الا بصعوبة كبيرة، وبعد الحاح طويل. ويروى بولص ان هذا المطران تعرض بعد ذلك للسلب خلال الحرب، فذهبت كل أمتعته التي كانت معه، بما فيها ذلك الكتاب، فكتب الى مكاريوس يرجوه ان يبعث اليه بنسخة منه، منقولة عن نسخته ففعل.

وعلى اثر نشوب اضطرابات اخرى أعقبت عزل (البك) بقي مكاريوس في «ترغوفيست» حتى بداية شباط ١٩٥٨، ثم هرب مع آخرين شمالا. ولما فر «قسطنطين»، سافر الجميع على عجل الى إحدى الجبال، وهناك أودعوا امتعتهم كلها، ووجدوا مكاناً اختبأوا فيه، فظلوا هناك حتى بلغهم أن (البك) الجديد قد استقر في (بوخارست) كما سمعوا أن التتر عادوا مع أسراهم (الذين قدّر عددهم بين ٧٠ الف و ١٥٠ الفاً)، فأرسل مكاريوس رسالة تهنئة الى (البك) الجديد، وتشجع على الذهاب الى بوخارست لمقابلته. وكان البك قد تسلم أمراً من القسطنطينية بالالتحاق بجيش السلطان الذي كان سائراً في حملة على المجر، وكان يتخذ الاستعدادات اللازمة للحرب، ولكنه، على الرغم من هذه المشاغل، كان يقضي ساعات من الصباح وساعات من المساء صحبة مكاريوس، يحادثه في الشؤون الدينية وغيرها.

وفي هذه الاثناء عُلم أن قسطنطين (البك المخلوع) قد جهز جيشاً جديداً، وأخذ يهدد بالعودة الى ولاخيا، فنشبت اضطرابات جديدة أفزعت الشعب وأتعبته، فقرر مكاريوس مغادرة ولاخيا «حتى ولو تركنا أمتعتنا خلفنا».

وفي ٩ تموز ١٩٥٨ غادر (البك) الى المعسكر، وكانت حيرة مكاريوس وصحبه عظيمةً وارتباكهم شديداً، وتمكنوا أخيراً من إيجاد عربتين حمّلوهما أمتعتهم الثقيلة، وذهب بولص معهما الى «غالاتز» وهي المدينة القريبة من مصب «الدانوب» الى البحر الأسود، حيث وجد سفينة قادمة من «طرابزون» - في الاناضول - كانت على وشك العودة اليها، فشحن عليها الأمتعة والمرافقين مع كمية من المؤن، وعاد الى «بوخارست» فوصلها في ٣١ تموز، ولكنه لم يجد فيها البطريرك لأنه كان قد تراجع الى «بيتشي» فلحق به هناك.

وبعد قضاء نحو من شهرين على ظهور الخيل تنقل مكاريوس وولده بولص خلالهما من مكان الى آخر، مستعيدين مااستطاعا استعادته من أمتعتهما، بدءا الرحلة من بخارست في ٩ أيلول الى «غالاتز» فوصلاها في ١٧ منه، وقضيا فيه عشرين يوماً

بانتظار سفينة تُقلهما الى «سينوب» المدينة الساحلية التركية على البحر الأسود، وكان الوزير قد استولى على السفن كلها. وأخيراً وجدا سفينة تعود الى مسيحي من «سينوب» محملة بالشعير، فوافقا على منحه مائتي قرش (حوالي دينارين) لايصالهما الى سينوب. فغادر مكاريوس ومن كان معه «غالاتز» في ١٣ تشرين الاول على الدانوب، وخرجا الى البحر الاسود، وهنا سمعوا للمرة الاولى اصوات المؤذنين، بعد أن كانوا يسمعون أجراس الكنائس وحدها خلال السنوات الست الماضية. وفي مصب الدانوب شاهدوا حوالي سبعين سفينة تنتظر هبوب ريح مناسبة لتتمكن من الابحار، وفي ٢٤ تشرين الاول هبت الريح المنتظرة فأبحروا جميعا.

وبعد سفرة بحرية دامت ٣٥ يوما وصلوا ميناء «سينوب» قاطعين ١٤٠٠ ميل. وفيها نزلوا الى البر، ودخلوا الحي المسيحي خارج أسوار المدينة، وقضوا في هذه المدينة شهرين آخرين بسبب القتال الدائر بين الحكام المتناحرين (الباشاوات) مما جعل الطرق محفوفة بالمخاطر لجميع القوافل. فلما هدأت الاحوال، بدأ مكاريوس وولده وصحبه السفر براً، ولكنهم لم يجدوا قافلة يلتحقون بها، فتكاروا عشرين بغلا وعربة، وحملوها أمتعتهم، وبدأوا هذه المرحلة الأخيرة من سفرتهم في ٢٤ شباط، فواجهوا خلالها عواصف ثلجية، ومروا بطرق شديدة الوعورة، حتى وصلوا مدينة «قيصرى»، وبعدها «طوقات»، فزاروا بجوارها مقابر بعض القديسين، والكنائس الرومانية القديمة التي وصف بولص مواقعها التاريخية بدقة زائدة. وفي ١٥ مارت غادروا «طوقات» مع قافلة، فعانوا من البرد والثلوج ووعورة الطرق ماعانوا، وكان اكثرهم تأثرا بوعورة الطرق البطريرك نفسه، لأنه كان رجلاً بديناً.

ولما اقتربوا من «مرعش» شاهدوا للمرة الأولى تربةً تشابه تربة حلب، وكانت تكسوها أشجار البلوط والزيتون والرمان.

وأخيراً وصلوا حلب، ثم غادروها مع قافلة من الحجاج المسلمين متجهة الى دمشق، فوصلوا دمشق في اليوم الاول من تموز، بعد غياب دام سبعة أعوام تقريبا، وخرج لاستقبالهم المسيحيون بترحاب وسرور.

وبعد أن استجم مكاريوس في دمشق أياماً، عقد مجمع المطارنة، فحضره مطارنة طرابلس، وبيروت، وصيدا، وعكا، لمحاكمة مطران انطاكية الذي ارتكب اعمالاً سيئة ابان غياب مكاريوس، فتقرر طرده من الكنيسة وتحريمه، فهرب المطران ليلاً الى حلب، ومات فيها.

وفي دمشق زار مكاريوس الوالي التركي (الباشا)، وكبار رجال الدولة، وقدم لهم الهدايا من الشموع والسكر والاقمشة، كما سدد ما كان عليه، أو على البطريركية،

من ديون بلغ مجموعها خمسة عشر الف قرش (حوالي ١٥٠ دينارا).

ووجد مكاريوس بيت البطريركية مهجوراً مهملاً أشبه بالركام، فهدمه وبنى قصراً جديداً فيه غرف خاصة لرجال الدين، ورواق خاص ذو أعمدة، وحديقة زَرَع فيها أشجار البرتقال والليمون، وحوض ماء، فكلف ذلك جميعاً ثلاثة آلاف قرش (حوالي ٣٠ دينارا). وكان (الآغا) قد استولى على القصر القديم، فلم يتمكنوا من اخراجه منه الاّ بصعوبة. وكان أمام البطريركية خان قديم يعود للبطريرك فيه غرف للفقراء، ولكنه اتُخذ خلال غيابه بؤرة للمومسات، فطردهن بولص على الفور، وهدّ البناء من أساسه، وأقام بمكانه بناءً جديداً كلف ألفي قرش.

ويختم بولص يومياته قائلا: «فليكن عمر والدي البطريرك طويلا، ليقوم بأعمال الخير مطمئن البال، وبمنجى عن الديون الثقال، والمخاوف المزعجة».

الرحلة الثانية

لم يكتب لمكاريوس أن يقضي أيامه الباقية - كما تمنى له ولده - في هدوء وصفاء، منصرفاً الى ماكان يميل اليه من كتب ومخطوطات ودراسات تاريخية ودينية، فقد اضطر الى العودة الى موسكو مرة اخرى في سنة ١٦٦٩ بدعوة من القيصر آليكسيس، للاشتراك في مجمع كنسيّ دعي للمصادقة على الحكم الصادر بادانة البطريرك «نيكون».

وكان الشماس بولص قد أشار (في نيسان سنة ١٦٥٦) الى إشاعة بلغته عن حدوث جفوة بين الامبراطور وبطريرك موسكو «نيكون» على اثر نزاع جرى بينهما بسبب خلاف يتعلق بطقوس الكنيسة الروسية.

وكان «نيكون»، على اثر تسلمه بطريركية موسكو، قد وجد في الكنيسة الروسية انحرافات طرأت عليها، وتعديلات أُدخلت عليها، فصار يدعو الى إصلاح تلك الانحرافات التي رآها باطلة، والى محاربة الفساد وأعمال السوء التي كان يرتكبها الكثيرون من أبناء طبقة النبلاء. كذلك كان «نيكون» ينوب عن الامبراطور خلال فترات غيابه في حملاته العسكرية، وكان بسلوكه المتعجرف، وقسوته في معاملة المسيئين من رجال الدين، قد أثار نقمة رجال البلاط، والنبلاء، ورجال الدين، وخلق لنفسه جيشاً من الأعداء. ولكن الامبراطور كان يحبه كثيراً ويسنده اسناداً قوياً، ولذلك بقي أعداؤه عاجزين عن أن ينالوه بسوء.

وكان «نيكون» مخلصا للامبراطور، ولم يطمح الى رئاسة الدولة، أو وضع الكنيسة في مقام يعلو عليها. ولكنه كان متهوراً فيه رعونة وغرور، وبنفس الوقت كان شجاعاً ونبيلاً ومخلصاً لمبادئه. وكان يرمي الى إدخال بعض التعديلات البسيطة في مبادىء الكنيسة وطقوسها، وهي مبادىء أقرب الى ما كان متبعاً في الفرع اليوناني من الكنيسة الاورثود وكيسية. ولعل مثل هذه التعديلات كانت قد أصبحت ضرورية من الناحية السياسية في ذلك الوقت، بعد ضم اوكرايينا الى «موسكوفي»، لأن الكنيسة الاوكرايينية كانت أقرب الى الكنيسة اليونانية، وبدون تقديم بعض التنازلات للاوكرايينين كان يمكن أن يحدث في الكنيسة انشقاق خطير يهدد سلطة بطريرك موسكو الشاملة على الكنيسة الروسية.

ولم تكن التعديلات التي يريدها «نيكون» تتعلق بالنصوص الأصلية ولابأمور جوهرية (كما كان الأمر مثلا في حركة الاصلاح الديني ـ حركة الانسانيين ـ التي ظهرت في القرن السادس عشر في أوربا)، بل كانت أموراً تتناول الشكليات. على أن ماأثار الاستياء الشديد والمعارضة القوية على نيكون هو انه أحاط نفسه بالكهنة اليونايين المحبذين لأفكاره، وتعيينه اياهم في مناصب الكنيسة المهمة التي كان يطمح اليها رجال الدين المحليون[١٩].

وكانت نتيجة الاصلاحات او التغييرات التي حاول «نيكون» ادخالها، ظهور فئات معارضة عديدة، عنيفة في معارضتها، أهمها جماعة «اهل العقيدة القديمة» التي ترأسها كبير الكهنة «آفاكوم».

وكان الامبراطور، في البداية يؤيد «نيكون» ويحميه، ولكن أعداءه مافتئوا يوغرون صدر الامبراطور عليه، ويثيرون غيرته منه، حتى وقعت مشادة علنيةبينهما، وفي سنة ١٦٥٨ كانت القطيعة بين الصديقين اللذين كانا يوما ما مرتبطين ببعضهما برباط قوي من المحبة والاحترام.

وقصة الخلاف بين الامبراطور والبطريرك تعد من الأحداث المثيرة في التاريخ الروسي في تلك الفترة، ولايخلو كتاب في تاريخ روسيا من ذكرها.

وقد تألم البطريرك «نيكون» لتغير موقف الامبراطور منه كثيرا، فلم يُطق البقاء في موسكو وسارع بهجرها في تموز من تلك السنة، واعتكف في دير كان قد بناه في «فوسكريسنك» وأسماه «القدس الجديدة». وسبب هذه التسمية هو أن طراز أبنية الدير كان منقولاً عن نماذج مصغرة للأماكن المقدسة في القدس. وهناك تفرغ للصلاة

---

(١٩) Kirchner, Walther, *History of Russia*, (Barnes & Noble), New York, 1962, p. 71 - 75

والدراسة والتأمل، ووضع حول جسمه سلاسل ثقيلة من الحديد، لم ينزعها حتى وفاته .

وبقي البطريرك «نيكون» في هذا الوضع عدة سنوات لم يستطع أعداؤ ه خلالها أن ينالوا منه، فلما حلت سنة ١٦٦٦م تمكنوا من استصدار القرار بطرده من الكنيسة، وتحريمه، وسجنه .

وكان القيصر قد دعا الى مجمع كنسي استثنائي بعد انسحاب نيكون من موسكو بسنتين، لينظر في أمره ويصدر حكمه عليه بسبب تخليه عامداً عن أقدس تاج في روسية العظيمة، مما أثار بلبلة بين أتباعه، ونزاعات لانهاية لها. وفي تشرين الاول سنة ١٦٦١ أصدر المجمع الكنسي، بايعاز من القيصر، حكمه بأن البطريرك، بما صدر عنه من أعمال يعد متنازلاً عن منصبه، ولم يعد بطريركا، ولكن «نيكون» رفض هذا القرار، وقدم اعتراضاته على اتهامات أعدائه، وسلّمها الى اللجنة التي أُرسلت لاستجوابه في ديره، وقد وجهت اليه أسئلة متنوعة بشأن المخالفات المنسوبة اليه، فأجاب عنها أجابات فيها كثير من اللف والدوران. فأرسل القيصر هذه الأجوبة الى بطاركة القسطنطينية والقدس ،وانطاكية، والاسكندرية، لينظروا فيها، وفي الوقت نفسه دعاهم للحضور الى موسكو لمناقشة الامر واصدار حكمهم في قضية البطريرك السابق «نيكون» الذي أساء ادارة السلطة البطريركية» .

ارسلت هذه الدعوة في سنة ١٦٦٣، فقبلها بطريرك الاسكندرية «باييس» وبطريرك انطاكية «مكاريوس» .

ولايعرف على وجه التحديد تاريخ خروج مكاريوس في هذه الرحلة التي صحبه فيها ولده «بولص» ايضا ، كما كان معه في سفره بطريرك الاسكندرية «باييس» .

ويحتمل أن يكون بولص قد دون يومياته عن هذه الرحلة أيضا، ولكنه توفي خلالها في طريق عودتهم بجورجيا (بلاد الكرج) عام ١٦٦٩، ولم يعثر لليوميات على اثر حتى الآن، إذا كانت قد كتبت أصلا .

وقد سلك مكاريوس وجماعته في هذه المرة الطريق التي اعتاد المسافرون سلوكها اذا أرادوا تحاشي القسطنطينية وسواحل البحر الأسود الجنوبية والغربية، اي طريق القوقاز وجورجيا الى «استراخان» ، ومنها يتجهون مصعّدين على نهر «الفولغا» الى موسكو. وعلى الرغم من عدم معرفتنا العام الذي بدأ فيه مكاريوس رحلته هذه فانه ، على اية حال ، كان في «جورجيا» في عام ١٦٦٥ ، كما يذكر ذلك بولص في

اضافاته الى وصف الرحلة الاولى[20]، بل ربما قبل ذلك، اي في عام ١٦٦٤. وقد بلغوا «استراخان» في ٢١ حزيران عام ١٦٦٦، وشاركوا في الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة إحداث مطرانية فيها[21] وفي السابع من حزيران غادرها مكاريوس ماراً في طريقه على «جورني يار» و «تسارتسن»[22]، و «ساراتوف» و «سيمبريسك»[23] و «ارزاماس» و «مورم» وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول مروا بمدينة (فلاديمير)، وبعدها وصلوا الى موسكو في اليوم الثاني من تشرين الثاني سنة ١٦٦٦، فاستقبل الامبراطور ورعاياه بطريركي انطاكية والاسكندرية بسرور وترحاب.

وبدأت محاكمة «نيكون» في أول كانون الاول (ديسمبر) ١٦٦٦، بحضور البطريركين، والمطارنة الآخرين، وكبار رجال الكنيسة، وطُلب الى البطريركين المصادقة على قرار المجمع السابق (الاستثنائي) بطرد البطريرك نيكون. وأُحضر «نيكون» من ديره «القدس الجديدة» للمثول أمام المجمع ليلا، وأُخرج بعد صدور الحكم عليه، وقد أُحيط إحضاره واعادته بالكتمان مخافة أن يظهر الناس مشاعر العطف عليه.

وصدر الحكم بانتزاع سلطات «نيكون» ونزع شرف البطريركية عنه، وكذلك حُكم عليه بالسجن الانفرادي، وقد قضى «نيكون» بعد ذلك خمسة عشر عاماً سجيناً مبعداً، ولم يطلق سراحه الا حين عُلم أنه على وشك الموت، إذ صفح عنه القيصر تيودور (ابن الكسي الذي خلف أباه على العرش)، ومات «نيكون» وهو في طريقه الى ديره في ١٧ اب (اغسطس) سنة ١٦٨١، وبعد وفاته أُعيد اعتباره، كما أعيد اليه لقب البطريرك، ودخل اسمه تاريخ روسيا شخصيةً روائيةً الى جانب ماحفل به ذلك التاريخ من شخصيات غريبة ومثيرة مثل بوريس غودونوف، وبطرس الاكبر، وراسبوتين وعشرات غيرهم.

وبقي مكاريوس في موسكو حتى مايس سنة ١٦٦٧م، وساعد في اختيار خلف لـ «نيكون» وهو البطريرك «يوساف». وبعد إقامة دامت عاماً ونصف عام غادر موسكو، وسلك الطريق التي جاء منها، فوصل استراخان في العاشر من آب، ومنها كتب الى القيصر يخبره بوصوله اليها، وبأنه في طريقه الى البحر، وغادرها في أوائل

---

(٢٠) مرقص، الترجمة الروسية، الجزء الثالث، ص ٦٦ و ٧٥، وكراتشكوفسكي، المرجع سالف الذكر، ص ٧٤٥.

(٢١) كراتشكوفسكي، نفس المرجع، ص ٧١١.

(٢٢) اعيدت تسمية هذه المدينة بـ «ستالينغراد»، وبعد الحملة على «الستالينية» في الاتحاد السوفيتي تغير اسمها فاصبحت «فولغوغراد».

(٢٣) تسمى هذه المدينة الان «اوليانوف»، نسبة الى اسم اسرة «لينين»، وهو من مواليد هذه المدينة.

ايلول (سبتمبر) .

وكانت رحلة العودة غير موفقة ، فقد تعرض مكاريوس واصحابه في «شماخة» لابتزاز اموالهم، ونهب الخان الذي كانوا يقيمون فيه، وفي الرابع من شباط ١٦٦٩ ابلغ مكاريوس في كتاب بعث به الى «يوساف»، بطريرك موسكو الجديد عن وصولهم الى «ايفريا» . وفي ٢٢ حزيران من العام نفسه كتب اليه من «تفليس» وأخبره بتفاصيل الكوارث التي حلت به، وفقدانه جميع مقتنياته ووفاة ابنه «بولص». وهو يختتم كتابه هذا بنغمة حزينة طالباً يد المساعدة .

ووصل مكاريوس أرض الوطن في عام ١٦٦٩، واستمرت علاقته مع موسكو قائمة، وقد وصلته منها بعض المساعدات والهدايا التي أرسلت اليه مع مطران صور وصيدا .

وتوفي مكاريوس الانطاكي في ١٢ حزيران ١٦٧٢، اي بعد ثلاثة أعوام من وفاة ابنه ومدوّن رحلته بولص الحلبي[٢٤] .

* * *

ان هذا العرض الموجز لرحلتَي مكاريوس لايغني ـ بطبيعة الحال ـ عن قراءة ماتضمنته يوميات بولص من معلومات دقيقة عن سير الرحلة وتفاصيل مشاهداتها في البلاد التي مرّا بها خلالها، والأحداث الغريبة التي أحاقت بهما، ولكنها محاولة لاعطاء فكرة عامة ومختصرة عنها .

وعلى الرغم من احتمال وجود كثير من المبالغات في اوصاف بولص، وكثير من الغلو في مديحه وتقييمه لبعض الشخصيات ، فلا يُنكر أنّ بولص استطاع أن يُضفي على يومياته طابَعاً من الحيوية والسلاسة الفطرية، وهو يبدو لنا من خلالها رجلاً سليم الطوية، لطيفاً، ساذَجاً، محباً للبحث، قوي الملاحظة، عانى من شدائد الحياة ماعانى، مع أنه كان يفضل هدوء الشرق الذي ولد فيه على تلك الحياة المضطربة[٢٥] .

وقد دوّن بولص انطباعاته الشخصية خلال الرحلة يوماً بعد يوم، دون تنقيح ولااعادة نظر في كثير من الحالات، وكان يأمل أن يعيد صياغتها عند رجوعه الى الوطن. وقد تمكن من تحقيق هذه الرغبة فعلا، فجاءت المسودة الثانية أوسع من الأولى كثيراً، واغلب لظن انه أكملها قبل خروجه في الرحلة الثانية .

---

(٢٤) كراتشكوفسكي، المرجع سالف الذكر، ص ٧١٢ .

(٢٥) رونسان، المرجع سالف الذكر، ص ١٥

وتوجد للكتاب في الوقت الحاضر مسودتان على الاقل، هما المسودة القصيرة او الأولى، والمسودة الكبيرة التي أضاف اليها بولص تعليقاته على مدى عشر سنوات. وبهذا يمكن تفسير الاختلافات الموجودة بين مخطوطات الكتاب المعروفة حتى الآن .

وأسلوب بولص العربي لايُعدّ من الناحية الأدبية واللغوية عالياً ولامتيناً، وفيه من الأخطاء النحوية واللغوية والركاكة في التعبير والضعف في التركيب الشيء الكثير. ومن الواضح أن بولص لم يكن متمكناً من ناصية اللغة العربية، والأسلوب الذي اقتدى به هو أسلوب الكتب الدينية المسيحية في ذلك العهد. بل أن بولص يخرج أحيانا حتى عن هذا المستوى، فيسفّ الى لغة الحديث اليومية، وان كان ذلك يزيده في بعض الاحيان حيويةً واقتراباً من الواقع. وفي لغته كثير من الالفاظ المحلية والعامية، ويشوبه كثير من التكلف، وهو بصورة خاصة وَلوع بالإكثار من المترادفات، كقوله في كلامه عن أهل حلب:

«. . . أينعوا وأثمروا ونموا وزادوا وتكاثروا . . .»

وقوله:

«. . . ولما نظر الأب السيد البطريرك تكاثر الديون وتفاقمها وازديادها على الكرسي الانطاكي وتفاقمها. .»

وكان بولص، إضافة الى ذلك، يحاول التزام السجع باصرار شديد، وبصورة مزعجة أحيانا، ومضحكة في أحيان اخرى .

وقد وصف العلامة حبيب الزيات في مقالة له عن رحلة مكاريوس نشرت في مجلة (المشرق) عام ١٩٣٢، اسلوب الشماس بولص قائلا:

«وكان أقصى همّه الاكثار من التزويق والتنميق كلما وجد اليهما سبيلاً دون أقل مراعاة منه لمقتضى الحال. وكان ككثير من كتَبة زمانه المتحذلقين يرى أن الفصاحة قائمة في الاستزادة من المترادفات، وتكرار المعنى الواحد بالفاظ مختلفة لغير حاجة سوى المباهاة بكثرة المحفوظ منها، وان البلاغة الحقيقية منحصرة في التزام الاسجاع في كل معنى ولو بمخالفة كل ذوق وقياس. ولذلك جاء منها بالثقيل البارد ودسّها بين كل سُدى ولُحمة واطال بها ذيل رحلته بما كدّر صفوَها وجعل المطالع والناقل لهم يتبرم منها، ويحرج صدراً بكثرة اللغو والتكرار الفارغ وغلبة اللحن والسقط فيها، فضلا عن اعتراض بعض الالفاظ العامية والمصطلحات الحلبية الدخيلة من التركية وهي مالا يتهيأ فهمها وادراك معناها الصحيح لكل أحد ممن حاول ترجمتها لقلة ألفته بها

وعدم ورودها في المعاجم . . . »[٢٦] .

ثم قال :

«اما السجع فقد بلغ من تهوسه به أنه التزمه في كل مقام ومقال حتى في حكاية بعض الأخبار التافهة وسرد بعض الأرقام أو في تاريخ الأيام مما لامحل لأقلّ تأنق فيه، وربما خالف كل قياس، كقوله : وقد تم هذا القول بغير اشتباه، في هذا الأب الفاضل وابناه . .

«وله في نسخة باريس (ص ١١٧ ـ ١١٨) أربعون سطراً كاملة التزم فيه السجع بالنون، ولعله أراد فيها تقليد فواصل القران ، فجاءت مشحونة بأقبح الاغلاط واشنع التخبط والافساد، كقوله :

«قلوب القاسيون، وشعورهم المظفورون، ولم يكون، ومع
الموتى ماضيون، ياجابر المكسورون، انت خير الرازقون،
ومع العرب المجانون، ارحمنا نحن المساكون . . . الخ» .

وقد وقف بعض الباحثين الروس من رحلة مكاريوس وأهدافها موقفاً سلبياً، ومنهم «كريمسكي» و «سميرنوف» وقد نبّه الأخير الى الدوافع الشخصية التي كانت وراءها. وقد وجد أولئك الباحثون في سلوك الرجلين ضرباً من الكدية والاتجار بالغفران، وانتقد «سميرنوف» الشماس بولص ووصفه بانه «شاهد مرتش رشاه الشعب الروسي بالتبرعات الوافرة التي حملها أبوه من بلادنا»[٢٧] .

وأيّا ما كان الأمر ، فان «رحلة مكاريوس» تعد من المصادر المهمة والنادرة عن التاريخ السياسي والديني للمناطق التي زارها أو مرَّ بها . وقد تمكن مكاريوس وبولص ، بسبب بطء سير الرحلة وطولها ، من التعرف على كثير من الشخصيات المهمة في ذلك العصر، مثل الآتامان «خميلنسكي» والقيصر «الكسي ميخائيلوفيج» والبطريرك «نيكون» وعشرات من الشخصيات ممن هم أقل أهمية من هؤلاء. كما أنهما كانا شاهدَي عَيان لحوادث تاريخية خطيرة مثل اتحاد وكرايينا مع روسية، والحروب الروسية ـ البولونية، وظهور حركة أهل العقيدة القديمة وانتشار الطاعون في روسية . على أن ماكان أهم من كل ذلك عند بولص هو الوسط الاكليروسي . فقد كان اهتمامه الرئيسي متركزا على الحياة الدينية، والطقوس الكنسية، وهو جانب كان مغلقاوعسير الاتصال به، بل وغير مفهوم كلياً من جانب الرحالة العرب الذين زاروا

---

(٢٦) حبيب الزيات، المرجع سالف الذكر، ص ٥٦٦

(٢٧) Smirnov, Bogosl. vestn., p 171 - 174، وكراتشكوفسكي المرجع سالف الذكر، ص ٧٢٤ .

روسية قبل مكاريوس او بعده، ومايزال بعض المادة التي تضمنتها «رحلة مكاريوس» محتفظا بقيمته الى أيامنا هذه .

وعسى أن تجد يوميات بولص عن هذه الرحلة من يُعنى بمقابلة النسخ المتفرقة الموجودة منها ، واخراجها في طبعة عربية محققة تكون في متناول القراء ، ويستطيع الرجوع اليها الباحثون والمهتمون بهذه الموضوعات، فضلاً عن طرافة الكتاب، ومافي قراءته من إمتاع ومؤانسة .

الحربُ الروسيّة - اليابانية

وصداها في الأدب العربي

كانت الحرب الروسية ـ اليابانية التي دارت رحاها في ١٩٠٤ و ١٩٠٥ أهم الأحداث الدولية في مطلع القرن العشرين، ولذلك لم تقتصر آثارها على الدولتين المتحاربتين وحدهما ـ حيث كانت ثورة ١٩٠٥ في روسيا إحدى نتائجها المباشرة ـ وانما ترددت أصداؤ ها في العالم أجمع، وفي بلاد الشرق بصورة خاصة.

وقد شغلت هذه الحرب الرأي العام في البلاد العربية، واهتمت بها الصحافة العربية اهتماماً كبيراً، فكانت تتناقل أخبارها، وتصف معاركها، وتعلّق على أحداثها، وتتكهن بنتائجها. كما اهتم بها الكتاب والشعراء، فتردد صداها في الادب العربي سنواتٍ طويلةً بعدها.

كانت هذه الحرب تجري في منطقة نائية من العالم، ولم تكن للبلاد العربية مصلحة مباشرة فيها، وكانت أسباب المواصلات ووسائل الاعلام محدودة وبطيئة. فما سبب هذا الاهتمام الكبير بها؟ ولماذا كان لها ذلك الصدى الواضح في الأدب العربي والصحافة العربية؟ ومَنْ أبرز الكتاب والشعراء الذين تردد ذلك الصدى في أدبهم؟

قبل الاجابة عن هذه الاسئلة، قد يكون من المستحسن ان نعرض بايجاز أسباب الحرب الروسية ـ اليابانية، وتطور أحداثها.

نشبت الحرب الروسية ـ اليابانية بسبب تضارب المصالح الاستعمارية للدول الكبرى في الشرق الاقصى، وبصورة خاصة المصالح الروسية واليابانية في منشوريا وكوريا. ومن أسبابها أيضا السياسة الخارجية المتهورة التي اتبعها القيصر نيقولاي الثاني في الشرق الأقصى. وقد انجرفت روسيا الى المنافسات الاستعمارية منذ قيامها بمشروع سكة حديد عبر سيبيريا. وكانت المنطقة المتنازع عليها هي منشوريا.

كانت روسيا قد حصلت ـ بموجب معاهدتين عقدتهما مع الصين ـ على امتياز بمدّ سكة حديد عبر منشوريا (التابعة للصين)، كما أنها ـ بموجب اتفاقية تالية ـ استأجرت ميناء «بورت آرثر» لاقامة قاعدة عسكرية بحرية فيها، كما استأجرت الميناء التجاري

«دالني». ولما قامت في الصين ثورة «ايختيوان» ـ المعروفة بثورة «البوكسر» ـ تعاون عدد من الدول الكبرى، من ضمنها روسيا، على قمعها. فلما أخمدت الثورة، أخذت روسيا تماطل في سحب قواتها المرابطة في منشوريا، متذرعةً بحجج شتى، منها حماية الخط الحديد فيها. وبهذه الوسيلة، اتخذت من منشوريا منطقة نفوذ لها، بالرغم من أنها كانت قد تعهدت بسحب قواتها منها بمعاهدة وقعت في ١٩٠٢.

ان تغلغل روسيا في منشوريا، وترسيخ أقدامها فيها، وحيازتَها على قاعدة «بورت آرثر» أثار مخاوف اليابان، كما أنه أقلق بريطانيا على مصالحها الاستعمارية في الشرق الاقصى، فكان جوابهما على ذلك الحلف البريطاني ـ الياباني الذي عقد في ١٩٠٢.

وربما سكتت اليابان عن بقاء منشوريا منطقة نفوذ روسية لو أن روسيا اكتفت بذلك، ولكن روسيا كانت تحاول أن تمد هذا النفوذ أيضا الى كوريا التي كانت اليابان تعتبرها منطقة نفوذ تابعة لها بصورة قاطعة، ولم تكن مستعدة للتساهل في أمرها مطلقا. وقد أقرّ القيصر نيقولاي الثاني، الذي تسلم زمام السياسة الخارجية بيده، تسلل القوات الروسية الى شمالي كوريا، واستغلال موارد الأخشاب والمعادن في الجانب الكوري من نهر «يالو». وكانت تُحسِّن اليه هذه السياسة بطانة توجهها مطامع رأسمالي يدعى «بيزوبرازيف»، وهو مُضارب يمتلك شركة لاستخراج الأخشاب في الشرق الاقصى.

وفي ١٩٠٣، بلغ التوتر بين روسيا واليابان ذروته، ومع ذلك كان هنالك مجال لحل الخلاف بالطرق السلمية، لو قبلت روسيا عرضاً يابانياً للاعتراف المتبادل بحقوق كل من الدولتين في منشوريا وكوريا. واستمرت المفاوضات سنةً كاملة. وكانت الحكومة القيصرية تستهين بقوة اليابان، كما أن وزير داخليتها «بليفه» كان يعتقد بأن «حرباً قصيرةً» تخرج منها البلاد منتصرة، سيكون من شأنها توحيد صفوف الشعب، واذكاء حماسته الوطنية، وتجديد ولائه للحكومة، مما سيصد الحركات الثورية التي أخذت تقوى وتتسع في البلاد.

ولما بلغت المفاوضات مرحلة تعذر فيها التفاهم، وأدركت اليابان أنها ستُجبر في النهاية على دخول الحرب، قررت أن تعاجل الروس بها، قبل أن يأخذوا لها عدّتهم، فقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا (في ٥ شباط ١٩٠٤)، ثم شنت على القاعدة الروسية في «بورت آرثر» هجوماً مفاجئاً يشبهه بعض المؤرخين بهجومهم على «بيرل هاربر» في الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن الخسائر التي ألحقتها القوات اليابانية بالأسطول الروسي كبيرة، ولكن الاثر المعنوي للهجوم الياباني المفاجيء كان عظيما، برغم الشجاعة التي أبداها القادة

الروس. وكانت المشكلة الكبرى التي واجهتها روسيا هي صمود جيشها وتموينه من مسافة ٥,٥٠٠ ميل (بين موسكو وفلاديفوستوك) على سكة حديد ضيقة وغير كاملة.

وعانت قوات الجنرال الروسي «كروباتكين» خسائر جسيمة في البر، كما مُني الأسطول الياباني بخسائر كبيرة ألحقتها بها الالغام، غير أن محاولات الاميرالية الروس في توجيه قواتهم البحرية المتفوقة على القوات اليابانية، كان يحبطها مقتلهم في المعارك واحداً بعد آخر. وعمدت روسيا الى تعزيز أسطولها في الشرق الاقصى، بأن أوعزت الى قطعاتها البحرية في بحر البلطيق بالالتحاق بها، فلما علم بذلك اليابانيون، قرروا احتلال قاعدة «بورت آرثر» قبل وصول تلك القطعات، فحاصرتها القوات اليابانية من البر، وعزلتها عن القوات الروسية، حتى تمكنت من احتلالها في أول كانون الثاني ١٩٠٥، بعدما أظهرت القوات الروسية الموجودة فيها، بقيادة الجنرال «ستوسل» شجاعة فائقة في الدفاع عنها. وكان لسقوط «بورت آرثر» دوي هائل ليس في روسيا وحدها، وانما في العالم اجمع.

ووصل الأسطول الروسي من بحر البلطيق، بعد أن قطع المسافة الطويلة حول افريقيا دون أن تكون لديه الامكانات الكافية للتزوّد بالوقود، أو تنظيف قواعد السفن قبل خوض المعارك. وقد استغرقت رحلتها سبعة أشهر، وكانت عند وصولها في حالة لاتسمح بالحرب، ولابالهرب. فتصدت لها قوات الاميرال «طوغو» في مضيق «تسوشيما» (في ٢٧ ـ ٢٨ مايس)، فأبادتها بعد معركة ضارية. وفي هذه الاثناء هُزمت قوات الجنرال «كروباتكين» أمام القوات اليابانية في معركة برية دامت أسبوعين.

ولما أصبح من الواضح أن روسيا خسرت الحرب، تدخلت الدول الكبرى، ووافق الطرفان على اقتراح اميركي بالمفاوضة على شروط الصلح في مدينة «بورتسموث» ـ ولاية نيوهامبشر في الولايات المتحدة ـ واستغرقت المفاوضات ثلاثة أسابيع وقعت بعدها معاهدة الصلح في بورتسموث في ٢٣ آب ١٩٠٥.

ان اليابان، وان انتصرت في المعارك، فانها خرجت من الحرب مرهقةً ماليّا، وتكبدت خسائر جسيمة في الأرواح[1]. ولذلك تمكنت روسيا من الحصول على شروط صلح مقبولة نسبيا لدولة خسرت الحرب، ولكن بعد أن تزعزع النظام القيصري من أساسه، فقد اظهر اندحار روسيا في هذه الحرب سوء التنظيم

---

(١) قدّرت خسائر اليابان بـ (١٧٥,٠٠٠) قتيل. أما خسائر الروس فكانت حوالي (٣٠٠,٠٠٠) جندي.

العسكري، وفساد النظام السياسي في روسيا القيصرية[٢] وزاد في حالة جماهير الشعب سوءاً، وفي سخطها شدة. وهكذا أدت «الحرب القصيرة المظفرة» التي اقترحها «بليفه» حلاً لمشاكل روسيا الداخلية الى عكس النتائج المطلوبة تماما: فهي لم تكن قصيرة (دامت سنة ونصف تقريبا)، ولامظفرة. ولم يكن من شأنها توحيد صفوف الشعب، بل زيادة نقمته على الحكومة بسبب إرسالها ابناءه الى منشوريا البعيدة، لكي يقتلوا هناك لأسباب لايفهمها. وظهرت خلال الحرب حركات المقاومة ضد الحكومة في بعض اقاليم الامبراطورية، وخاصة في بولونيا، اعتراضاً على التجنيد، أعقبتها انتفاضات الفلاحين التي أخذت تتكرر في فترات متقاربة، واضرابات العمال التي اتسع نطاقها، حتى انتهت أخيراً بثورة ١٩٠٥ التي مهدت السبيل بدورها لثورة اكتوبر سنة ١٩١٧، وانهيار النظام القيصري.

كان لانتصار اليابان، وهي الدولة الشرقية النامية - على دولة أوربية كبرى وقع عظيم على الرأي العام العالمي، ورنة خاصة في بلاد الشرق، بما فيها البلاد العربية التي اتجهت أنظار شعوبها الى اليابان بشعور مزدوج من العجب والاعجاب. فقد وجدت هذه الشعوب أنها تستطيع - بل يجب - أن تتخذ اليابان قدوةً لها في نهضاتها وفي كفاحها ضد التغلغل الأوربي والسيطرة الاجنبية، وأن الشعوب الشرقية المضطهدة، المغلوبة على أمرها، اذا وحّدت صفوفها، وأصلحت أمورها، وتسلحت بالعلم، فليس ثمّ مايحول دون أن تقوى وتزدهر، فتحيي حضاراتها القديمة وأمجادها الغابرة.

نالت هذه الحرب عنايةً خاصةً من أدباء العراق ومصر والشام الذين عاصروها، وبعثت فيهم أحداثُها ونتائجها كثيراً من الخواطر والعواطف الشعرية، وأوحت اليهم بقصائد ومقالات كثيرة لم تنل ماتستحقه من عناية الباحثين الذين أرخو للادب العربي في تلك الفترة[٣].

وكانت عواطف اولئك الكتاب والشعراء نحو الأمتين المتحاربتين، وتأييدهم

---

(٢) تضيف المصادر السوفيتية الى أسباب اندحار روسية «خيانة عدد من الجنرالات القيصريين وجهلهم في المسائل الحربية». أنظر - مثلا - : آ. بريسوف وآخرين، «تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية - موجز»، موسكو (دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية)، الطبعة العربية (بدون تاريخ)، ص ١٩١.

(٣) ان أول باحث أشار الى هذا الأثر، فيما نعلم، هو الأستاذ أنيس المقدسي في دراسة له عن «العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث» نشرت للمرة الأولى في مجلة (المقتطف)، المجلد ٩٣ و ٩٤ سنة ١٩٣٩، ثم أعيد طبعها ضمن كتابه «الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث»، بيروت، ١٩٥٢ ص ٢٧ - ٣٠، وكذلك أشار اليه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في بحثه المعنون «أصداء ثورة ١٩٠٥ في الأدب العربي» والذي نشر باللغة الروسية في مجلة (الاستشراق السوفيتي)، ج٣، سنة ١٩٤٥، ص ٥ - ١٤.

إحداهما على الاخرى، تخضع لاعتبارات سياسية وعاطفية ودينية. وكانت أقوى هذه الاعتبارات هي «النعرة الشرقية» التي جعلت معظم الأحرار في البلاد العربية يقفون الى جانب اليابان لأنها دولة شرقية، ويعدون انتصارها انتصاراً للشرق، ودليلاً على يقظة شعوبه. وقد ظهر هذا الاتجاه في قصائد عدد من الشعراء المصريين، أبرزهم حافظ ابراهيم.

ان الشعور بالرابطة الشرقية كان قويًا في نفس حافظ ابراهيم، فظهر أثر ذلك واضحاً في شعره، وان لم يُضعف من شعوره القومي والاسلامي. وقد شهد النصف الأخير من القرن التاسع عشر عوامل واتجاهات سياسية، كان من شأنها ان تبعث مثل هذا الاتجاه، ومن أهمها السياسة الاستعمارية التي سارت عليها الدول الاوربية الكبرى وروح التسلط التي سادتها. وكان حافظ ابراهيم يُظهِر في كل مناسبة اعتزازَه بالرابطة بين البلاد الشرقية من أقصاها الى أقصاها، وكان شعره يجري بذكر الصين واليابان وغيرهما من بلاد الشرق، مستجيباً لأحداثها، ناعياً عليها تأخرها، متمنياً أن يرى الشرق وقد نفض عنه رداء التأخر، مهيبا به أن يعمل على استرداد عظمته ومجده[4]:

يـالـيـتـني لم أعـاجَـل	بـالمـوتِ قَـبـلَ الأوانِ
حتى أرى الشـرقَ يَسمـو	رغـمَ اعـتـداء الـزمـان
ويـسـتـرد جـلالاً	لـه ورفـعـةَ شـأن

ولذلك كان طبيعيا أن تستجيب نفس حافظ استجابة صادقةً لأحداث اليابان، وأن يخصّ حربَها مع روسيا - الدولة الاوربية والامبراطورية التوسيعة - بأكثر من قصيدة وهو في أوج شهرته ومكانته الأدبية.

ومما قاله حافظ في ذلك قصيدة، عنوانها «الحرب»، يصف فيها الحرب الروسية - اليابانية وأهوالَها، ومطلعها:

أساحـة للحَـربِ أم محشـرُ	ومـوردُ المـوتِ أم الكـوثـرُ؟

وقد نشرت هذه القصيدة في «المقتطف» في ١٩٠٤، بينما كانت الحرب لاتزال على أشدّها، ونتيجتها مجهولة، وان كان يُستدل من بعض أبياتها ان حافظاً كان أميل الى الظن بأن روسيا هي التي ستخرج منتصرة في النهاية، وفيها يقول:

---

(٤) روفائيل مسيحة «حافظ ابراهيم - الشاعر السياسي»، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٤٧، ص ٧٠

أمسى «كروباتكين» في غمرة وبات «اويامـا» لـه ينـظرْ
وظلت الـروس عـلى جمـرة والمجد يدعوهم: ألا فاصبروا

ومن غرائب الصدف أن يصدر عدد «المقتطف» الذي نشرت فيه هذه القصيدة قبل سقوط «بورت آرثر» بيوم واحد[5]:

ان حافظ ابراهيم وان كان يشجب فكرة الحرب، فانه رأى في وقوف اليابان في وجه روسيا، ودفاعها عن حقوقها وكرامتها الـوطنية بشجـاعة، مفخـرةً للشرق، واعلاء لمكانة الامم الشرقية في العالم، فيقول:

تسوؤنا الحـرب وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى عـلى الشـرق حـين اذا مـاذكـر الأحيـاء لايـذكـر
حتى أعـاد الصُفـر أيـامَـه فـانتصف الأسـود والأحمـر

والاشارة الى «الصُفر» واضحة تدل على الجنس الياباني الأصفر الذي انتصف للشعوب المضطهدة، مهما كان لونها، وسواء أكانت من شعـوب افريقيـا أم هنود اميركا.

على أن أشهر قصائد حافظ ابراهيم في الحرب الروسية ـ اليابانية هي قصيدته «فتاة اليابان»، ومطلعها:

لاتَلُم كفي إذا السيف نـبـا صـح مني العزم والـدهر أبىٰ

ويشيد حافظ في هذه القصيدة بوطنية المرأة اليابانية خلال الحرب، ويقول فيها مادحا امبراطور اليابان «الميكادو» ووطنيته على لسان فتاة يابانية:

هكـذا الميكـاد قـد علمنـا أن نـرى الاوطـان أمّا وأبا
مـلك يـكـفـيـه مـنـه أنـه أنهض الشـرق، فهز المغـربا

وقد نالت هذه القصيدة شهرة واسعة في البلاد العربية، وأصبحت من محفوظات طلاب المدارس، لِما تبعثه في نفوس الناشئة من روح وطنية عالية، بالاضافـة الى قيمتها الأدبية، ومايتجلى فيها من أسلوب حافظ السلس، وديباجته الناصعة.

وفي شعر حافظ إشارات متفرقة أخرى الى اليابان ونضهتها كمثال يجب أن تحذو

---

(٥) نشرت القصيدة في العدد الصادر في أول كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٤ (الجزء ١٢، المجلد ٢٩، ص ١٠٦٨)، وسقطت «بورت آرثر» في الثامن منه.

الأمم الشرقية حذوه في الاتحاد ومحاربة الجهل، منها قوله يخاطب أمته في قصيدة عنوانها «الانقسام آفة الشعب»:

فانفضوا النوم وجدّوا للعلى　　فالعلى وقف على من لم ينم
وانظروا اليابان في الشرق وقد　　ركّزت اعلامها فوق الأمم
حاربوا الجهل وكانوا قبلنا　　في دجى عميائه، حتى انهزم

ومما يدل على قوة النعرة الشرقية التي أملت هذا الموقف على شعراء مصر في وقوفهم الى جانب اليابان، هو أنّ اليابان في فترة حربها مع روسيا كانت حليفةً لبريطانيا، وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية غير المباشرة لبريطانيا، وتقويّة لموقفها الدولي. وكان حافظ وزملاؤه ـ كمصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب ـ من محاربي النفوذ البريطاني في مصر. ولكن ذلك لم يمنعهم من إظهار عواطفهم الشرقية، وابداء عطفهم على اليابان، بل وتحمسهم لها، برغم الصداقة التي تربطها بمحتلّي بلادهم. فقد تغلبت تلك العواطف على شعورهم الاقليمي، لأنهم وجدوا أن نهضة أمم الشرق وتقويتها كفيلتان بتخليصها من الاستعمار الأجنبي.

اما الاعتبار الثاني في تحديد مواقف الادباء العرب من الجانبين المتحاربين، فهو موقفهم من «الدولة العثمانية» وعلاقتهم بها وشعورهم نحوها. فقد كان العراق وسوريا ولبنان في أيام تلك الحرب جزءاً من الدولة العثمانية. اما مصر، فكانت تربطها بها رابطة اسمية واهية. وكان النضال الوطني في مصر متجهاً الى مقاومة الاحتلال البريطاني، ولذلك كان شعراؤها يعطفون على الدولة العثمانية بدافع الشعور الديني، وبوصفها عاصمة الخلافة الاسلامية. وكانت اليابان تحارب روسيا، وهي عدوة تركيا التاريخية، ولذلك كان للشعور الاسلامي أثره في موقف الشعراء المصريين وعطفهم على اليابان.

اما في العراق والشام، فأن النضال الوطني كان يتمثل في استقلال هذه البلاد عن السلطة العثمانية، ومع ذلك فان الشعراء ـ حتى الناقمين منهم على تلك السلطة ـ لم يؤيّدوا روسيا ـ عدوة تركيا ـ وانما غلب عليهم شعورهم الشرقي، فانحازوا الى اليابان أيضا، كما فعل الرصافي في قصيدته «معركة تسوشيما» التي أغرق فيها الأسطول الياباني، بقيادة طوغو، الأسطول الروسي القادم من بحر البلطيق، إذ قال:

سعّروها في البحر حربا ضروسا　　تاكل المالَ نارُها والنفوسا
يوم طوغو دهى بأسطوله الـ　　روسَ قتالا، وكان يوما عبوسا

تحدّاها بـوارجاً تملأ البحر وقـ ـاراً طـوراً، وطـوراً بـوسـا
ألبسـوهم من الهـوان لبـوساً وسقـوهم من المنـون كؤوسـا
هكـذا شيّـدوا بنـاء المعـالي هكـذا أحسنـوا لها التـأسيسـا

ونلمس مثل هذا الاتجاه في شاعر آخر من خصوم الدولة العثمانية، وهو فؤاد الخطيب، اللبناني الأصل، الذي التحق فيما بعد بالملك حسين في ثورته على الدولة العثمانية، ومدحه بقصائد كثيرة، وترأسَ تحرير جريدة «القبلة» التي كانت تصدر في مكة، ناطقةً بلسانه خلال الثورة، وبعدها. ففي الجزء الاول من ديوانه قصيدة عنوانها «العجوز اليابانية» يعارض فيها قصيدة صديقه حافظ «فتاة اليابان»، ويشيد ايضا بوطنية الأم اليابانية. وفيها يروي حادثة وقعت لأرملة يابانية عجوز، دفعت بأبنها الى الجيش أيام الحرب الروسية اليابانية، ولكن السلطات رفضته لأنـه كان معيلَها الوحيد، فما كان منها إلاّ أن قتلت نفسها لكي يسوغ تجنيده. وفيها يقول على لسان العجوز اليابانية:

لاتقـولـوا بلغ السيـل الـزُبىٰ نحن مزقنا العدى ايدي سبا
بـعثتنـا غـيـرة شـرقـيـة كـاد منهـا الغـرب أن يلتهبـا
مـادت الدنيـا لها من دهشـة واضـطراباً رقصت، لاطـربا
أدّبتنـا الحرب فيـها قد مضى بخـطوب حار فيهـا الخـطبـا

وفيها يقول ايضا:

نـحن سـيـف قـاطـع لـكـنـه مُغمَـد يحسبـه الأعـمى نـبـا
إن نكن صُفـراً فماذا ضـرنـا هل يعيب الأصفرارُ الـذهبا؟[٦]

وللشاعر اللبناني أمين ناصر الدين في الحرب الروسية ـ اليابانية قصيدة، عنوانها «الياباني ومعشوقته»، تشيد بشجاعة اليابانيين ووطنيتهم وانتصارهم الباهر، ومنها قوله على لسان المحارب الياباني في إسقاط «بورت آرثر»:

هجمنا على ميناء آرثور هجمـة تردّ ابنَ عام وهو بالخوف اشيب

---

(٦) ديوان الخطيب، القاهرة (دار المعارف)، ١٩٥٩، ص ٧٣.

ببيض يلوح النصر ايان جُرّدت   وسمر لها بـين القلوب تقلب
وكنـا إذا انهلّ الرصـاصُ كأننـا   من الغيد بالتفاح نُرمى فنـطرب
وَعُدنا وهاتيك القـلاع بأسـرها   مهـدمة قـد حـل منهـا المـركب
وقـائعنا في البَـرِّ كـانت عجيبـةً   ولكنهـا في لجُـة البحــر أعجب

وهنا يصف معركة «تسوشيما» وانتصار «طوغو»، ويشير الى ماسـادَ الشرق من سرور بانتصار اليابان، وما أصاب الغرب من خيبة وأسى:

ورجّعت الاقطارُ صوتَ انتصارنا   ففي الشـرق هَزّاج وفي الغـرب ندب[٧]

ومن الطريف، ان من ابرز السوريين الذين اهتموا بموضوع هذه الحرب، هو السياسي السوري المعروف المرحوم فارس الخوري، الذي كـان في طليعة زعـماء الحركة القومية العربية منذ فجر شبابه. فقد كان الى جانب نشاطه السياسي ونضاله الوطني، يُعنى بالأدب وينظم الشعر، ولـذلك انتُخب عضـواً في المجمع العلمي العربي في دمشق منذ تأسيسه. وقد أوحت اليه أحداث الحرب الروسية ـ اليابانية باربع قصائد طويلة نشرت في صحف دمشق، ثم جُمعت في كتاب نشر في مصر في ١٩٠٦ بعنوان «وقائع الحرب».

تصف القصيـدة الأولى اعلان الحـرب، والمعركـةَ البريـة الأولى بين الـروس واليابان، وغيرها من الوقائع حتى «موكدن»، ومنها قوله في غرق الاميرال «مكاروف» وأثره في معنويات الروس:

على مكروف قـد بكت البواكي   واطلقت المـدامـع والشعـورا
بمصرعه عـزوم الروس خـارت   وحق لهـا بـذلـك أن تخـورا
رجـاء القــوم معقــود عليــه   ليـدفـع عنهم الخطب العسيـرا
فكـان بهـديـه قمـراً مضيئـاً   وكـان بكـره أسـداً مـزيـرا

ا القصيدة الثانية، فهي في وصف معركة «موكدن» وفيها يقول:

ودارت للمنــون رحىً طحـون   لها الاجساد قـد صارت طحينا
وطبق كـلّ نـاحيــة دخــان   كثيف، أسود، يعمي العيونـا
فـليس بمبصـر أحـد أخـاه   ولاهـو سـامـع منـه الانينـا

---

(٧) صدى الخاطر، ١٩١٣، ص ٣٤.

وتتناول القصيدة الثالثة وصف وقائع أسطول البلطيق الذي أُغرق في مضيق «تسوشيما»، ثم عقدَ الصلحِ، منها وصفه الأميرال الياباني طوغو:

حَولٌ تمرس بالصعاب محنك بطل شديد في الحروب مجرِّب
بمضيق سوشيما تخير مجثما حتى إذا أزف القضا يتوثب
كالليث يأتيه القضاء برزقه وهو المقيم بأرضه يترقب

اما القصيدة الرابعة، فهي في مولد ولي عهد روسيا الذي ابتهل له القيصر «نيقولا الثاني» ابتهالاً عظيما، وان لم يقدر له اعتلاء العرش، بسبب انهيار النظام القيصري. وكان «نيقولا الثاني» متزوجاً من اميرة المانية ولدت له ثلاث بنات متتاليات، حتى أصابه اليأس والألم، وحسب أنه لن يرزق وريثاً ذكراً لعرشه، فلما وضعت مولودها الرابع، كان ذكراً - وقد جاءت ولادته خلال الحرب الروسية اليابانية - فابتهل القيصر لذلك ابتهالاً، وأمر باقامة معالم الزينة واطلاق المدافع ابتهاجاً بولادة ولي العهد، غير عابىء بأهوال الحرب التي تجتازها البلاد، ولا بدموع الشعب على أبنائهم الذين تحصدهم الحرب. وقال فارس الخوري مخاطباً المولود الجديد:

يا أيها الطفل الموسّد هل ترى كيف استفزّ أباكَ هذا المولدُ
لما ظهرت انجاب أفق داكن بحياته، وابيضّ يوم أسود
قد جئته والحرب فاغرة فماً تجتاح مضرب جنده وتبدّد
أجمدتَ عبرتَهُ على قتلى الوغى ولفاقديهم عبرة لاتجمد
بردّت حسرته فانبرت صعقاتها باذاعة البشرى تعجّ وترقد
هل ذكّرته أن في منشوريا نارُ المدافعِ للكتائبِ تحصد

إن هذه القصيدة الاخيرة هي أبعد اخواتها مغزى، وأحفلها بالمعاني الانسانية، وهي تدل على مدى تحسس فارس الخوري لأهوال الحرب ومآسيها، وتحمل معنى اللوم للقيصر على مبالغته في إظهار السرور والابتهاج في مناسبة شخصية، في وقت يعاني فيه شعبه من نكبات الحرب التي يتساقط فيها مئات القتلى من أبنائه يوميا.

ولاشك أن اهتمام شاعر وطني، وسياسي قومي كفارس الخوري بأحداث هذه الحرب، يدل على الصدى القومي الذي أحدثته في البلاد العربية، كما أنه يدل على أن تلك الحرب وعِبرها، والوطنية التي أظهرها اليابانيون الشرقيون فيها، قد زودت العرب بحقائق وتجارب وأمثلة في الوطنية، وجدوا أنهم يستطيعون الافادة منها في

نضالهم لتحرير بلادهم، وفي الثورة التي كانوا يستعدون لها.

«ولو أردنا تعداد القصائد والمقالات التي أثارتها هذه الحرب أو ذكرياتها» كما يقول أنيس المقدسي «لضاقت بنا الصفحات الكثيرة. وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الأمثلة عليها، إلاّ إثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الأيام، أو تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار، وهي أن النهضة اليابانية التي بلغت أوجها في حرب ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق، فظهر ذلك في أدبهم المنظوم والمنثور، وكان من الاسباب الممهدة لذلك الاتقاد الوطني الذي عقب إعلان الدستور العثماني، فعزّز الروح الشرقية في جميع الأقطار العربية»[٨].

وهنالك اتجاه آخر في موقف بعض الأدباء العرب من الحرب الروسية ـ اليابانية ظهر بصورة خاصة بين أدباء لبنان والمهجر، واتّسم بالعطف على روسيا، والتحمس لها في نزاعها مع اليابان، والخيبة والأسف لاندحارها.

ومن المعروف أن «بلاد الشام» في العهد العثماني كانت تحت النفوذ الفرنسي من ناحية الثقافية، وان فرنسا لم تخفِ ادعاءها بما كانت تسميه حقوقها في سوريا، فكانت تمد الارساليات الدينية بالمال، وتعمل على إعطاء الناشئة نوعاً من التعليم هو جيد في حد ذاته، ولكنه يستهدف صب أفكار النشىء في قالب فرنسي، وتوجيه أذهانهم وولائهم الفكري نحو فرنسا. ولكن روسيا كانت ترمي الى الغاية نفسها، وتنافس فرنسا في ذلك منافسة شديدة[٩]. وربما كان لبنان وفلسطين في ذلك العهد اوثق البلاد العربية صلة بروسيا بسبب انتماء نسبة كبيرة من المسيحيين فيهما الى الكنيسة الارثوذكسية. وكانت روسيا القيصرية تعدّ نفسها حامية للارثوذكس ـ بصفتها أكبر دولة ارثوذكسية ـ وقد أظهرت حمايتَها هذه بوسائل عديدة منها الارساليات الدينية، والمدارس التابعة لها، ومنها تشجيع التجارة. وكانت تهتم بوجه خاص بالقدس، وبالأراضي المقدسة في فلسطين، وقد أسست لهذه الغاية «جمعية فلسطين الروسية الامبراطورية» برعاية القيصر، وكان رئيسها العامل «الغراندوق سرجيوس» عم القيصر، ففتحت هذه الجمعية كثيراً من المدارس في فلسطين ثم في سوريا ولبنان[١٠]، كما أسست مدرسة لتخريج المعلمين والمعلمات في «الناصرة» وفي

---

(٨) أنيس الخوري المقدسي، «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث»، بيروت (منشورات الجامعة الأمريكية)، ١٩٥٢، ص ٣٠.

(٩) Antonius, George, *The Arab Awakening, London, 1938. p. 153*

(١٠) أسعد خليل داغر «المدارس الروسية في سورية»، (المقتطف)، المجلد ٢٦، الجزء ١٠، القاهرة، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠١ ص ٩٠٢.

«بيت جالا» لسد حاجة مدارسها منهم، لأن التدريس فيها كان باللغة العربية، مما لايمكن معه استقدام المعلمين لها من روسيا. وقد بزّت روسيا منافساتها، بأن مدارسها كانت مجانية، وبأنها كانت تُنسّق برامجها على أحدث الأساليب التربوية[١١].

وكان من الطبيعي أن تبعث المدارس الروسية في نفوس طلابها شعوراً خاصاً نحو روسيا، قوامه المحبة والاعجاب. ويصف ميخائيل نعيمة الذي تعلم في إحدى مدارس الارساليات الروسية في لبنان وفلسطين هذا الشعور في مذكراته قائلا: «لقد أخذتنا نشوة من الاعتزاز بمدرستنا الجديدة، إذ كنا نشعر أن من ورائها دولة عظيمة تهابها الدول. وهاهي صورة القيصر نقولا الثاني وصورة القيصرة آلكسندرا في إطارين مذهبين تزينان صدر البهو الكبير»[١٢].

وكان الروم الارثوذكس يحبون الروس حباً يقرب من العبادة[١٣]، وينظرون الى روسيا كحامية لهم، وكضمان تجاه الدولة العثمانية التي يؤلفون فيها أقلية دينية لا تتمتع بحقوق كاملة[١٤]. ويصف ميخائيل نعيمة مشاعرهم نحو روسيا أو «بلاد المسكوب»، كما كانوا يسمونها، فيقول: «... وكل ماعرفناه أن (المسكوب) قوم أشداء وكرماء، يحكمهم قيصر، تهتز لكلمته جميع ملوك الارض، وأنهم يقطنون بلاداً شاسعةً وباردةً في الشمال، وأنهم (روم) مثلنا. ولذلك يعطفون علينا، ويحرصون على الدفاع عنا وعن (ديننا) الذي هو الدين الصحيح...»[١٥].

ولما نشبت الحرب الروسية ـ اليابانية، كان ميخائيل نعيمة قد انتقل الى مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة، وهو يتحدث عن موقف طلابها من روسيا خلال تلك الحرب، ومدى اهتمامهم باخبارها قائلا: «نشبت الحرب الروسية ـ اليابانية ابان دراستي في الناصرة. واني لأذكر بأي لهفة كنا نتسقط أخبارها على قلة الوسائل في ذلك الزمان لنقل الاخبار. فالراديو كان لايزال في ضمير الغيب. والصحيفة الوحيدة التي كانت تأتينا بعد أسبوع أو أكثر من صدورها في بيروت البعيدة. والصحف بالروسية كانت تصلنا بعد شهرين من تاريخ صدورها. وعندما بلغنا خبر الفاجعة التي حلت بالاميرال (مكاروف) ودراعته (بتروفا فلوفسك) في ميناء فلاديفوستوك، كان له وقع الصاعقة في نفوسنا. وكان في الناصرة شيخ أمّي، طاعن في السن، يتعشق روسيا

---

(١١) ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٧١
(١٢) ميخائيل نعيمة، سبعون، بيروت، ١٩٥٩، ج١، ص ٧٦
(١٣) أسعد خليل داغر، المرجع سالف الذكر، ص ٩٠٢
(١٤) ساطع الحصري، المرجع سالف الذكر، ص ١٦١
(١٥) ميخائيل نعيمة، أبعد من موسكو ومن واشنطن، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٤

وذكرها حتى الجنون. وكان في كل يوم يأتي الى المدرسة ليقف من التلاميذ على آخر أنباء الحرب . . . »[١٦].

ولم يكن نظام عبد الحميد الصارم، والرقابة المشددة على الصحف العربية، ليسمحا للكتاب العرب وشعرائهم بالتعبير عن مشاعرهم في صحافة بلادهم. وقد أدت الرقابة المستمرة، وسياسة الارهاب والتجسس الى لجوء كثير من المفكرين والكتاب الى الهجرة.

ولذلك كانت صحف المهجر في بعض الحالات أكثر تعبيراً عن المشاعر والاتجاهات السائدة في البلاد العربية.

وكانت قد تكونت في امريكا الشمالية والجنوبية في ذلك الوقت جالية عربية كبيرة، يؤلف السوريون واللبنانيون أغلبيتها الساحقة، وكان بينهم عدد من الشعراء والكتاب والصحفيين الذين وجدوا في تلك البلاد مجالاً للتعبير عن مشاعرهم ومشاعر ابناء وطنهم بحرية.

اما فيما يتعلق بصدر الحرب الروسية ـ اليابانية، فأننا لانجد في إنتاج ادباء المهجر وشعرائه انعكاسات عرضية، كالتي في شعر حافظ ابراهيم ومعروف الرصافي مثلا، بل تياراً معيّنا سيطر على اتجاه عدد منهم. وأبرزهم في هذا الاتجاه الشاعر «أسعد رستم»[١٧].

وفي ديوان رستم ثماني قصائد عن الحرب الروسية ـ اليابانية[١٨]، تدل جميعا على اهتمام خاص بروسيا وأحداثها، وهو اهتمام غريب، لايمكن تفسيره بسهولة.

---

(١٦) المرجع السابق، ص ٦٨

(١٦) المرجع السابق، ص ٦٨

(١٧) أسعد رستم: من شعراء المهجر، ومن مدينة الشوير بلبنان، ولد في بعلبك سنة ١٨٧٥، وهاجر الى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٢، ونشر في الصحف العربية التي كانت تصدر فيها قصائد جمعها في ديوان عنوانه «ديوان رستم» (طبع في بيروت، المطبعة الأدبية، سنة ١٩٠٨)، ويغلب على شعره الطابع الهزلي الخفيف، وهو ضعيف التركيب، وفيه الكثير من التعابير العامية والزحاف، أقرب الى الشعر الشعبيّ، وان كان مكتوبا باللغة الفصحى. وتقييم شعره يجب ان يكون على هذا الاساس، وبهذا الميزان، ولايجوز أن يقارن من ناحية الفن الشعري بشعراء المهجر الآخرين كايليا أبي ماضي وفوزي المعلوف ومن هو من طبقتهما، على الرغم مما في لغتهما من ضعف وعلى اسلوبهما العربي من مآخذ. وقد لقّبه الشيخ رشيد رضا صاحب «المنار» بشاعر الشعب، ووصفه وديع باحوط بأنه «شاعر السوريين في امريكا وممثل احساسات الأمة» (انظر ايضا رأي الاستاذ عيسى الناعوري في شعر أسعد رستم في كتابه «أدب المهجر»، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٤٤٢).

(١٨) وفيه قصيدة تاسعة تتعلق بروسيا أيضا ولكنها ليست عن الحرب الروسية ـ اليابانية، بل عن حادثة قديمة هي معركة برثوب بين روسيا وتركية في سنة ١٧١٠ وعنوان القصيدة «بطرس الأكبر وزوجته كاترينا والقائد التركي»، ص ٢٦٦.

فأسعد رستم لم يكن ارثوذكسيا - بل ان والده كان شيخ الكنيسة الانجيلية في بعلبك - كما أنه لم يدرس في مدارس الارساليات الروسية، ولاتربطه بروسيا صلة خاصة ولم يسافر اليها قط[١٩]. ومع ذلك، فهو يظهر عطفاً شديداً على روسيا، وانتصاراً قويا لها، ويشيد برعايتها لسوريا، فيقول مثلا:

يسؤنا حزن روسيّا وتفرحنا أفراحها، فهي فخر العالم البشري
وهي التي شملت أنظارها الوطنَ الـ سوريَّ، فليشملنها الله بالنظر

وكذلك يعرب أسعد رستم، في غير موضع، عن أمله بأن تخرج روسيا من حربها مع اليابان ظافرة، وأن تقهر اليابان التي يصفها بصورة تنم عن الاحتقار بالدولة الصفراء، فيقول - مخاطبا الجنرال كروباتكين الروسي:

ألا أرِحْ الدنيا من الدولة الصَفرا وضع بيراع النصر موضعها صِفرا
وحكِّم سيوفاً في رقاب رجالها وغادر أراضيهم لهم بلقعاً قفرا
وعُدْ ياكروباتكين من الشرق ظافراً ومن أمم اليابان خُذ ماتشا أسرى

وفي قصائد رستم أيضاً عطف خاص على القيصر نيقولاي الثاني، وتغنٍ بمحامده، فهو يصوره بصورة الملك الذي يحنو على الشعب، ويتمتع بمحبته، ويشير إشارة صريحة الى أنه لم يكن راغباً في اقحام روسيا في هذه الحرب. واذا تذكرنا أن وزير الداخلية «بليفه» اقترح «حرباً قصيرةً مظفرة» بقصد توحيد صفوف الشعب الروسي وصدّ موجة الثورة ضد النظام القيصري، أمكننا استقصاء الأساس الذي يستند اليه رستم في ذلك، فهو يقول:

واليوم جيش الروس في منشوريا والخصم أمسى واقفاً بازائه
والعسكر الروسيّ عَدَّ محبة الاوطا ن دينا فانبرى لوفائه
والكل فارق اهله وصحابه ليكون يوم الحرب من شهدائه
والقيصر المحبوب تدمع عينه فالحرب لم تكُ قط من ارائه
يبكي على فقد السلام موجِّهاً في حربه لوماً الى وزرائه

وفي قصيدته المعنونة «الى جلالة قيصر روسيا» يهنّىء الشاعر نيقولاي بمولوده، ولكنه لاينسى الاشارة الى قتلى الحرب أيضا - وان كانت الاشارة بلهجة أخف من

---

(١٩) أنظر ترجمة أسعد رستم بقلمه في مقدمة ديوانه، ص ٥ - ٧.

لهجة فارس الخوري ـ فيقول، إن الله منّ عليه بمولود ذكر ليعرف قدر الذكور، ويشعر بشعور الآباء الذين تحصد الحرب أبناءهم، فيقول:

مابين طعن القنا والصارم الذكر ... عليكُم أنعم الرحمن بالذكر
قد استجاب الدعا والحرب دائرة ... وفي استجابته معنى لمفتكر
أراد ان تعرفوا قدر الذكور وكم ... يجود آباؤهم بالدمع والسهر

وفي قصيدة اخرى عنوانها «بورت آرثر اثناء حرب الروس واليابان»، يصف حصار حصن «بورت آرثر»، واستبسال القوات الروسية بقيادة الجنرال «ستوسل» في الدفاع عنها ومطلعها:

في برت آرثر تخفق الرايات ... وتشن فيها للردى غارات

وفيها يقول:

وهناك في إحدى الحصون «ستوسل» ... كالليث منه تُرعد الزفرات
سألوه تسليما لهم فأجابهم ... أنيّ، وفي أجسادنا نسمات ؟

ولم يكتم أسعد رستم خيبته الكبرى لاندحار روسيا وهزائمها، ويقول باسلوب من فكاهة مريرة، لعل الله ضجر من كثرة سماعه دعاءه للروس بالنصر، فأراد معاقبته بدحرهم:

وشربنا اسرارنا وسألنا الـ ... ـله نصراً للروس في الهيجاء
إنما كلما طلبنا لروسيـ ... ـا انتصاراً تقهقرت للوراء
قد دعونا للروس بالفوز حتى ... ضجر الله من سماع الدعاء
وانتقاماً مِنّا أبى الله ان ينـ ... ـصرهم في الوغى على الاعداء

وثمة شاعر مهجري آخر في اميركا الشمالية، اشار اليه كراتشكوفسكي، وهو سليمان داود سلامة اللبناني، وقد نشر في جريدة «الهدى» التي كانت تصدر في نيويورك قصائد عديدة عن الحرب الروسية ـ اليابانية، ثم جمعها في ديوانه الذي نشر في ١٩٠٥، وبينها قصائد تنم عناوينها عن مضامينها: «روسيا واليابان» و «الحرب الروسية ـ اليابانية» و «بورت آرثر» الخ. . . [٢٠]

---

(٢٠) لم يتسنّ لنا الاطلاع على هذا الديوان، وقد أشار اليه الأستاذ كراتشكوفسكي، المرجع سالف الذكر، ص ٩ .

اما شعراء المهجر في اميركا الجنوبية، فكان اكثرهم اهتماما بهذه الحرب «قيصر ابراهيم المعلوف»[٢١]. وفي ديوانه قصائد عناوينها «مؤتمر لاهاي» و «بورت آرثر» وما اشبه.

ولم يقتصر صدى الحرب الروسية في الادب العربي على الشعر وحده، ولكن ذلك الصدى في الشعر كان أقوى منه في النثر. وربما كان سبب ذلك ان الأشكال الفنية التي تصلح لتصوير مثل ذلك الحدث تصويرًا فنياً، كالقصة والرواية والمسرحية لم تكن قد تبلورت في الادب العربي في تلك الفترة، فلم تظهر سوى محاولات محدودة في عددها، تافهة في قيمتها الادبية، أهمها رواية وضعها «يعقوب صرّوف»، صاحب المقتطف، عنوانها «فتاة مصر» نشرت في المقتطف، ثم أُعيد طبعها أربع مرات، آخرها في ١٩٢٣.

والرواية عن فتى انكليزي واخته أُوفدا الى اليابان قبيل حربها مع روسيا، مراسلين لجريدة انكليزية يصدرها أبوهما. ويتوقف الفتى واخته في مصر. وفي طريقهما الى اليابان، يتعقبهما جاسوس ياباني تُلقي الشرطة اليابانية القبض عليه فيما بعد. وعند عودتهما تغرق سفينتهما قرب إحدى الجزر، ولكنهما ينجوان باعجوبة، ويعودان الى مصر ثانية. وتجري معظم حوادث هذه الرواية في مصر، وبعضها في انكلترا واليابان ـ خلال الحرب ـ وأقل من ذلك في روسيا[٢٢].

ومما كُتب بوحي من تلك الحرب ايضا مسرحية وضعها وهبي تادرس بعنوان «بطرس والكسي». وقد نشرت هذه المسرحية في القاهرة في ١٩٠٥، ومثلت على بعض المسارح المدرسية، ولكنها لم تكن مستوفية الشروط الفنية، بل كانت من قبيل المسرحيات التي يكتبها المدرسون، بأسلوب خطابي، ليمثلها طلابهم في الحفلات المدرسية.

وهناك رواية أخرى نشرت في المهجر بعنوان «بورت آرثر» من تأليف أسعد منصور صدرت عن دار «مرآة الغرب» في ١٩٠٦، والشخصية الرئيسية في هذه الرواية ضابط روسي اسمه «ايفان» وهو كولونيل في القوة البحرية. يقابل «ايفان» خطيبته في موسكو، ثم يرسل الى «بورت آرثر». وتتناول الرواية بعد ذلك عرضا مفصلا

---

(٢١) قيصر ابراهيم المعلوف: من شعراء المهجر في البرازيل، ولد في زحلة وهاجر الى البرازيل في سن مبكرة، ثم عاد في أخريات أيامه الى لبنان. له شعر جيد جمعه في ديوانه «تذكار المهاجر» (طبع في سان باولو، مطبعة المناظر، سنة ١٩٠٤)، وقصيدته «عليا وعصام» نالت شهرة خاصة في العراق، وأخرجت قصتها في فلم سينمائي.

(٢٢) أنظر نقدا تحليليا لهذه الرواية في (المقتطف) المجلد ٣١ الجزء السابع، تموز (يوليو) ١٩٠٦، ص ٥٤٥.

لأحداث «بورت آرثر»، وتنتهي بوصف مختصر لعودة بطل الرواية الى موسكو بطريق «اوديسا».

وفي الرواية مشاعر وطنية تشابه بعض المشاعر الساذجة التي تظهر في شعر المهجر. ويتضمن الكتاب تصويراً لعدد من الشخصيات العسكرية الروسية واليابانية.

اما في ميدان الصحافة، فقد كان اهتمام الصحف العربية بأحداث هذه الحرب طبيعيا، لأنها كانت أهم أحداث الساعة في العالم. وكانت الصحف اليومية والمجلات الدورية الصادرة ابان الحرب طافحة باخبارها. وفي أعداد «الهلال» و «المقتطف» الصادرة في تلك الفترة مقالات كثيرة عن روسيا واليابان، والحرب الدائرة بينهما، تتضمن تحليلاً لأسبابها، ووصفاً لمعاركها، وتنبؤات عن مستقبلها. ولكن هذه المقالات، بالرغم من مستواها الجيد في بعض الحالات، لاتُعدّ نثراً فنياً، ولا أدباً سياسياً، ولاتخرج عن حيّز الكتابات السياسية التي تفقد قيمتها بزوال المناسبة التي كتبت فيها. اما اتجاه تلك المقالات، ونظرتها الى الحرب، فكان متشابها، إذ أنها كانت متفقة جميعاً، في بداية الحرب، على أن النصر سيكون لروسيا. فكتبت «الهلال» مثلاً في عددها الصادر في شهر مارس ١٩٠٤، تقول: «.. والحرب الحاضرة اما أن يفوز بها الروس قريباً فتمهد لهم السيطرة على الصين، أو أن يفوز بها اليابانيون، فيكون ذلك التمهيد لهم. ولكن العارفين لايقدرون الفوز الا مؤقتا، ولابد أخيراً من فوز الروس»[٢٣].

كما ان تلك الصحف كانت تنظر الى الحرب الروسية ـ اليابانية على أنها صراع بين الشرق والغرب، وترى في اليابان رمزًا للشرق، وفي انتصارها انتصاراً للشرق على ـرب. كما أنها كانت تأمل في أن يؤدي انتصار اليابان ـ في حالة تحققه ـ الى أن «يستريح أهالي الشرق الأقصى من غطرسة الغربيين نوعا، ويحسّن الاوربيون معاملتهم ومجاملتهم بما لم يسبق لهم مثله الى هذا التاريخ»[٢٢].

ـشرت «المقتطف» خلال الشهور الأولى من الحرب مقالاً افتتاحياً، في ثماني ـفحات بعنوان «الحرب بين الروس واليابان» جاء فيه: «ان للحرب الحاضرة اكبر ـان في مصالح البشر، وعليها سيكون مدار المناظرة القديمة بين الشرق والغرب. فان فازت روسيا، ومحقت دولة اليابان، بقي الفوز للغرب على الشرق قرونا كثيرة.

---

(٢٣) مجلة (الهلال)، السنة ١٢، الجزء ١١، مارت ١٩٠٤، ص ٣٤٩.

(٢٢) من مقالة بتوقيع (م. ع. ج) «الحرب الحاضرة ونتائجها»، (المقتطف) مجلد ٣٠، ج١، كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥.

وان فازت اليابان، ولم تعارضها في إنهاض بلاد الصين، فلا يستبعد ان يعود الفوز للشرق في بلاد المشرق في القريب العاجل»[٢٣].

والخلاصة أن الحرب الروسية ـ اليابانية كان لها صدىً كبير في الادب العربي الحديث الذي أنتج خلالها. وقد استمر هذا الصدى يتردد حوالي عشرين سنة بعد أن وضعت أوزارها. ويعود السبب الى أن تلك الحرب كانت أهم الأحداث الدولية في ذلك الوقت، ولم يكن العالم قد شهد حرباً في نطاقها الواسع منذ مدة طويلة. كما أنها كانت أول حرب تقف فيها دولة شرقية في وجه إحدى الدول الاوربية الكبرى، ثم تخرج منها منتصرة. مما أثار مشاعر الاعتزاز والفخر بين الشعوب الشرقية. وقد حركت نهضةُ اليابان عواطفَ الوطنيين في البلاد العربية، وعَرَتهم منها هزة وطنية، فأخذوا يدعون الى اتخاذ اليابان قدوةً في نهضة بلادهم وأمتهم. وكانت مشاعر أكثرية الأدباء تميل الى اليابان بدافع النعرة الشرقية، وان ظهر بينهم من أبدى العطف على روسيا، وتمنى انتصارها، بسبب الرابطة الدينية.

ان الادب الذي كتب بوحي من هذه الحرب ـ وخاصة في مجال الشعر ـ قد أغنى الأدب العربي، وأضاف الى الشعر العربي المعاصر لوناً انقطع عنه الشعراء العرب منذ مدة طويلة، وهو وصف المعارك والحروب، ولم تظهر العناية بهذا اللون مرة اخرى الاّ بعد نشوب الحرب العالمية الاولى.

---

(٢٣) مجلة (المقتطف)، المجلد ٢٩، ج٣، مارت ١٩٠٤، ص ١٩٣

الأدب العربي الحديث

في الاستشراق الروسي

يمتاز المستشرقون في الاتحاد السوفيتي عن غيرهم من المستشرقين في اوربا وأمريكا بالعناية التي يوجهونها الى دراسة الادب العربي الحديث وأعلامه . وبينما نجد الدراسات الشرقية في البلدان الاوربية والامريكية متجهةً الى الأدب القديم وحده ، مركزةً اهتمامها على الكتب والمخطوطات القديمة ، غير مهتمة بالادب العربي الحديث ودراسته ، فاننا نرى بين أبحاث المستشرقين الروس دراسات كثيرة العدد بالغة الأهمية ، تعني بشؤون العصر الحديث ، وأدباء العرب المعاصرين وانتاجهم .

وأذكر أني عندما انتميت الى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن سنة ١٩٤٦ ، واخترت «شعر المهجر» موضوعاً لرسالتي ، وافق مجلس الجامعة على الموضوع ، ولكن الكلية حارت في اختيار الأستاذ الذي تعهد اليه بالاشراف على الرسالة بين العديد من المستشرقين الذين يدرّسون فيها ، ولم يَرَ رئيس قسم الدراسات العربية ، المستشرق المعروف الاستاذ آربري ، بُدّاً من الاشراف عليها بنفسه ، بعد ان اعتذر عن ذلك سائر أساتذة الكلية لعدم المامهم بالأدب العربي الحديث . ولم ينكر الاستاذ آربري نفسه ـ وكان أكثرَهم تتبعاً للأدب الحديث واتصالاً بالحركات الأدبية المعاصرة في البلاد العربية ـ أن الموضوع جديد عليه ايضاً . فقد كان المستشرقون في ذلك العهد ـ وهو ليس بعيداً جداً ـ أشبه بأهل الكهف منقطعين للماضي يعيشون بين ركامه وآثاره ، ولا يمتّون الى حاضر الموضوعات التي تخصصوا فيها بسبب ، ولم يكن هذا الحاضر ليثير شيئاً من اهتمامهم ، ولم يظهر بين المستشرقين البريطانيين غير الأستاذ جب ـ الذي كان أوانذاك أستاذاً في جامعة اوكسفورد ـ من اهتم بدراسة الأدب العربي الحديث ، فقد نشر هذا المستشرق في سنة ١٩٢٨ ، سلسلة مقالات في مجلة «مدرسة اللغات الشرقية» ـ كما كانت تسمى في السابق ـ بعنوان «دراسات في الأدب العربي

المعاصر»[1] اشار في فاتحتها الى قلة اهتمام المستشرقين الاوربيين بدراسة هذا الادب ، وانصرافهم جميعاً عن حاضر الشعوب الاسلامية الى ماضيها ، وقال إن هذه الحقيقة - مهما كانت أسبابها - تبعث على الاسف .

ومن الطريف أن الاستاذ جب ، في مقالاته هذه ، اعترف بامتنان أن المستشرق الروسي الاستاذ كراتشكوفسكي هو الذي شجعه شخصياً على المضي في هذه الدراسات .

وفي ذلك التاريخ الذي حارت فيه أكبر وأقدم مدرسة بريطانية للدراسات الشرقية في ايجاد أستاذ يشرف على رسالة في الادب العربي الحديث ، كان المستشرقون الروس قد قطعوا أشواطاً بعيدةً في دراساتهم عن هذا الادب ، تياراته وأعلامه وسماته المميزة ونواحي ضعفه وقوته .

ولا شك أن من العوامل الرئيسية في اهتمام المستشرقين الروس بالدراسات الأدبية المعاصرة هو الاهتمام الذي أبدته الحكومة السوفيتية بالشؤون الشرقية في أعقاب ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ ، حيث وجه مجلس قوميساري الشعب (مجلس الوزراء) للحكومة البلشفية نداءه المشهور الى «مسلمي روسيا والشرق» بعد نجاح الثورة بشهر واحد . وقد تبلور هذا الاهتمام وظهر بشكل جدي بعد سنة ١٩٢٠ عندما استقر النظام السوفيتي ، وأخذت الحكومة الجديدة في روسيا تتطلع الى العالم الخارجي ، وتشرع في تخطيط علاقاتها بالدول والشعوب الأخرى ، فشعرت بالحاجة الى الدراسات العلمية للشؤون الشرقية التي كانت مهملة حتى ذلك التاريخ . كما أن الدبلوماسيين الجدد الذين قررت الحكومة السوفيتية في بداية عهدها إرسالَهم الى العواصم الآسيوية أخذوا يبحثون عن كتب ومراجع تتضمن معلومات عن أحوال تلك البلاد فلم يجدوا شيئاً منها ، مما أظهر مدى الاهمال الذي لقيته الشؤون الشرقية حتى ذلك الوقت ، وأكد الحاجة الماسة اليها .

وفي أيلول سنة ١٩٢٠ قرر «الكومنترن»[2] عقد مؤتمر للشعوب الشرقية في مدينة (باكو) - عاصمة أذربيجان - ، سمي رسمياً «المؤتمر الأول لشعوب الشرق» وكان أوسع اجتماع عقد حتى ذلك التاريخ ، اذ حضره (١٨٩١) عضواً بينهم ممثلون عن

---

(١) H.A.R. Gibb, Studies in Contempirary Arabic Literature; *Bulletin of the School of Oriental Studies*, *Vol.* IV, part IV, London, 1928, PP. 745 - 760.

(٢) «الكومنترن» هو التسمية المختصرة للاتحاد العالمي للاحزاب الشيوعية الذي أسسه لينين سنة ١٩١٩ ، وعُرف ايضا باسم «الاممية الثالثة» . وكان زينوفييف اول سكرتير عام له ، ثم خلفه تروتسكي ثم رادك ثم بوخارين ، وتقرر حله سنة ١٩٤٣ .

تركيا وايران والصين، وكذلك ممثلون من الأرمن والجورجيين وغيرهم من شعوب القفقاس وآسيا الوسطى، كما حضر المؤتمر ثلاثة من الأعضاء العرب[٣]. وكان زعماء المناطق الاسلامية في الاتحاد السوفيتي حتى ذلك الوقت يشكون من أن المسؤولين في موسكو يقصرون اهتمامهم على الغرب ويتجاهلون الشرق. وأثار «ناربوتابيكوف» - وهو محام من تركستان - هذه الشكوى في المؤتمر، مذكّراً زعماء موسكو بأنه ليس للاتحاد السوفيتي حليف أفضل من الشرق، كما أيد هذا الاتجاه الزعماء الروس أنفسهم، وحث زينوفييف - رئيس المؤتمر - وزملاؤه المسلمينَ على جهاد مقدس ضد الغرب والاستعمار الغربي، والاستعمار البريطاني بصورة خاصة، قائلين: «إن الشرق إذا بدأ يتحرك فلن تبقى من اوربا الا رقعة صغيرة على الخارطة» وناشد «رادك» نزعة الآسيويين في النضال ضد الغرب تلك النزعة التي ألهمت أسلافكم، وزعماءكم العظام، في زحفهم لفتح اوربا[٤].

وهكذا بدأت الشؤون الشرقية تلقي اهتماماً متزايداً، فأسست في الكومنترن «دائرة شرقية»، كما أقيمت مراكز مماثلة للدراسات الشرقية في لينينغراد وغيرها من المدن الكبرى. وانشأ الجيش الأحمر «قسماً شرقياً» يتخصص فيه الضباط بأحوال البلاد الشرقية. وكانت المنظمة العليا التي تعني بالدراسات الشرقية والتي انضوت تحتها جميع المعاهد والمؤسسات التي تعنى بتلك الدراسات هي «الجمعية العامة لاتحاد المستشرقين»، وقد قررت سلطات الحزب تأسيسها في نهاية سنة ١٩٢١، كما أُنشئت لها فروع في بعض المراكز الاسلامية المهمة في الاتحاد السوفيتي مثل طشقند وباكو وتفليس، وأخذت تصدر عنها مجلة تنطق بلسانها باسم «نوفي فوستوك» - الشرق الجديد - وقد صدر عددها الاول عام ١٩٢٢. وكان لهذه المنظمة، فضلاً عن الدراسات التي تصدر عنها، دور كبير في تخطيط سياسة الحكومة السوفيتية في الشرق خلال سنواتها الأولى. وكان «ميخائيل بافلوفيج» - وهو مواطن بولوني اسمه الحقيقي ويلتمان - أول رئيس لها، وأبرز شخصية في ميدان الدراسات الشرقية المعاصرة، وبقي حتى وفاته في سنة ١٩٢٧ المتحدث الرسمي عن السياسة السوفيتية في الشؤون الشرقية، واليه يعزى الفضل الاول في توجيه اهتمام البلاشفة

---

(٣) E.H. Carr, *The Bolshevik Revolution, vol. III, London, 1961, p. 260.*

(٤) Walter Z. Laqueur, *The Soviet Union and the Middle East*, London, 1959, p. 19 - 20.

ولهذا الكتاب ترجمة عربية بعنوان «الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط» بقلم «لجنة من الاساتذة الجامعيين» من منشورات «المكتب التجاري للطباعة والنشر» - بيروت، ولكنها للاسف مشحونة بالأخطاء والتحريفات والنواقص، ولايمكن الاعتماد عليها.

نحو الشرق .

وأخذت تصدر ـ الى جانب نوفي فوستوك ـ مجلات عديدة أخرى مختصة بالشؤون الشرقية أهمها : «حياة القوميات» و «الشرق الثوري» و «مواد عن مشاكل الاستعمار والقوميات»[٥] .

ولاشك أن الدراسات التي تصدر عن تلك الجمعيات والمراكز كانت تعنى بالشؤون الشرقية «المعاصرة» ، ولكنها كانت تهتم بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وترمي الى أهداف سياسية ، ولم تكن الناحية الأدبية لتحتل الا جزءاً ضئيلاً من دراساتها ، ولا تُبحث الاّ عَرَضا .

أما الدراسات الاكاديمية التي تعنى بالادب والتاريخ فكانت مستمرة ، وكان المستشرقون المتفرغون للبحث العلمي ، والذين يعملون لوجه الأدب وحده ، يواصلون أبحاثهم ودراساتهم في اكاديمية العلوم والجامعات ، دون أن تتدخل السلطات في عملهم ، طالما كان لا يمس سياستها ولا يخرج عن خطوطها العامة واتجاهاتها . وكان بينهم رجال من الجيل القديم (امثال بارتولد واولدنبرك) ومستشرقون ناشئون (ككراتشكوفسكي وغورديليفسكي) ، إلاّ أن اهتمام هؤلاء المستشرقين بالشؤون المعاصرة كان محدوداً بصورة عامة ، ولم يكن بينهم من يعير الأدب الحديث أي اهتمام باستثناء كراتشكوفسكي الذي يعود اليه الفضل الاول في تشجيع هذا الاتجاه ، والذي قضى خمسة وأربعين عاماً في دراسة اللغة العربية وآدابها ، وكان «أول من إثبت من العلماء الاوربيين أن هناك ادباً عربياً حديثاً ضخماً يستحق الاهتمام ، أدباً يعكس حياة العصر»[٦] . وقد أصبحت مؤلفات كراتشكوفسكي من ذخائر الدراسات الادبية ، وسنّت اتجاهاً جديداً بين الباحثين من المستشرقين والعرب على السواء . وعندما توفي هذا المستشرق العلامة قرر مجلس الوزراء السوفيتي وهيئة رئاسة اكاديمية العلوم السوفيتية في نيسان سنة **١٩٥١** إصدار مجموعة مختارة من مؤلفاته ، فصدرت في ستة أجزاء ضخمة ، وعُدّت حدثاً هاماً في الحياة الثقافية والعلمية للاتحاد السوفيتي[٧] ، وكان الجزء الثالث من هذه المجموعة خاصاً بالدراسات المتعلقة بالادب العربي الحديث .

وقد أشار كراتشكوفسكي الى قلة الاهتمام بالأدب العربي الحديث في مقالة مهمة كتبها ـ باللغة العربية ـ لمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة **١٩٣٠** بعنوان

---

(٥) Ivan Spector, *The Soviet Union and the Muslim World* ,Seattle, 1955, p. 104 — 105 .

(٦) «مذكرات جمعية المستشرقين» المجلد الخامس ١٩٣٠ ، ص ١

(٧) غريغوري ش. شرباتوف «الاستعراب في الاتحاد السوفيتي» ، موسكو، سنة ١٩٦١ ص ٧٨ .

«درس الآداب العربية الحديثة ـ مناهجه ومقاصده في الحاضر ـ نظر واقتراح»[٨] وقال فيه :

«اما الآداب الحديثة فلا نرى عناية لائقة بها ، ولا اهتماماً بجمع مآخذها وموادها في الغرب ولا في الشرق . ولا يهم هذا كل محب للشعب العربي بل يحزنه وينذره بخطورة الحال لأن الفرصة تفوت ولا ترجع مدى الدهر مرة اخرى» .

ثم قال :

ولا نعرف بين علماء اوربا على كثرتهم وتنوعهم إلاّ اختصاصياً واحداً درس الآداب الحديثة بكل دقة وأمعان ، الا وهو فارتين هارتمان الالماني المتوفي منذ عشر سنين ، وقد مضى على آثاره في الدرس صديقه الذي خلفه في منصبه جورج كامفماير الالماني ، ولذلك نرى في المانيا من وقت الى آخر مقالات في الجرائد لها علاقة ببعض كتبة العصر او بعض الظواهر الادبية بين ابناء العرب . اما البلدان الاخرى فلا نعرف فيها الا عالما واحداً ساح وتجول في اماكن النهضة الادبية بين العرب وشغف بها وانفق جانبا من وقته واتعابه بهذه الصفحة من تاريخ الاداب ، وهو الاستاذ الشاب جيب الانكليزي»

ويعلل الأستاذ كراتشكوفسكي ظاهرة إهمال الباحثين للآداب الحديثة بأن الانسان في كل زمان ومكان مولع بقديمه أكثر من حديثه ، فلا يرى الحديث جديراً بالدرس كالشيئ العادي الذي لا قيمة له[٩] . اما الاستاذ جب فيري أن أكثر التعليلات احتمالاً هو أن المجموعة الصغيرة من الأوربيين الذين يقرأون العربية بشئ من السهولة منشغلون بالدراسات المتعلقة بالتاريخ الغني للاسلام والشعوب الاسلامية الى حد أن الحاضر لم يعد يعنيهم أو يجذبهم[١٠] .

ويرجع تاريخ أولى دراسات كراتشكوفسكي المهمة عن الحركة الادبية في هذا العصر الى ما قبل ثورة اكتوبر ، حيث كتب في سنة ١٩١١ بحثا مستفيضا عن «الرواية التاريخية في الادب العربي المعاصر»[١١] وهو بحث نقدي تحليلي عن روايات

---

(٨) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . المجلد العاشر . سنة ١٩٣٠ ص ١٧ ـ ٢٨ .

(٩) المرجع السابق ، ص ١٩

(١٠) مجلة مدرسة اللغات الشرقية سالفة الذكر ص ٧٤٥ .

(١١) مجموعة كراتشكوفسكي الجزء ٣ ص ١٩ ـ ٤٦ ، وقد ترجمت هذه الدراسة الى اللغة الالمانية في سنة ١٩٣٠ بقلم «جرهرد فون مندي» وعرفت بالترجمة مجلة «لغة العرب» الجزء ١٠ السنة ٨ ، تشرين الاول ١٩٣٠ ص ٧٩٧ ـ بكلمة يبدو من اسلوبها انها بقلم صاحبها الاب انستاس الكرملي جاء فيها : «هذه مقالة ، بل رسالة ، جمعت فوعت كل ماالف في هذا الموضوع . والاستاذ كراتشكوفسكي حجة ثقة في كل مايكتب . وقد طالع لهذه الغاية مئات من الكتب ، ووقف على جميع الانتقادات التي وضعها الادباء في هذا السبيل» ، ثم اعرب عن أمله بان يرى هذه الدراسة مترجمة الى اللغة العربية . ولكن هذا الامل لم يتحقق والرسالة لما تترجم الى اللغة العربية حتى يومنا هذا .

جرجي زيدان ويعقوب صرّوف وفرح انطون وجميل نخلة المدور وغيرهم . ثم أخذ هذا البحاثة الرائد ابتداءً من سنة ١٩١٨ يحاضر في الأدب العربي الحديث في جامعة لينينغراد التي ربما كانت ، في ذلك التاريخ المبكر ، الجامعة الوحيدة في العالم التي يدرس فيها الادب العربي المعاصر بطريقة علمية حديثة[١٢] .

وكتب كراتشكوفسكي في سنة ١٩١٩ مقالاً بعنوان «الأدب العربي»[١٣] استعرض فيه علاقة الادب العربي الحديث بالآداب القديمة وما يمتاز به عليها ، كما نشر في سنة ١٩٢٢ بحثاً عن «نشوء الادب العربي وتطوره»[١٤] عرض فيه الخطوط العامة لتطور الأدب العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وفي سنة ١٩٢٤ مقالاً بعنوان «الشعر العربي»[١٥] استعرض فيه هذا الشعر منذ العصر الجاهلي حتى القرن العشرين . وكان لنشر هذه المقالات ـ فضلاً عن قيمتها العلمية ـ أثرها في تعريف الفئات الواسعة من القراء في روسيا بالادب العربي المعاصر .

وعندما جمعت السيدة كلثوم عودة فاسيليفا منتخباتها الأدبية في سنة ١٩٢٨ ، كتب لها كراتشكوفسكي مقدمة ضافية جاءت بحثاً مهماً يحتوي على نظرة شاملة عميقة في الأدب العربي الحديث خلال الربع الأول من القرن العشرين ، وكانت قيمة هذه الدراسة سبباً في ترجمتها الى عدة لغات اجنبية[١٦] .

وفي عام ١٩٣٠ طلب المجمع العلمي العربي بدمشق الى الأستاذ كراتشكوفسكي ـ وكان قد منحه عضويته ـ أن يكتب لمجلته مقالاً ، فاستجاب للطلب ، وكتب ـ بأسلوبه العربي الناصع ـ مقاله الذي سبقت الاشارة اليه بعنوان «درس الادب العربي المعاصر ـ مناهجه ومقاصده ـ نظر واقتراح» وعرض فيه نظرية جديدة ـ في وقتها ـ تدعو الى دراسة الادب العربي على ضوء المبادئ والطرق التي تدرس بها الآداب الغربية ، وكان للمقال أثر ملحوظ في توجيه الدراسات الأدبية الحديثة . كما طلب اليه محررو الطبعة الدولية «لدائرة المعارف الاسلامية» في سنة

---

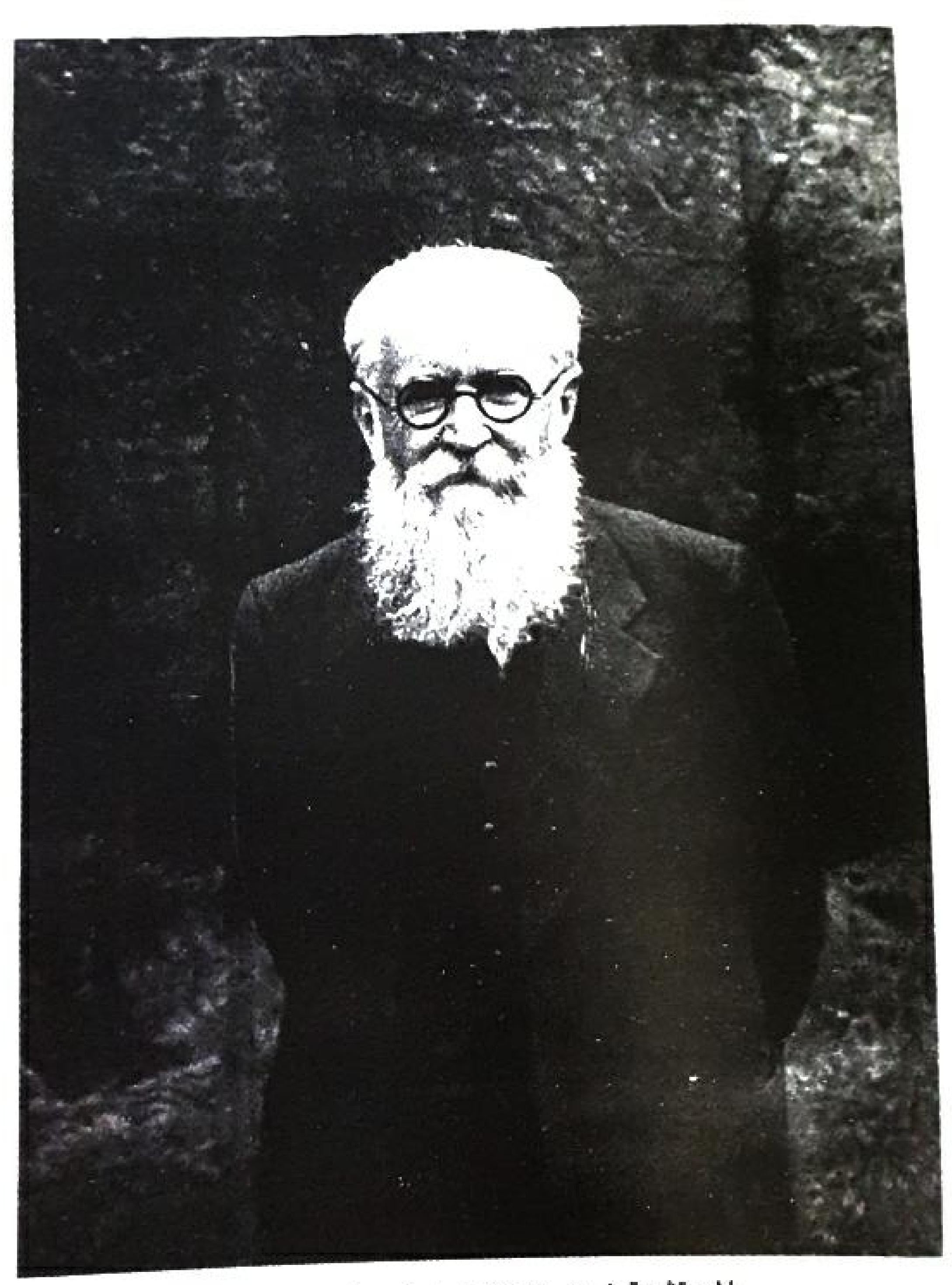
(١٢) في رسالة من كراتشكوفسكي الى أحمد تيمور باشا بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٤ نجد المستشرق الروسي يسأله عن صدور الجزئين الثاني والثالث من مؤلفات و لده المرحوم محمد تيمور ويقول : «هذا مما يهمني جداً في الوقت الحاضر لاني القي الدروس في هذه السنة في تاريخ الآداب **العربية** في القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد وصلت الى تاريخ المرسح العربي» (**مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق**)، المجلد ٤ الجزء ١٢ كانون الاول سنة ١٩٢٤ ص ٥٦٤) .

(١٣) **مجلة «فسميرنايا ليتراتورا»** ـ الادب العالمي ـ العدد الاول سنة ١٩١٩ ص ٢٤ ـ ٣٣

(١٤) **مجلة «فوستوك»** ـ الشرق ـ الجزء الاول سنة ١٩٢٢ ص ٦٧ ـ ٧٣ .

(١٥) **مجموعة كراتشكوفسكي**، الجزء الثاني ص ٢٤٦ ـ ٢٦٥ .

(١٦) اعيد نشر هذه المقدمة في **مجموعة كراتشكوفسكي** الجزء الثالث ص ٤٧ ـ ٦٤ .



المستشرق ا. يو. كراتشكوفسكي (١٨٨٣ - ١٩٥١)
في صيف ١٩٤٩

١٩٣٤ أن يكتب لها بحثا لمادة «تاريخ الادب العربي الحديث» فكتبه باللغة الالمانية ، وكان اول بحث في موضوعه باللغات الاوربية ، وفيه عَيّن الظروف الزمنية والجغرافية للأدب العربي الحديث ، واستشفّ الخطوط العامة لتطوره ، محللاً شتى الأشكال الأدبية من شعر ورواية وقصة ومسرحية .

وكتب كراتشكوفسكي أيضاً سلسلة من المقالات والأبحاث التي درس فيها أدب عدد من أبرز ممثلي الاتجاهات الحديثة كجرجي زيدان[١٧] والزهاوي[١٨] ومحمود تيمور[١٩] والآنسة مي[٢٠] وتوفيق الحكيم[٢١] .

ويمتاز كراتشكوفسكي بأنه كان أول مستشرق أوربي يعني «بأدب المهجر» الذي لم يكن ينال قبله من عناية الادباء والباحثين ـ عربا ومستشرقين ـ الا القليل ، بل كان مجهولاً لدى معظمهم . ففي سنة ١٩١٧ ـ وقبل ثورة اكتوبر ـ صدرت في موسكو مجموعة من كتابات أمين الريحاني مترجمة الى اللغة الروسية مع مقدمة لكراتشكوفسكي تعطي القارئ الروسي صورةً مفصلةً واضحةً لأدب هذا الكاتب وابداعه[٢٢] ، كما أنه كتب في سنة ١٩٢٨ دراسةً مهمة بعنوان «الأدب العربي في امريكا»[٢٣] كانت أول دراسة جدية لهذه المدرسة الأدبية الفريدة في الأدب العربي الحديث ، وهي لاتزال محتفظة بقيمتها على كثرة ما صدر بعدها من دراسات عن أدب المهجر . ولكراتشكوفسكي ايضا بحث عن حياة ميخائيل نعيمة وادبه[٢٤] ، ودراسة لكتابه عن جبران[٢٥] ، وفصل طريف عنه بعنوان «طالب المدرسة الدينية في بولتافا» في كتابه «مع المخطوطات العربية»[٢٦] .

وكراتشكوفسكي ايضا هو الذي ترجم الى اللغة الروسية كتاب «الايام» لطه حسين ، وعرّف القراء الروس بأدب هذا الكاتب العربي المعاصر ، وقد نشرت هذه

---

(١٧) المرجع السابق ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٢٥١ ـ ٢٥٤ .

(١٩) المرجع السابق ص ٢٥٥ ـ ٢٦٠ ، وله فصل عن مجموعة تيمور في كتابه «مع المخطوطات العربية» ـ الترجمة العربية موسكو ـ بدوت تاريخ ص ١٠٣ ـ ١١٦ .

(٢٠) **مجموعة كراتشكوفسكي**، الجزء الثالث، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

(٢١) دراسة عن كتابه «محمد»، المرجع السابق ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ . .

(٢٢) صدرت هذه المجموعة عن دار «اوغني» ـ الانوار ـ للنشر، وقد اعيد نشر المقدمة في **مجموعة كراتشكوفسكي** الجزء الثالث ص ١٣٧ ـ ١٤٥ ، كما خص كراتشكوفسكي امين الريحاني بفصل بعنوان «فيلسوف الفريكة» كتابه مع المخطوطات العربية الترجمة العربية ص ٩٣ .

(٢٣) نشرت في مجلة «أنباء جامعة لينيغراد» ، الجزء الاول سنة ١٩٢٨ ص ١ ـ ٧ .

(٢٤) **مجموعة كراتشكوفسكي**، الجزء الثالث ص ٢٢٣ ـ ٢٢٨ .

(٢٥) المرجع السابق ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ .

(٢٦) الترجمة العربية ص ١١٦ ـ ١٢٩ .

الترجمة في سنة ١٩٣٤[٢٧] مع مقدمة عن المؤلف وتعليقات على الكتاب ، وكتب بعد ذلك مقالة في جريدة «موسكو ـ المساء» واسعة الانتشار للتعريف «بالأيام» ومؤلفه[٢٨] ، ودراسة أخرى بعنوان «طه حسين وروايته الأيام» ولعل هاتين الدراستين هما أول ما كتب عن هذا الأديب المعاصر الكبير وكتابه الخالد . ولكراتشكوفسكي دراسة أخرى عن طه حسين ناقش فيها آراءه المعروفة في الشعر الجاهلي وآراء نقاده[٣٠] .

اما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد تناول كراتشكوفسكي في دراساته تطور الأدب العربي الحديث ، فنشر في عام ١٩٤٦ كراساً عن «المدارس والاتجاهات الأدبية في البلدان العربية في القرن العشرين»[٣١] ، وألقى في عام ١٩٤٧ محاضرةً عن «التيارات الحديثة في الأدب العربي في مصر»[٣٢] عرض فيها تلك التيارات حتى نهاية سنة ١٩٤٦ تقريبا ، وأشار الى ظهور أدباء من الجيل الجديد في مصر يختلفون في آرائهم واتجاهاتهم عن كتاب الرعيل الأول . وعاد في سنة ١٩٤٩ الى الموضوعات نفسها في مقدمته لكتاب كلثوم عودة فاسيليفا الجديد «المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية»[٣٣] ، كما كتب تحليلاً لشعر «يوسف غصوب»[٣٤] و «محمد مهدي الجواهري»[٣٥] بمناسبة صدور مجموعتين من أشعارهما . وعندما احتُفل بالذكرى الأربعين لثورة سنة ١٩٠٥ كتب دراسة بعنوان «اصداء ثورة سنة ١٩٠٥ في الأدب العربي»[٣٦] فكانت دراسةً قيّمةً فيها إصالة وجدّة .

وتوفي الأستاذ اغناطيوس كراتشكوفسكي في سنة ١٩٥١ بعد أن خلّف هذا التراث الضخم من الدراسات عن الادب العربي الحديث ـ الى جانب دراساته الواسعة في الموضوعات الأخرى ـ على أن كراتشكوفسكي،وان كان رائد المستشرقين

---

(٢٧) نشر دار الدولة لطباعة الادب في موسكو .

(٢٨) «فيجرنايا ـ موسكفا» ـ موسكو المساء ـ العدد الصادر بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٣٤، وللاستاذ كراتشكوفسكي مقال بعنوان «الادب العربي في الترجمات الروسية»، نشر في جريدة «كراسنايا غازيتا» ـ الجريدة الحمراء ـ بتاريخ ١٤ تموز ١٩٣٤ .

(٢٩) مجموعة كراتشكوفسكي، الجزء الثالث، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٣ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٣١) اعيد نشره في مجموعته، الجزء الثالث، ص ٨٦ ـ ١٠٦ .

(٣٢) نشرت للمرة الاولى في مجموعته، الجزء الثالث، ص ١٠٧ ـ ١١٤ .

(٣٣) أعيد نشرها في مجموعته، الجزء الثالث، ص ١١٥ ـ ١٢٠ .

(٣٤) المرجع السابق، ص ٣٧٥ .

(٣٥) المرجع السابق، ص ٣٢٥ .

(٣٦) مجلة «الاستشراق السوفيتي»، ج٣ سنة ١٩٤٥ ص ٥ ـ ١٤ .

الروس ومرشدهم في الاهتمام بالادب العربي الحديث ، فان هناك باحثين آخرين عكفوا منذ أيام الحرب العالمية الثانية على دراسة الأدب العربي الحديث ، ووضعوا عنه بحوثاً بينها ما هو ذو قيمة كبيرة .

وبعد وفاة الاستاذ كراتشكوفسكي ـ الذي كان يقيم في لينينغراد ويدرّس في جامعتها ـ أخذت موسكو تحتل مكانتها كالمركز الاول للدراسات العربية في الاتحاد السوفيتي ، وان كانت أهميتها في تزايد منذ الأربعينات . وكانت موضوعات الادب المعاصر تحتل مكانة مهمة بين الابحاث والدراسات التي تصدر عنها .

ومن قدامى المستشرقين الروس الذين يجيدون اللغة العربية ، ولهم اطلاع على آدابها هو «عبد الرحمن سلطانوف» الذي عمل في السلك الدبلوماسي السوفيتي في العراق ولبنان ومصر واليمن[٣٧] ، وله دراسات قيمة في اللغة والآداب العربية ، بينها ما يختص بالادب الحديث، كبحثه الذي نشره سنة ١٩٥٥ عن «الادب المصري في مرحلة جديدة»[٣٨] واشار فيه الى ظهور جيل من الكتاب التقدميين في مصر في السنوات التي أعقبت الحرب ، وقد طور سلطانوف في مقالته هذه فكرة كراتشكوفسكي عن ظهور تيار تقدمي جديد في الأدب المصري التي أوضحها في مقدمة محاضرته عن «التيارات الحديثة في الادب العربي في مصر» ، وقد سبقت الاشارة اليها ، وللاستاذ سلطانوف دراسات عديدة أخرى عن الحركات الادبية والثقافية في مصر كمقالاته «صراع التيارات الفكرية في الادب العربي الحديث»[٣٩] و«المراحل الرئيسية في تطور الثقافة الحديثة في مصر»[٤٠] ودراسة عن كتابين لعبد الرحمن الرافعي في تاريخ الحركة الوطنية في مصر[٤١] ورواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي[٤٢] .

وللسيدة كلثوم عودة فاسيليفا مقال عنوانه «تصوير واقع المرأة العربية المعاصرة في القصة» كتب سنة ١٩٣٠[٤٣] ، كما أن هذه السيدة الفاضلة درست نواحي من الحركة

---

(٣٧) وللاستاذ سلطانوف نجل مستشرق ايضا يجيد اللغة العربية كأحد ابنائها ويعمل في وزارة الخارجية السوفيتية . وقد اسعدني الحظ ـ عندما كنت في موسكو ـ بالتعرف على كليهما .

(٣٨) مجلة «انباء اكاديمية العلوم السوفيتية ـ قسم الاداب واللغة» المجلد١٤ ج١ سنة ١٩٥٥ ص ٦٣ ـ ٧٢ .

(٣٩) اعمال معهد الاستشراق بموسكو، ج٦ سنة ١٩٥١ ص ١١٧ ـ ١٢٩ .

(٤٠) «الاستشراق السوفيتي»، العدد ٣ سنة ١٩٥٧ ص ١٥١ ـ ١٥٩ .

(٤١) «انباء موجزة لمعهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية» المجلد ٣٢ سنة ١٩٥٨ ص ٣٠ ـ ٤٠ .

(٤٢) «السجلات العلمية لمعهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية» المجلد ٢٢ سنة ١٩٦٠ ص ١٣١ ـ ١٣٥ .

(٤٣) «سجلات مجموعة المستشرقين لدى المتحف الآسيوي التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية» ج١ ، سنة ١٩٣٠ ، ص ٢٩٣ ـ ٣٠٦ .

الادبية في مختلف الاقطار العربية في المقدمات والكلمات الختامية التي كتبتها لعدد من المجموعات القصصية المترجمة الى اللغة الروسية ، عن بعض الكتاب المعاصرين والتي نشرت بين سنتي ١٩٥٥ و ١٩٦٠[٤٤] تضمنت منتخبات من مؤلفات «ولي الدين يكن» و «جبران خليل جبران» و «الريحاني» ، وكانت المقدمة دراسة عن جيل هؤلاء الادباء والقيمة الفنية لمؤلفاتهم . ولهذه الكاتبة أيضاً بحث بعنوان «ما قبل الواقعية في الادب العربي الحديث» نشر في مجلة «مشاكل الاستشراق»[٤٦] .

ومن اكثر المستشرقين الروس ، من الجيل الجديد ، اهتماما بموضوعات الادب العربي الحديث «فالنتين بوريسوف» و «دانييل سيمينوف» و «دانييل يوسوبوف» .

فقد كتب «بوريسوف» دراسة موجزة عن «التيارات الجديدة في الادب العربي» نشرت في مجلة «نوفي مير»[٤٧] - العالم الجديد - التي تعد أهم المجلات الأدبية في الاتحاد السوفيتي وأرقاها ، وأخرى بعنوان «الحياة الادبية في الاقطار العربية»[٤٨] وثالثة عن «الادب العربي بعد الحرب العالمية الثانية»[٤٩] كما كتب «بوريسوف» مقدمة الترجمة الروسية لكتاب «الشيخ جمعة وقصص اخرى»[٥٠] لمحمود تيمور ، درس فيها أدب هذا القصصي المصري المعاصر ، ونشر في سنة ١٩٥٨ دراسات عن بعض مؤلفات احسان عبد القدوس[٥١] ونجيب محفوظ[٥٢] . ولـ «سيمينوف» دراسة موسعة جيدة عن رواية «ابراهيم الكاتب» للمازني نشرت سنة ١٩٤١[٥٣] ، كما أن له دراسات عن مؤلفات جرجي زيدان وأثره في توجيه الحركة الادبية في العصر الحديث .

اما «يوسوبوف» فقد وضع رسالة عن «آثار الكاتب اللبناني عمر فاخوري والاتجاه

---

(٤٤) منها : «قصص للكتاب العرب» ، موسكو سنة ١٩٥٥ ، و «١٩ قصة مصرية» ، موسكو سنة ١٩٥٧ ، و «قصص للكتاب اللبنانيين» ، موسكو سنة ١٩٥٨ ، وترجمة كتاب «كهان الهيكل» لجورج حنا ، موسكو سنة ١٩٥٥ ، و «الخبز والارض والماء» ، تأليف ذو النون أيوب ، موسكو سنة ١٩٦٠ .

(٤٥) نشر في موسكو سنة ١٩٥٦ .

(٤٦) العدد ٣ ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٥٨ - ٦٧ .

(٤٧) العدد ٥ ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٩ .

(٤٨) مجلة «نوفي فوستوك» - الشرق الجديد - العدد ٢٠ سنة ١٩٥٦ ص ٢٩ - ٣٢ .

(٤٩) مجلة «مسائل الادب» ، العدد ٨ سنة ١٩٥٨ ص ٣ - ٢٥ .

(٥٠) نشرت سنة ١٩٥٧ عن دار كتب «اوغونكا» .

(٥١) مجلة «الادب الاجنبي» العدد ٥ سنة ١٩٥٨ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٥٢) مجلة «الادب الاجنبي» العدد ٦ سنة ١٩٥٨ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٥٣) مجلة «الاستشراق السوفيتي» ج٢ سنة ١٩٤١ ص ١٤٩ - ١٦٨ .

الـرئيسي لمجلة الطريق»[٥٤] كـما نشر عن هـذا الكاتب ومجلة «الـطريق» التي كان يصدرها مقالات ودراسات عـديدة . وللبـاحث نفسه دراسـة عن جبران خليـل جبران[٥٥] ، وأخرى عن ميخائيل نعيمة[٥٦] ، ومقدمة لكتاب «امين الريحاني ـ دليل في ترجمة حياته وكتبه»[٥٧] .

وهنالك فضلاً عن هذه الدراسات المتفرقة ، الرسائل العلمية والاطروحات التي يقدمها المستشرقون الناشئون الى الجامعات السوفيتية في موضوعات تتعلق بالأدب العربي الحديث . ومن أهم هذه الرسائل رسالة «آ . ب . خالدوف» المعنـونة «النثر الفني عند طه حسين»[٥٨] التي كـانت دراسة ضخمـة لعميد الادب العـربي المعاصر وتطور أدبه ، ورسالة يوسوبوف ـ التي سبق ذكرهـا ـ عن عمر فـاخوري ومجلته «الطريق» .

والى جانب محمود تيمور وطه حسـين ، كان تـوفيق الحكيم من أدباء العـرب المعاصرين الذين نال أدبهم أكبر الاهتمام من المستشرقين السوفيت . وقد تـرجم ثلاثة من مؤلفاته الكبيرة ـ على الأقل ـ الى اللغة الروسية ، وهي «عودة الروح» التي تـرجمت منذ سنـة ١٩٣٥[٥٩] ، و «يوميـات نـائب في الاريـاف»[٦٠] ، ومسـرحيـة «الصفقة»[٦١] . كما نشرت مجلة «الادب الاجنبي» دراسة عنه بعنوان «تجربة طريفة لتـوفيق الحكيم»[٦٢] ، وكتبت «آنـا دولينينـا» بحثـاً مختصـراً عنـه في «التقـويم الشـرقي»[٦٣] ، وكلثوم عـودة فاسيليفـا مقالـةً باللغـة الانكليزيـة في مجلة «الادب السوفيتي» بعنوان «توفيق الحكيم ـ الكاتب المصري»[٦٤] .

وظهرت في أبحاث المستشرقين الروس ـ إضافة الى ما تقـدم ـ دراسات تختص بآداب بعض الاقطار العربية منفردة ، وتحلل خصائصهـا العامـة ، كمقال «ل .

---

(٥٤) نشرت في موسكو سنة ١٩٥٤ .

(٥٥) السجلات العلمية لمعهد شعوب اسيا التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية ، ٢٢ سنة ١٩٦٠، ص ١٠١ ـ ١٠٨ .

(٥٦) الاستشراق السوفيتي ، العدد ٣، سنة ١٩٦٠، ص ٣٩ .

(٥٧) نشرت في موسكو سنة ١٩٥٨ .

(٥٨) لينيغراد سنة ١٩٥٥ .

(٥٩) نشرت في لينيغراد مع مقدمة لمترجمها ميخائيل ساليه .

(٦٠) نشرت بالروسية سنة ١٩٥٩ مع مقدمة بقلم «ن. عثمانوف» .

(٦١) نشرت في موسكو سنة ١٩٦٠ مع مقدمة بقلم «فلاديمير سولوفيوف» .

(٦٢) العدد ٢ سنة ١٩٥٨ .

(٦٣) «فوستوجني المناك» ـ التقويم الشرقي ـ الجزء الاول سنة ١٩٥٧ ص ٢١٨ ـ ٢١٩

(٦٤) *Soviet Literature*, 1959, No. 2, p. 89 - 91 .

نيكورا» عن «الأدب في مصر الحديثة»[٦٥] ، ومقال «آلاراشكوفسكايا» المعنون «أدب مصر الحديثة» [٦٦] والمقالات التي نشرتها مجلة «الأدب الأجنبي» غفلا عن التوقيع - مؤلفات جديدة لكتاب مصريين»[٦٧] و «الأدب اللبناني في عام ١٩٥٦»[٦٨] ، و «بحث في الأدب العراقي الحديث»[٦٩] .

وقد حظى الادب العراقي الحديث بعناية غير قليلة من تلك الدراسات ، ففضلا عن الفصول الموجزة التي كتبها الأستاذ كراتشكوفسكي عن الزهاوي والجواهري ، هنالك دراسة للاستاذ «غريغوري شرباتوف» عن «شعر معروف الرصافي»[٧٠] ، وأخرى للكاتبة «آلا تريغولوفا» بعنوان «الشاعر الخطيب محمد مهدي الجواهري»[٧١] كما كتبت «غورودیتسکایا» كلمةً ختاميةً للترجمة الروسية لديوان «عبد الوهاب البياتي» المعنون «اشعار في المنفى»[٧٢] .

وقد امتازت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بكثرة ما صدر خلالها في الاتحاد السوفيتي من الكتب المترجمة عن الأدب العربي ، وتلك ظاهرة لا نشاهد لها مثيلاً في اللغات الأوربية الاخرى . وقد كان معظم تلك المؤلفات المترجمة من إنتاج أدباء العرب المعاصرين . ولابدّ من الاشارة هنا الى أن ترجمة المؤلفات العربية في الاتحاد السوفيتي لم تقتصر على اللغة الروسية وحدها ، وانما امتدت الى لغات شعوب الاتحاد السوفيتي الأخرى - ولاسيما شعوب آسيا الوسطى وما وراء القفقاس التي لا يزال المسلمون ، برغم الاختلاط والهجرة ، يؤلفون السواد الاعظم من أبنائها . ولاشك ان تلك الشعوب تشعر برابطة خاصة تربطها بلغة القرآن وآدابها . وقد نُشرت أقاصيص الادباء العرب وقصائدهم في صحفها الدورية ، كما صدرت في مجموعات مستقلة . ويقول المستشرق الاستاذ شرباتوف إن عدد الكتب التي ترجمت في الاتحاد السوفيتي عن الادباء العرب حتى سنة ١٩٦١ قد بلغ (١٢٤) كتابا ، وهي نسبة مرتفعة جداً بالقياس الى ما ترجم من اللغة العربية الى اية لغة أخرى ، وان عدد النسخ المطبوعة منها قد بلغ خمسة ملايين ونصفا ، في (٣٠) لغة من لغات شعوب

---

(٦٥) مجلة «نوفي مير» - العالم الجديد - العدد ٩ سنة ١٩٣٣

(٦٦) *Soviet Literature*, 1956, N. 11, p. 154 - 158.

(٦٧) مجلة «الادب الاجنبي» ، العدد ٨ سنة ١٩٥٧ ص ٢٨٠ .

(٦٨) «الادب الاجنبي» العدد ٥ سنة ١٩٥٧ ص ٢٨٢ .

(٦٩) مجلة «الادب الاجنبي» العدد ٢ سنة ١٩٥٧ ص ٢٧٦ .

(٧٠) مجلة «الاستشراق السوفيتي» العدد ٧ سنة ١٩٥٩ ص ٢٥ .

(٧١) مجلة «الاستشراق السوفيتي» العدد ١٢ سنة ١٩٥٩ ص ٣٧ .

(٧٢) نشرت في موسكو سنة ١٩٥٨ .

الاتحاد السوفيتي[٧٣] .

على أن الباحث الذي يستعرض دراسات المستشرقين السوفييت للادب العربي الحديث ، والآثار المترجمة الى الروسية عن هذا الادب ، لا يسعه الاّ أن يلاحظ أن موضوعات تلك الدراسات والترجمات لم يتم اختيارها وفقاً لمقياس معين أو قاعدة ثابتة . ولذلك نجد دراسات مسهبة متعددة عن كتاب ليسوا من الطبقة الاولى ، وترجمات لمؤلفات ثانوية في اهميتها وقيمتها الأدبية ، بينما نرى كتّاباً أهم منهم ، ولم تترجم لهم قطعة . ولعل القاعدة الوحيدة التي يبدو أنها روعيت ـ الى حدٍّ ما ـ في اختيار موضوعات الدراسات والترجمات ، هي اتجاه الكاتب السياسي والاجتماعي ، حيث وضع ذلك في المكان الأول قبل قدرته الفنية او مكانته الادبية . وقد ظهر هذا الاتجاه بصورة اوضح في الدراسات التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية . وهكذا نجد في السنوات الاخيرة دراسات وترجمات كثيرة عن «عمر فاخوري» و «عبد الرحمن الشرقاوي» و «جورج حنا» و «ذوالنون ايوب» ، بينما لا نجد ذكراً في أية دراسة روسية لكتاب أوسع منهم شهرةً واكبر مكانةً في الادب العربي الحديث ، كالعقاد والرافعي والزيات . بل اننا لا نجد بين الدراسات الكثيرة عن الشعراء المعاصرين ذكراً لاحمد شوقي (الشاعر الارستقراطي) في حين أن معاصره حافظ ابراهيم (الذي طرق كثيرا من الموضوعات الاجتماعية) يتردد ذكره في تلك الدراسات ، وعلى هذا القياس ايضاً لا نجد لشعراء كخليل مطران وبشارة الخوري وعلى محمود طه وعمر ابي ريشة مكانا في الدراسات السوفيتية ولا في الترجمات الروسية ، ولكن شعراء دونهم إبداعاً وشهرةً مثل «يوسف غصوب» و «وصفي البني» و «رضوان الشهال» و «وصفي قرنفلي» تدرس أشعارهم وتترجم قصائدهم مرة بعد مرة .

ولاشك أن هذه الظاهرة لا يصعب تحليلها على ضوء المبادئ التي «توجّه» الدراسات الأدبية والفنية في ظل النظام السوفيتي بصورة عامة . ويوفر الباحث على نفسه كثيراً من العناء إذا سلم بهذه الحقيقة ، وقبلها كما هي ـ سواء أكانت موافقةً لرأيه أم لم تكن ـ متذكراً ان أولئك الباحثين والمترجمين لهم أن يختاروا من الموضوعات ما يوافق اتجاههم أو يرضي مزاجهم أو يجنّبهم المشاكل .

ومهما يكن من امر ، فان المستشرقين الروس قد أولَوا الأدب العربي الحديث ودراسة آثاره وأعلامه عنايةً لا نجدها عند غيرهم . وذلك دليل على اتجاه نافع في

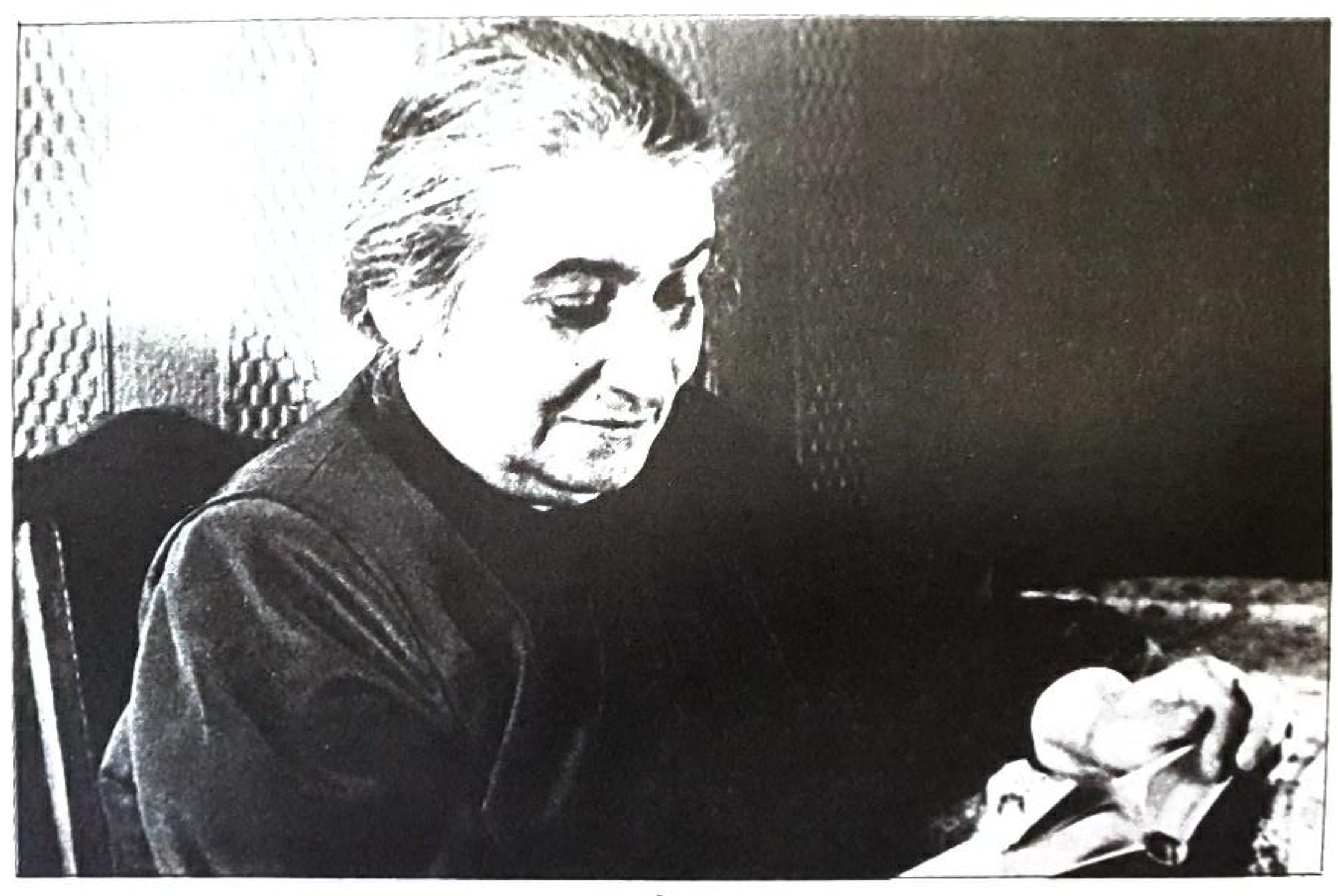
---

(٧٣) غريغوري شرباتوف «الاستعراب في الاتحاد السوفيتي»، موسكو سنة ١٩٦١ ص ٩٦ .

الثقافة السوفيتية ، وتفتحها على ثقافات الأمم الاخرى ، ومظهر من مظاهر الاهتمام المتزايد بالبلاد العربية وآدابها .

كلثوم عوده ڤاسيليڤا

أم المستعربين الروس



السيدة كلثوم عودة فاسيليفا (١٨٩٢ - ١٩٦٥)

رأيت في احتفال لاحدى السفارات العربية بموسكو بعد وصولي اليها بأيام قلائل - سيدة جليلة المظهر، بيضاء الشعر، أحنى المشيب ظهرها أو كاد، يهرع لتحيتها المدعوون من عرب وروس، ويتحدث اليها السفراء والأساتذة والصحفيون باحترام وتقدير. ولمّا سألت عن هذه السيدة من تكون، وهل هي عربية، علمت أنها السيدة كلثوم عوده فاسيليفا، أستاذة اللغة والآداب العربية في جامعة موسكو، ومعهد العلاقات الدولية، وتلميذة المستشرق الروسي الكبير كراتشكوفسكي ومساعدته.

وكنت قد سمعت عن هذه السيدة الفاضلة ورأيت بعض أبحاثها، وعلمت أنها فلسطينية قضت أكثر من أربعين عاماً من حياتها في تعليم اللغة العربية في روسيا، وأنها أشرفت على عدد كبير من الأبحاث والأطروحات الجامعية في الأدب واللغة، وعلى يديها تعلم اللغة العربية مئات الطلاب، ونشأ اكثر من جيل من المستعربين في الاتحاد السوفييتي.

والتمست من يعرفني عليها، فوجدت السيدة كلثوم عودة، إذ تحدثت اليها، عربية الوجه واليد واللسان بالرغم من اغترابها عن وطنها هذه المدة الطويلة. إذ لم يوهن ذلك من شعورها العربي، ولم يضعف من اعتزازها بلغتها ولم يخمد من جذوة اهتمامها باحداث أمتها العربية ومشاكلها وأمانيها، وكفاحها وتقدمها. ورأيت فيها قلباً كبيراً، وعلماً جماً، وتواضعاً عظيماً، ولم أجدها بعد ذلك تتخلف عن أي احتفال عربي ولامناسبة قومية ولا عيد وطني، بل رأيتها على الرغم من سنيها السبعين، وشتاء موسكو القاسي وثلوجها، سباقة الى الحضور، وكنت ألمح في محياها وأستشف من حديثها معاني الغبطة والاعتزاز، وكأنها عادت برهةً من الزمن الى موطنها، وهي سواء أكانت في سفارة المغرب أم في احتفال اليمن أم في ذكرى ثورة العراق، توحي اليك - وهي تشعر فعلا - أنها في مناسبة تخصها شخصيا، وقد سما بها اغترابُها

الطويل عن الاقليمية الضيقة ـ وأنساها الخلافات الآنية العابرة، وجعلها ـ وهي العربية الفلسطينية ـ تشعر بانها تنتمي الى البلاد العربية جميعاً دونما تفريق ولاتمييز، وترى في كل بقعة منها وطنها الأصيل .

وصرت كلما لمحتها في مناسبة من هذه المناسبات أسعي اليها محيياً، فاذا سألتها عن صحتها وراحتها أجابتني بعبارتها «اللازمة» التي تنم عن طيبة نفسها وتواضعها قائلة : «تحت النظر» تنطقها بلهجة فلسطينية ناصعة، ثم تسألني عن العراق وأحواله سؤ ال العارف الخبير المتتبع، وتحدثني عن طلابها وطالباتها من العراق، ومن تُشرِف على أطروحاتهم منهم، حديث الأستاذة المحنكة والأم الرؤ وم .

وفي يوم ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٦٥ سمعت بأسف كبير وألم مرير نعي كلثوم عودة فاسيليفا بعد مرض قصير، وكان عمرها ثلاثة وسبعين عاما .

ولدت كلثوم عودة في ٢ نيسان ١٨٩٢ في مدينة الناصرة بفلسطين لأسرة عربية، ودرست في مدارسها الابتدائية،ثم دخلت دار المعلمات التابعة للجمعية الارثوذكسية الفلسطينية ـ الروسية في (بيت جالا) وتخرجت فيها سنة ١٩٠٨، فعينت معلمة في مدرسة الناصرة للبنات، وبذلك بدأت حياتها التعليمية التي قُدّر لها أن تدوم سبعة وخمسين عاماً وتنتهي في بلد بعيد، أغلب الظن أنه لم يمر ببالها حتى ذلك الوقت، وهو موسكو .

وتعرّفت المعلمة الناشئة كلثوم عودة على طبيب روسي يدعى (ايفان فاسيليف) كان يعمل في القدس، فتزوجته سنة ١٩١٤ على الرغم من معارضة أهلها، وسافرت معه الى روسيا قبيل الحرب العالمية الاولى، ولما اندلعت نيران تلك الحرب دخلت كلثوم عودة دورة للتمريض، وتطوعت ممرضة لدى جمعية الصليب الأحمر السلافية في الصرب والجبل الاسود، وفي سنة ١٩١٧ انتقلت الى اوكرايينا، حيث واصلت عملها في التمريض ومساعدة زوجها الطبيب .

وفي آب سنة ١٩١٩ تفشى في بعض مناطق اوكرايينا وباء «التيفوس»، فتطوع زوجها أو عُيّن للعمل في الحملة التي شنت لمقاومته، ومالبث أن اصيب به هو أيضا، فتوفي تاركاً زوجته الشابة، وفي حجرها ثلاثة أطفال صغار، ولامال لديها ولانشب، في بلد غريب ناء لاتعرف من لغته الآ القليل. ولكن ذلك كله لم يبعث اليأس في نفس هذه الفتاة العربية، فواجهت ظروفَ الزمان ومشيئة الأقدار بقلب صامد ونفس صابرة، ولعل غرورها أبى عليها أن تعود الى أهلها بعد أن خرجت على ارادتهم وتحدت رغبتهم، فانتقلت سنة ١٩٢٤ الى مدينة لينيغراد ـ وكانت تدعى بتروغراد يومذاك ـ حيث كانت أسرة زوجها، بعد أن عانت صعوبات كبيرة وضائقة شديدة،



القسم العربي في المعهد الشرقي بلينينغراد. عام ١٩٢٨ الجالسون في الوسط قرب الطاولة ابنة الناصرة ك . ف ـ فاسيليفيا (المعلمة كلثوم عوده)، البروفسور كراتشكوفسكي، د . ف . سيميونوف

وهنالك عادت الى مهنتها الاولى وهي التعليم، فلم تتركها بعد ذلك حتى يـومها الاخير .

انتمت كلثوم عودة أولاً الى معهد اللغات الشرقية الذي كان يرأسه المستشرق العلامة كراتشكوفسكي، فاتخذها مساعدةً له، وكانت لها به معرفـة سابقـة ـ فقد قضى الأستاذ كراتشكوفسكي في لبنان سنتين يدرس اللغةوالآداب العربيـة، وزار خلال هذه الفتـرة مدينـة الناصـرة في ربيع سنـة ١٩١٠ وتفقد مـدرسة الجمعيـة الروسية ـ الفلسطينية للبنان، وكانت كلثوم عودة تدرس فيها. وتذكر كلثوم عودة في مقال لها تسرد فيه ذكرياتها عن الاستاذ كراتشكوفسكي (مجلة الـطريق ـ بيروت، العدد الثامن، ايلول ١٩٥١) أنه أبدى لها ملاحظات قيمة في أسلوب تعليم اللغة العربية ثم تقول: «ولم أفكر اذ ذاك بان الاقدار ستقودني فيما بعد الى الشمال النائي، وأن معرفتي به ستبقى الى يوم وفاته». وتروي كلثـوم عودة في مقـالها كيف لقيت الأستاذ كراتشكوفسكي بعد ذلك بأربعة عشر عاماً فتقول إنها عندمـا رجعت من اوكراينا الى لينينغـراد بعد وفاة زوجها عثرت في أحد مخازن الكتب على مجلة «الشرق» الروسية: «فوجدت للاستاذ كراتشكوفسكي الذي كان أحد محرري هذه المجلة مقالة في الشعر الجاهلي، وعثرت في عدد آخر على ترجمة «الثورة» للريحاني. وقد علمت أن الاستاذ يستريح في القرم، فبعثت له تحريرا. «وبعد زمن قليل استلمت جوابا منه عرض عليَّ فيه تدريس اللغة العامية في جامعة (كذا) اللغات الشرقية فيلينينغـرادومن ذلك الحين حتى وفاته بقيت أعمل معه أساعده مراقبةً أعماله وحياته عن كثب»[1] .

وفي سنة ١٩٣٨ اغلق معهد اللغات الشرقية فانتقـل الاستاذ كـراتشكوفسكي وانتقلت كلثوم عودة معه الى جامعـة لينينغراد، وبقيت فيهـا حتى الحرب العـالمية الثانية. وكان في موسكو معهد آخر للاستشراق انتقل خلال سني الحرب الى مدينة (فرغانة) في آسيا الوسطى، ثم أعيد الى موسكو في سنة ١٩٤٣ فأنضمت كلثوم عودة الى هيئته التدريسية، وبقيت فيه حتى سنة ١٩٥٤ ثم تركته الى التعليم في غيره من المعاهد العالية التي تدرس فيها اللغة والاداب العربية، كمعهد شعوبا آسيا وافريقية ومعهد العلاقات الدولية وغيرهما .

وفي سنة ١٩٦٠ منحت كلثوم عودة فاسيليفا درجة «أستاذ» لخدمتهـا التعليمية الطويلة، وكانت بذلك أول امرأة عربية تنال هذه المرتبة الجامعية الجليلة في الاتحاد

---

(١) عندما توفي الاستاذ كراتشكوفسكي وضعت كلثوم عودة عند تشييعه اكليلا من الزهور على قبره باسم العرب «اعترافا بفضله وخدماته لهم وشعوره الشريف نحوهم».

السوفيتي، كما منحتها الحكومة السوفيتية سنة ١٩٦٢ وسام الاستحقاق بمناسبة بلوغها السبعين من عمرها .

تركت هذه «المستعربة» العربية المجيدة مؤلفات عديدة وآثاراً قيّمة ،وكانت كتب تعليم اللغة العربية للطلاب الروس، وكتب المختارات الأدبية التي جمعتها وشرحتها لهذه الغاية تحتل جانباً هاماً من هذه المؤلفات، وهي وان كانت كتباً «تعليمية» مدرسية صرف لاتجتذب القارىء العربي ولاتنال اهتمامه، فانّ لها قيمتها الكبرى وأثرها البعيد في تسهيلها لغة الضاد وتقريبها الى أجيال عديدة من الطلاب الروس وتحبيبها اليهم .

وقد صدر أول هذه الكتب في مدينة لينتغراد عام ١٩٢٦ ، بعنوان «المنتخبات الأولية» وكتب مقدمته الأستاذ كراتشكوفسكي، وهو كتاب لتعليم اللغة العربية للطلاب الروس أُعدّ وفق متطلبات طرق التدريس الحديثة، ويتضمن حكايات موضوعة على لسان الحيوان، ومقاطع من مذكرات قاسم أمين مع مجموعة من الكلمات العربية مترجمة الى اللغة الروسية ومرتبة حسب أحرف الهجاء، ومجموعة من التمارين المختلفة . وكان هذا الكتاب وقت صدوره كبير الفائدة، وبقي مستعملاً في روسيا حتى ظهور أولى الكتب الخاصة بتعليم اللغة العربية[٢] .

وأصدرت كلثوم عودة بعد ذلك عدداً من كتب المنتخبات الادبية كان أولها مختصا بالأدب الحديث وحده، وعنوانه «المنتخبات العصرية لدراسة اللغة العربية». وتمتاز هذه المنتخبات التي صدرت سنة ١٩٢٨ بأنها كانت أول دراسة علمية لأكثر من أربعين كاتباً في النثر الفني والأدب الصحفي والنقد والدراسة الأدبية، وكانت تحتوي على مختارات من كتابات الرعيل الأول من ادباء العرب في العصر الحديث في الفترة مابين سنتي ١٨٨٠ و ١٩٢٥ ، كأديب اسحق وعبد الرحمن الكواكبي وجرجي زيدان وأمين الريحاني وجبران، والمحاولات الأولى لميخائيل نعيمة ومحمود تيمور. ونالت هذه المنتخبات اعجاباً كبيراً في أوساط المستشرقين ودارسي اللغة العربية، وسجلت الى حد ما عهداً جديداً في دراسة الأدب العربي الحديث كما قال عنها الأستاذ كراتشكوفسكي . خلال السنوات التي أعقبت صدور هذا الكتاب أخذ الأدب العربي الحديث يغتني بأسماء جديدة ومؤلفات لايمكن لأية منتخبات أن تكون كاملةً بدونها، فأصدرت كلثوم عودة في سنة ١٩٤٨ كتاباً جديداً بنفس العنوان وهو

---

(٢) استعنا في وصف بعض مؤلفات السيدة كلثوم عودة النادرة بكتاب «الاستعراب في الاتحاد السوفييتي» للمستشرق السوفيتي الاستاذ شرباتوف، موسكو ١٩٦١ .

«المنتخبات العصرية لدراسة اللغة العربية»، ولكنه يتناول الفترة بين ١٨٨٠ و ١٩٤٧، وضمت هذه المنتخبات الجديدة نماذج من كتابات اثنين وثلاثين أديباً يمثلون مختلف الاتجاهات الجديدة في الأدب العربي خلال هذه الفترة، وأصبح لوفرة النماذج التي تضمنها، وحسن اختيارها، كتاباً مدرسياً كبير الفائدة، ومصدراً موثوقا لطلاب اللغة العربية في الاتحاد السوفيتي.

وفي سنة ١٩٥٥ أعدّت كلثوم عودة كتاباً جديداً بعنوان «نماذج من الكتابة العربية» وهو كتاب مدرسي أيضا، تضمن كثيراً من المواد الجديدة المفيدة في تعلم اللغة العربية واستعمالها، كنماذج من المراسلات التجارية والرسائل واعلانات الصحف وغير ذلك.

ومن كتب كلثوم عودة «كتاب تعليم اللغة العربية» الذي نشره المعهد الشرقي في لينينغراد عام ١٩٣٦. ويتناول هذا الكتاب - الذي وُضع بالدرجة الأولى لتعليم الطلاب الروس اللغة العربية الفصحى - دراسةً خاصة للهجة السورية الدارجة، ويتضمن ملاحظات قيمة عن خصائص اللهجة السورية وعَلاقتها بالفصحى.

وظهر بعد الحرب العالمية الثانية اتجاه لتدريس اللغة العربية في بعض المعاهد الاختصاصية العالية الى جانب جامعة موسكو ومعاهد الاستشراق التابعة لها، كمعهد التجارة الخارجية، والمعهد الدبلوماسي العالي، وبذلك ظهرت الحاجة الى كتب مدرسية في موضوعات خاصة، فأعدت كلثوم عودة كتاباً بعنوان (منتخبات في المراسلات الدبلوماسية) نشر سنة ١٩٤٩ ليستعين به طلابها في معهد العلاقات الدولية الذين يرغبون في التخصص في شؤون البلاد العربية.

والى جانب هذه الكتب المدرسية أو «التعليمية» كتبت كلثوم عودة دراساتٍ أدبيةً ولغوية قيمة، منها بحث عنوانه «تصوير واقع المرأة العربية المعاصرة في القصة» تضمن، الى جانب موضوع الدراسة الأصلي، وصفا تحليلياً لبعض ممثلات التيارات الأدبية والسياسة في الاقطار العربية خلال الربع الأول من القرن العشرين، وكانت تاريخاً ثميناً للحركة النسائية في هذه الاقطار.

ومنها دراسة لغوية عن «حرف الجر في اللغة العربية»، نشرت سنة ١٩٥٥، وكانت بحثاً قيماً يتناول أهمية الأحرف، وخاصة أحرف الجر، وطرق استعمالها.

ونشرت في سنة ١٩٥١ مقالها «ذكرياتي عن العلامة المستعرب كراتشكوفسكي» الذي سبقت الاشارة اليه باللغتين الروسية والعربية، وكذلك دراسة عن توفيق الحكيم نشرتها سنة ١٩٥٧ باللغة الانكليزية في مجلة الآداب السوفيتية.

ولكلثوم عودة، الى جانب ابحاثها الادبية واللغوية، دراستان اثنوغرافيتان عن

العادات الشعبية عند عرب فلسطين، أولاهما عن «العادات المتصلة بالجفاف» والثانية عن «العادات الخاصة بالولادة والموقف من المولود» نشرتا باللغة الروسية في مجلة الاثنوغرافية السوفيتية سنة ١٩٣٦ . وكان لهذين الدراستين أهميتها الكبرى لا في مجال الدراسات الاثنوغرافية فحسب، بل من ناحية الدراسات اللغوية ايضا، لاحتوائهما على كثير من الأمثال والاقوال المأثورة المحلية في مختلف مناحي الحياة والزراعة، وفصول السنة، والطقس، وغير ذلك مما لم يكن مدوناً في كتاب ،ومهدداً بالضياع .

وساهمت كلثوم عودة في تأليف القسمين الأول والثاني من «القاموس العربي الروسي» بالاشتراك مع عدد من كبار المستشرقين السوفييت، وقد نشر القسم الأول منه سنة ١٩٥٥ والثاني سنة ١٩٥٧ ، كما كتبت مقدماتٍ تحليليةً لعدد كبير من المجموعات القصصية التي ترجمت الى اللغة الروسية عن كبار القصاصين العرب المعاصرين .

وكان آخر مانشر لكلثوم عودة باللغة العربية ـ فيما نعلم ـ ترجمتها الفصل المعنون «الحضارة العربية في اسبانيا» من كتاب للأستاذ كراتشكوفسكي نشر في موسكو سنة ١٩٦٥ بعنوان «دراسات في تاريخ الادب العربي» .

ومن المؤسف أن تكون معظم مؤلفات كلثوم عودة وأبحاثها نافدةً منذ عهد بعيد، او متناثرة في الصحف والمجلات التي هي ليست في متناول الباحثين دائما، وخاصةً في البلاد العربية، وعسى أن يعني أحد طلابها او إحدى دور النشر بجمع مؤلفات هذه السيدة الفاضلة بين دفتي كتاب يكون مرجعاً جليل القدر عظيم الفائدة .

كانت كلثوم عوده خير داعية للغة العربية وآدابها في الاتحاد السوفيتي، فلم تتوان عن تلبية نداء يوجه اليها، ولاتقديم مساعدة تطلب اليها عند ترجمة أي كتاب عربي الى اللغة الروسية، فضلاً عن كتابتها مقدماتٍ ضافية لتعريف عدد كبير من هذه الكتب ومؤلفيها. وكان لها عدد من الطلاب المعجبين والمحبين، وقد غرست في نفوسهم جميعاً محبة العرب واللغة العربية، تلك المحبة التي ظهرت آثارها في كتاباتهم ومؤلفاتهم .

وعلى الرغم من بقاء كلثوم عوده وثيقة الأسباب بلغتها وبلادها حتى يومها الأخير، فانها في الوقت نفسه كانت مخلصةً لوطنها الثاني روسيا، وقد اشتركت في سنة ١٩٢٧ في مسابقة عقدتها مجلة (الهلال) في موضوع «كيف نكون سعداء»، فكتبت مقالاً عن حياتها في الاتحاد السوفيتي، ونالت به الجائزة الأولى .

كانت كلثوم عودة رُوحاً لمجتمعها ورَوْحا، وكان بيتها موئلَ طلابها ومحبتهم،

وقد سمعت من غير واحد منهم أنهم كانوا يقصدونها وكل منهم يعلم علم اليقين انها ستصغي اليه بكل جوارحها ،وتعالج مشكلته بتفهم وحنان، ولذلك لقبت في أوساطهم بـ «أم المستعربين السوفييت . اما الأستاذ كراتشكوفسكي فكان يدعوها «ابنة الناصرة» .

وفي مجتمع تخضع فيه جميع الاعتبارات العلمية والاتجاهات الثقافية للظروف السياسية والتوجيهات الحزبية، استطاعت كلثوم عودة أن تبقى بعيدةً عن التيارات السياسية، والمماحكات العقائدية، خالصة لوجه العلم والثقافة،ووقفت حياتها ونشاطها لخدمة اللغة العربية، فنالت بذلك احترام كل من عرفها على اختلاف ميولهم وأهوائهم، وكانت رمزاً صادقاً ومثالاً عملياً للصداقة الحقيقية بين الشعوب .

وكانت قبيل وفاتها بسبيل كتابة مذكراتها التي تقص فيها سيرتها الحافلة، وتروي كيف استطاعت فتاة ناشئة من الناصرة، بمثابرتها وصبرها، أن تصبح أول أستاذة عربية في روسيا، ولكن المنون عاجلتها قبل تحقيق هذه الرغبة .

رحم الله السيدة كلثوم عودة فاسيليفا، وعطر ثراها، وجزاها خير الجزاء، وعوض العرب و «المستعربين» عن فقد هذه السيدة الجليلة التي ستظل ذكراها خالدةً في قلوب طلابها وعارفيها، وخدماتها ماثلةً بين دارسي لغة الضاد ومحبيها على مدى الأجيال .

(ملحق)

(أعمال كلثوم عودة فاسيليفا)

١ - **منتخبات عربية أولية**، لينغراد، ١٩٢٦، مع مقدمة بقلم كراتشكوفسكي.

٢ - **المنتخبات العصرية لدرس اللغة العربية** (١٨٨٠ - ١٩٢٥) في جزئين، **لينغراد**، ١٩٢٨ - ١٩٢٩.

٣ - «تصوير حياة المرأة العربية في القصة»، **سجلات جماعة المستشرقين لدى المتحف الآسيوي التابع لاكاديمية العلوم الروسية**، ١٩٣٠، ص ٢٩٣ - ٣٠٦.

٤ - **كتاب تعليم اللغة العربية**، منشورات المعهد الشرقي في لينغراد، ١٩٣٦.

٥ - «العادات المتصلة بالجفاف عند عرب فلسطين» (باللغة الروسية)، **المجلة الاثنوغرافية السوفيتية**، العدد الاول، ١٩٣٦، ص ١٢٩ - ١٣١.

٦ - «العادات المتصلة بالولادة والموقف من المولود عند عرب شمال فلسطين»، **المجلة الاثنوغرافية السوفيتية**، العدد الثالث، ١٩٣٨، ص ٩٣ - ٩٨.

٧ - **المنتخبات العصرية لدرس اللغة العربية** (١٨٨٠ - ١٩٤٧)، موسكو، ١٩٤٩.

٨ - **منتخبات في المراسلات الدبلوماسية**، موسكو، ١٩٤٩.

٩ - «ذكريات عن العلامة المستعرب كراتشكوفسكي» (باللغة العربية)، **مجلة الطريق**، بيروت، العدد الثامن، ١٩٥١، ص ١٧ - ٢٤.

١٠ - **حرف الجر في اللغة العربية**، موسكو، ١٩٥٥.

١١ - **نماذج من اللغة العربية** (وهي نماذج من المراسلات التجارية والرسائل واعلانات الصحف)، موسكو، ١٩٥٥.

١٢ - **القاموس الروسي - العربي**: القسم الاول من حرف A حتى E، ١٩٥٥، القسم الثاني من حرف Ж حتى Я، ١٩٥٧.

(بالاشتراك مع الاستاذة خرلمبي بارانوف وعبد الرحمن سلطانوف وفلاديمير كراسنوفسكي وعلي ليبرمان).

١٣ - **منتخبات للقراءة في البيت**، موسكو، ١٩٥٦ (بالاشتراك مع كراسنوفسكي).

١٤ - كلمة ختامية لكتاب **قصص للكتاب العرب** (باللغة الروسية)، موسكو، ١٩٥٥ (تتحدث فيها عن الطرق الرئيسية لتكون الادب العربي وعن الكتاب الذين تتضمن المجموعة نماذج من آثارهم).

١٥ - مقدمة لكتاب **كهان الهيكل** تأليف جورج حنا (باللغة الروسية)، موسكو، ١٩٥٥.

١٦ - **منتخبات للقراءة في البيت** (بالاشتراك مع كراسنوفسكي)، موسكو، ١٩٥٦.

١٧ - **نماذج من الادب العربي المعاصر**، موسكو، ١٩٥٦.

١٨ - مقدمة لكتاب **١٩ قصة مصرية** (باللغة الروسية)، موسكو، ١٩٥٧.

١٩ - **محادثات بالروسية والعربية** (بالاشتراك مع كراسنوفسكي)، الجزء الاول، موسكو، ١٩٥٧.

٢٠ - «توفيق الحكيم - الكاتب المصري» (باللغة الانكليزية)، **مجلة Soviet - Literature**، العدد الثاني، موسكو، ١٩٥٧، ص ٨٩ - ٩٠.

٢١ - مقدمة لكتاب **قصص لكتاب لبنانيين** (باللغة الروسية)، موسكو، ١٩٥٨.

٢٢ - مقدمة لكتاب **الخبز والارض والماء** تأليف ذنون ايوب (باللغة الروسية)، موسكو، ١٩٦٠.

٢٣ - «الحضارة العربية في اسبانيا» ترجمة بحث للاستاذ كراتشكوفسكي نشر في كتابه **دراسات في تاريخ الادب العربي**، موسكو، ١٩٦٥.



ميخائيل نعيمه في روسية

تحتل مدرسة المهجر مكانة فريدة في الأدب العربي، ويحتل ميخائيل نعيمة بين أدباء هذه المدرسة مكانة فريدة ايضا. فأدباء المهجر، شعراء كانوا أم كتابا، تجمعهم صفات مشتركة وظروف متشابهة، وثقافة هي ـ على تفاوتها ـ من لون واحد. وهم جميعاً فئة هاجرت في مطلع القرن العشرين من سورية ولبنان، وقصدت امريكا الشمالية والجنوبية، بحثاً عن حياة جديدة وطلباً للرزق، إو فراراً من الاضطهاد السياسي.

وهذه المكانة «الفريدة» التي يحتلها أدب المهجر مردّها بطبيعة الحال الى أنها مقتصرة على جيل واحد من الأدباء لن يتكرر: آباؤهم عرب عاشوا وماتوا في الموطن. فاذا ظهر بينهم أدباء أو شعراء فانهم ينتمون الى المدارس والتيارات الأدبية السائدة في عهدهم وفي بلدهم. وأبناؤهم نشأوا في امريكا، وتعلموا فيها، وصهرتهم بوتقة الحياة في الموطن الجديد الذي اختارته لهم الاقدار. فاذا نبغ بينهم أدباء أو شعراء فانهم يكتبون بلغة هذا الوطن الجديد ويفكرون بعقليته، فقد انقطعت صلتهم بوطن آبائهم ولغة أمهاتهم أو كادت، على أنها منقطعة حتماً في الجيل الذي يليهم.

اما ذلك الجيل الذي نشأ وترعرع في سورية ولبنان، ثم انتقل من وطن الى وطن، ومن بيئة الى بيئة، ومن لغة الى لغة، ثم ألهبت الغربة حنينه الى الوطن، وبدّلت الهجرة منطقه في الحياة، وعرف وجوهاً من الحضارة جديدة، وألواناً من الثقافة والأدب لاعهد له بها من قبل ـ أما ذلك الجيل فهو فريد حقاً، لأنه مزيج من الثقافتين، موزع الحب بين وطنين، حائر بين مجتمعين وبيئتين، كثيراً مايكتب بلغتين ويفكر بعقليتين، ويكاد يشعر بقلبين. جيل لايشابه الذي سبقه، ولن يشابهه الجيل الذي أعقبه، واغلب الظن أنه لن يظهر له في تاريخ الأدب العربي مثيل.

وينفرد ميخائيل نعيمه بين هذا الجيل «الفريد» من الادباء بميزة إضافية، وصفات

اختص بها دون سواه، وهي انه اغترب قبل هجرته الى أمريكا في بلد يختلف عنها كل الاختلاف، وهو روسيا، وتعلم في مطلع صباه لغة أخرى هي اللغة الروسية[1]، وتأثر الى حد بعيد ببيئة خاصة، وثقافة من لون مختلف، وتجارب لم يمر بها غيره من أدباء المهجر. فقد قضى نعيمه قرابة خمس سنوات من مطلع شبابه في روسيا، فكانت هذه السنوات ذات أثر واضح في تفكيره وتكوينه، قبل أن يهاجر هجرته المشهورة الى أمريكا، ويطير صيته علماً من أعلام المدرسة الأدبية التي ظهرت فيها. ولعل ميخائيل نعيمه في هذه الناحية (وهي إجادة اللغة الروسية والتضلع من آدابها والتأثر بها) لا ينفرد بين أدباء المهجر وحدهم، بل بين أدباء العربية جميعا، محدثيهم والقدامى.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي ظهرت عن أدب المهجر في السنوات الأخيرة، فأن هذا الجانب من حياة ميخائيل نعيمه وأدبه بقي - لأمرٍ ما - مهملاً، فلم تلقَ حياتهُ في روسيا، وتجاربه فيها، وأثر الأدب الروسي في إنتاجه الأدبي، العناية التي تستحقها، باستثناء فصل ممتع، ولكنه مختصر وغير شامل، عقده المستشرق الروسي العلامة.كراتشكوفسكي بعنوان «طالب المدرسة الدينية في بولتافا» في كتابه «مع المخطوطات العربية».[2] الاّ أن نعيمه نفسه قد سرد بأسلوبه الطلي الآسر ذكرياته في روسيا بكثير من التفصيل في سيرته التي كتبها عند بلوغه السبعين[3]، وكذلك في كتابه «أبعد من موسكو وواشنطن»[4]. ولميخائيل نعيمه أيضا حديث أدلى به في سنة ١٩٤١ الى جريدة «المكشوف» البيروتية عن «أثر أدباء روسية في نفسه»[5]، كما أنه كتب مقالة بعنوان «روسيا التي عرفتها» نشره في مجلة «الهلال» سنة ١٩٤٨، ثم ضمّنه كتابه «النور والديجور»[6] وعرض فيه الأثر الذي تركته روسيا في فكره وعقله وقلبه.

بدأت صلة ميخائيل نعيمه بروسيا واللغة الروسية منذ عهود صباه، حيث بدأ دراسته الابتدائية في قريته «بسكنتا». وكانت روسيا القيصرية، وهي تعتبر نفسها حامية الطائفة الاورثودكسية في الشرق، تتبارى مع الفرنسيين والانكليز والامريكيين

---

(١) تقتضي الدقة ان نذكر ان نسيب عريضة وعبد المسيح حداد من اعضاء «الرابطة القلمية» في نيويورك، زاملا ميخائيل نعيمه في مدرسة المعلمين الروسية في «الناصرة» حيث كانت الدراسة باللغة الروسية. ولكنهما لم يسافرا مثله الى روسيا، ولم تمر بهما التجارب التي مرت به فيها.

(٢) انظر الترجمة العربية، منشورات «دار التقدم»، موسكو (بلا تاريخ)، ص ١١٦.

(٣) «سبعون - حكاية عمر»، بيروت، في ثلاثة اجزاء صدرت على التوالي في ١٩٥٩ و ١٩٦٤ و ١٩٦٦.

(٤) «ابعد من موسكو ومن واشنطن»، بيروت، ١٩٦١.

(٥) «المكشوف»، السنة السابعة، العدد ٣٢٥، بيروت، ١٥ كانون الاول ١٩٤١.

(٦) «النور والديجور»، بيروت، الطبعة الرابعة، ص ٦٦.

في فتح المدارس في سورية ولبنان وفلسطين، ولذلك أسست أيضا مدرسة للمعلمين في مدينة «الناصرة» بفلسطين لسد حاجة مدارسها في المنطقة الى المعلمين. وما كاد الطفل ميخائيل ينهي سنته الدراسية الاولى في مدرسة القرية الساذجة حتى فتحت «الجمعية الروسية الامبراطورية» مدرسة ابتدائية في «بسكنتا» على غرار مدارسها الاخرى، فانتقل اليها وبدأ بتعلم اللغة الروسية فيها وهو في السنة الثالثة الابتدائية، ولما أتم دراسته فيها قررت الحكومة، لتفوقه وذكائه، ارساله للدراسة في «دار المعلمين الروسية» في الناصرة، وذلك قبل أن يكمل الثالثة عشرة من عمره. وكان أقصى ما يطمح اليه طالب في مدرسة القرية أن يصبح مدرساً أو مديراً لاحدى المدارس «المسكوبية» كما كان الناس يسمونها.

وكانت دار المعلمين الروسية في الناصرة تختار في كل عامين واحداً من طلابها المتفوقين لمتابعة دروسه في روسيا على نفقة الجمعية الامبراطورية لفلسطين. ولم تعد أماني نعيمة مقصورةً على العودة الى قريته مدرساً في مدرستها أو مديراً، وانما أخذ يتطلع الى الفوز ببعثة دار المعلمين للدراسة في روسيا، فيقول في مذكراته:

> «كنت أنام وأقوم والسفر الى روسيا هو الأمنية الكبرى الكامنة في أعمق أعماق قلبي. إنه لفخر عظيم أن أكون المختار بين رفاقي العشرين، وانها لفرصة نادرة أن أكتسب المزيد في بلاد أنجبت تولستوي»[٧].

وكان نعيمة كلما ازداد معرفةً باللغة الروسية ازداد اقبالاً على المطالعة بها، وهو يروي أنه طالع في الناصرة بعض روايات «جول فرن» مترجمة الى الروسية، وبعض قصص تشيخوف وتولستوي، وانه قرأ «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي حتى آخرها، وان لم يفهم نصفها، ولكن مافهمه كان كافياً لاضرام نار الشوق في نفسه الى التعمق في أصول اللغة الروسية وآدابها.

درس نعيمة في الناصرة أربع سنوات، وكان الأول بين المتخرجين، وبذلك تحقق حلمه العزيز في السفر الى بلاد تولستوي. وهو يقول إن اللحظة التي أعلن فيها مدير المدرسة اختياره لهذه البعثة كانت أسعد لحظة في حياته[٨].

وكان ميخائيل نعيمة يوم قصد روسيا في عام ١٩٠٦، في السادسة عشرة من

---

(٧) «سبعون»، الجزء الاول، ص ١٤١.

(٨) «ابعد من موسكو ومن واشنطن»، ص ٧٠.



ميخائيل نعيمة في روسيا

عمره، واقام فيها حوالي خمس سنوات، حيث دخل «السمينار الروحي» في مدينة «بولتافا» من اعمال اوكرايينا. و «السمينار» مدرسة دينية ثانوية أو هي فوق الثانوية بقليل، ومدة الدراسة فيها ست سنوات، الأربع الاولى منها مخصصة للدراسة العامة مع بعض المواد الدينية. والسنتان الاخيرتان للطقوس الدينية والعقائد الكنسية، وكانت الكنيسة الاورثودكسية هي التي تنفق على هذا النوع من المدارس في روسيا القيصرية. وكان معظم الطلاب في السمينار الذي أرسل اليه نعيمة من أبناء رجال الاكليروس، وكلهم من ولاية بولتافا، مع نفر قليل من الأجانب بينهم طالب سوري أرسل اليها قبل نعيمة بسنتين، وكان له خير رفيق ودليل في بداية عهده في هذا العالم الجديد الغريب.

ويروي نعيمه أنه لم يمض عليه وقت طويل حتى وجد نفسه متمكناً من اللغة الروسية، يتكلمها بطلاقة ويكتبها بسهولة، بل وينظم الشعر بها، ولم يعد يخامره اي شعور بالغربة، وبات على قوله «كما لو كنت قدولدت وترعرعت في روسيا، اعرف من أخلاقها وتاريخها مثل مايعرفه رفاقي وأكثر». واخذ يقرأ روائع الأدب الروسي على نطاق واسع، ويتذوق مواطن العظمة والجمال فيها بلغتها الأصلية، وهو يقول في حديث له: «وقفت معظم وقتي على المطالعة، ورحت أطالع بنهم عظيم. كنت نهماً الى أدب حق. ومالبثت أن شعرت من قراءاتي الروسية بشبع يتولد منه حالا الجوع...»[٩].

فمن أقاصيص «غوغول» - «أمسيّات في مزرعة بالقرب من ديكانكا»، ومن «الأرواح الميتة»، عرف الكثير عن سذاجة الفلاح الروسي وتقواه وصبره وطيب عنصره ومحبته لأرضه، مثلما عرف عن خبث مستغليه وجشعهم وقسوتهم. ومن شعر «بوشكين» و «ليرمنتوف» و «نكراسوف» أطل على الكآبة العميقة في النفس الروسية، ومن روايات «تورغينيف» دخل قصور النبلاء وكبار الملاكين وتعرف على ماانطوت عليه نفوس معظمهم من ايمان بأنهم ولدوا وينبغي أن يبقوا الى الأبد فوق غيرهم من الناس. وفي روايات «دوستويفسكي» عايش المجرمين والمنفيين في مجاهل سيبيريا، والمهانين والمنبوذين في عاصمة القياصرة، وتحسس ايمان «دوستويفسكي» بالأمة السلافية ورسالتها الانسانية، وبمستقبل أفضل لروسيا. وكشف له «بيلينسكي» - أكبر النقاد الروس - عن مواطن الصدق والقوة، والخير والجمال، في العمل الادبي، وسمو وظيفة الاديب، وسلط «غوركي» أمام ذهنه أنواراً كشافة على

---

(٩) جريدة «المكشوف»، العدد سالف الذكر.

نواحي مظلمة من الحياة الروسية، حياة المشردين والمحرومين والناقمين على نظام يعيشون في ظله، بل على كل نظام، وفتن نعيمه بـ «تشيخوف» وتصويره الدقيق لجميع نواحي الحياة الروسية بكل مافيها من تفاؤل وتشاؤم، وانبساط وانقباض، وثروات وثورات[10].

اما «تولستوي» فقد كان لايزال حياً عندما وصل نعيمة الى روسيا، وكان يتتبع أخباره وكتاباته، وفيها رأى كيف يهدر الدم الروسي أنهاراً في سبيل الدفاع عن الوطن، والآلام التي تجرّها الحروب، كما عرف نزعة النفس الروسية الى السلم والصفح والمحبة، والبحث عن الحياة في الموت، وعن النظام في الفوضى، وعن الخالد في العرضي. ولما نشرت الجرائد خبر هجره بيته شعر أن بين الناس من بامكانهم أن يحققوا فكرة سامية، ويطبقوا أفعالهم على اقوالهم، فكان له ذلك تعزيةً كبرى. وهو يروي انه مايزال يذكر يوماً من أيام شباط سنة ١٩١٠، حين خرج للنزهة:

«... فاذا ببائع جرائد ينادي بأعلى صوته: وفاة تولستوي! اختطفت منه (التلغراف) وجمدت في مكاني، وجمدت دمعتان في عيني..»[11].

جعل هؤلاء الكتاب من روسيا كتاباً مفتوحاً أمام نعيمة، يقرأ فيه ماضيها وحاضرها، ويستشف معالم مستقبلها، ويتعرف الى نظمها وعاداتها وتقاليدها، ويتبين مواطن الضعف والقوة والقبح والجمال في حياتها، ويسيح في أرجائها المترامية، وكانت لهم جميعا آثار عميقة في أدبه، تبدو واضحة في كتاباته.

والى جانب الادب الروسي، كان للموسيقى الروسية أثر كبير في نفس ميخائيل نعيمة، وتكوين ذوقه الفني، وهو يقول: «ولا أزال أذكر ثلاث فطاحل من الموسيقيين اشتهروا أيام كنت في روسيا: كرساكوف، وتشايكوفسكي، وموسورگسكي». وأنت تسمع في الموسيقى الروسية نغمة شوق وحنين أبدي الى شيء مجهول، نغمة لاتلمس ولاتحلل[12].

وفي روسيا نظم ميخائيل نعيمه قصيدته المشهورة «النهر المتجمد» باللغة الروسية، مخاطباً نهر «سولا» عندما كان يقضي إجازةً في مدينة «رومني» التي تقع على هذا النهر في سنة ١٩١٠، ثم ترجم هذه القصيدة الى اللغة العربية شعراً في سنة ١٩١٧ ـ وهو في نيويورك ـ قائلاً في مطلعها:

---

(١٠) «ابعد من موسكو ومن واشنطن»، ص ٧٥ ـ ٧٨.

(١١) «المكشوف»، العدد سالف الذكر.

(١٢) المرجع نفسه.

يانهر هل نضبت مياهُك فانقطعتَ عن الخريرْ ؟
ام قد هرمت وخار عزمك فانثنيتَ عن المسير ؟

ويقول نعيمه إنه شاء أن يرمز بالنهر الى روسيا، فراح، بعد أن وصف النهر المكبل بالجليد، يخاطبه قائلا إن الربيع آتٍ لاريب فيه، وهو سيفكّة من أصفاده، وختم القصيدة بمقطع وجهه الى «أمّنا روسيا» يسألها فيها متى يذوب جليدها ويأتي ربيعها، فيبصر العامل والفلاح فيها اياما يتذوق فيها شيئا من العدل والكرامة. اما النص العربي، فانه استبدل بالمقطع الاخير مقطعا يخاطب فيه قلبه بدلاً من روسيا فيقول:

قد كان لي، يانهر، قلب ضاحك مثل المروج
حر كقلبك فيه اهواء وآمال تموج
قد كان يُضحي غيرما يمسي ولايشكو الملل
واليوم قد جمدت كوجهك فيه امواج الامل
يانهر ذا قلبي أراه، كما اراك، مُكبّلا.
والفرق انك سوف تنشط من عقالك وهو . . لا

ان قصيدة «النهر المتجمد» تُعد - بلا ريب - من أروع قصائد نعيمه العربية[١٣]، وهي بكامها من وحي الطبيعة الروسية، ومنظر الأنهار المتجمدة من المناظر المألوفة في روسيا شتاءً[١٤]. على أن الاصل الروسي الذي نظمت به يدل على مبلغ تأثر الفتى ميخائيل نعيمه بالبيئة الروسية التي عاش فيها، وسرعة اندماجه بها، حتى أصبح يخاطب روسيا قائلا: «أمّنا روسيا»، ويتألم لحالة العامل والفلاح فيها. وذلك يؤكد ماذكره عن نفسه من عدم الشعور بالغربة هناك، كما لو كان ولد وترعرع فيها.

كانت روح الثورة في روسيا قد أخذت تزداد انتشارا بين الناشئة والمثقفين منذ ثورة سنة ١٩٠٥، وكان الطلاب في المدارس قد نالوا على اثر تلك الثورة شيئاً من الحريات، ولكن ذلك لم يدم طويلاً وعادت السلطات الى التضييق على الطلاب والحد من حرياتهم والتشديد في معاقبتهم، فعاد التذمر الى صفوفهم. ويروي نعيمه أن الأمر كان كذلك أيضا في المدارس الروحية وفي «السمينارات» حيث زادت القيود على خروج الطلاب من المدرسة، وساء الطعام الذي يقدم لهم، وانخفضت جودة الاقمشة التي تصنع منها ملابسهم، واشتدت الرقابة عليهم داخل المدرسة

---

(١٣) انظر نص القصيدة كاملا في ديوان نعيمة «همس الجفون»، بيروت، ١٩٤٣، ص ١٠.

(١٤) ذكرت الدكتورة نادرة جميل سراج في كتابها «شعراء الرابطة القلمية» ان نعيمه في قصيدته «النهر المتجمد» يصف «طبيعة لبنان في فصل الشتاء ومايعترى الانهار من تجمد مياهها . . الخ» . ، وهو خطأ واضح . انظر كتابها سالف الذكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، ص ١٩٩.

وخارجها، وكثر الجواسيس بينهم[١٥]. وكان نعيمه في سنته الرابعة في «السمينار» حين دبر الطلاب إضراباً في المدرسة وقام خطباؤهم منددين بالادارة ومطالبين بحقوقهم السابقة وحرياتهم. وعلى الرغم من أن نعيمه لم يكن من مدبري هذا الاضراب، بل انه لم يكن له علم سابق به، فانه حُمل حملاً على إلقاء كلمة في الطلاب المضربين، وكانت النتيجة أن صدرت الاوامر بغلق المدرسة بوجه طلاب الصف الرابع الذي عُدَّ مسؤ ولاً عن التحريض على الاضراب، لمدة عام دراسي كامل. أما المحرضون الاصليون - وقد أُدخل نعيمة في عدادهم - فقد طُردوا من المدرسة نهائيا، ولكن سُمح لهم بتقديم امتحاناتهم النهائية لتلك السنة في شهر تموز ١٩١١، على ان يستعدوا لها خارج المدرسة. وكان نعيمة مستعداً للامتحان، وقد شق عليه ان ينتظر موعده حتى تموز، فطلب أن يُسمح له بتقديم امتحانه ومغادرة روسيا فوراً، فأجيب الى طلبه لانه كان لايزال يتمتع باحترام أساتذته ومحبتهم، فأجتاز الامتحان وتسلم شهادته. ويقول نعيمة: «وقفلت راجعاً الى بلادي في أوائل أيار من ذلك العام، وليس في قلبي اقل حقد على روسيا بسبب مالقيته من صعوبات في آخر سنة أقمتها فيها. بل على العكس لقد كنت أشعر أني أودّع بلاداً تغلغلت ثقافتها في دمي، وتمكنت لغتها من فكري ولساني الى حد أن كادت تطغي على لغة ابائي وأجدادي، وارتسمت مناظرها وأغانيها ومشكلاتها في ذهني فكأنما هي بعض مني»[١٦]

ويروي الاستاذ كراتشكوفسكي[١٧]، وهو يسرد ذكرياته عن رحلته الى سورية ولبنان بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٠، أن أحد معلمي مدرسة الجمعية الفلسطينية - الروسية كان قد حدثه عن طالب نابه من خريجي تلك المدرسة أُرسل لاكمال تعليمه في روسيا، وبعد أن عاد الى بلاده بأعوام عديدة تكونت لدى كراتشكوفسكي ومساعدته السيدة كلثوم عوده فاسيليفا في سنة ١٩٢٨ فكرة تأليف كتاب للقراءة العربية في شكل مختارات من الأدب العربي المعاصر مع مقدمة قصيرة عن أصحابها[١٨] وكانت خلال ذاك قد ظهرت في الأدب العربي أسماء جديدة كثيرة لم يتمكنا من الحصول على تراجم أصحابها جميعا. ويقول كراتشكوفسكي: «وقد احزننا هذا بصفة خاصة عندما كان الأمر متعلقاً بأحد النقاد الناشئين الذي شعرنا

---

(١٥) «ابعد من موسكو ومن واشنطن»، ص ٨٤.

(١٦) المرجع السابق، ص ٨٨.

(١٧) كراتشكوفسكي، اغناتي، «مع المخطوطات العربية»، موسكو (بلا تاريخ)، ص ١٢٠ ومابعدها.

(١٨) صدر هذا الكتاب في موسكو في جزئين بعنوان «المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية ١٨٨٠ - ١٩٢٥»، اعداد السيدة كلثوم عودة فاسيليفا مع مقدمة للاستاذ كراتشكوفسكي.

على الفور بأن لديه جرأة وقوة كبيرة. وقد خشيت أن أستسلم لانطباعاتي الأولى عنه الا أنني شعرت بأن أفكاره تتضمن صدى أفكار النقاد الروس التي لم تكن معروفة الا قليلاً في الأدب العربي في ذلك الوقت». وكان كل مايعرفانه عن هذا الكاتب ـ واسمه ميخائيل نعيمه ـ انه «مواطن من سوريا عاش، على ماسمع، في امريكا».
وبعد محاولات عديدة كتب الاستاذ كراتشكوفسكي الى إدارة تحرير إحدى الجرائد العربية في نيويورك علها تهديه الى عنوان ميخائيل نعيمه أو تزوّده نبذة عنه. وكم كانت دهشته كبيرةً حين تسلم الجواب عن استفساره مكتوباً باللغة الروسية الخالصة، وبقلم نعيمه نفسه. وعرف كراتشكوفسكي حينئذ أن الطالب الذي حدثه عنه معلم مدرسة بسكنتا «المسكوبية» قبل ثمانية عشر عاماً لم يكن سوى ميخائيل نعيمه نفسه. وفي كتابه الى كراتشكوفسكي أوضح نعيمه دور الادب الروسي في مؤلفاته قائلا:

> «إن الموضوع الذي كان محبباً لي منذ أن كنت في الناصرة هو الادب.. وفي المدرسة الدينية غرقت في الادب الروسي وانفتح امامي تماماً عالم جديد مملوء بالعجائب. وقد قرأت بنهم، ولم اترك كاتباً روسياً أياً كان إلاّ وقرأته.. وعندما غادرت روسيا صدمت بركود الادب في كل العالم المتكلم بالعربية. وأدى هذا الى انقباض نفسي وكان مؤلما الى اقصى الحدود...»

ويشير كراتشكوفسكي ايضا الى التشابه الموجود بين عنواني مسرحية نعيمه «الآباء والبنون»[19] ورواية الكاتب الروسي الشهير «ايفان تورغينيف» بنفس العنوان، قائلا: «واشتدت انطباعاتي عن هذا الناقد العربي الشاب عندما صدرت في سنة ١٩٢٣ مجموعة مقالاته تحت عنوان ذي مغزى كبير هو «الغربال»، فان مؤلفه لم يخش أن يغربل به المكانة[20] المعترف بهم لدى الجميع. وفي «الغربال» أعيد طبع مقدمة مسرحية «الآباء والبنون» غير المعروفة لنا والتي كانت ترن في عنوانها من جديد نغمة توافق مع الادب الروسي»[21]. على أن التشابه بين الروايتين لم يتعد العنوان، وهذا يفسره نعيمه قائلاً:

> «.. وقد اخترت لها ذلك العنوان غير غافل عن انه عنوان رواية مشهورة للكاتب الروسي تورغينيف ولم أجد اي بأس في

---

[19] «الأباء والبنون» ـ رواية تمثيلية، طبع شركة الفنون، نيويورك، ١٩١٧.
[20] كذا وردت في الترجمة العربية، ولعلها خطأ مطبعي صوابه «مكانة» او «ذوى المكانة».
[21] «مع المخطوطات العربية»، ص ١٢٣.

> ذلك. فالعنوان ليس مبتكراً، بل لعله اول مايخطر في بال اي كاتب يريد أن يعالج قضية الصراع مابين جيلين. فهو من هذا القبيل كعنوان «الشعر والشعراء» و «الشرق والغرب» و «الحياة والموت» وماكان على شاكلتها. فالمهم في مثل هذه القضايا التي تتشابه فيها الموضوعات والعناوين ان لاتتشابه معالجة الموضوع. ولاتشابه على الاطلاق في معالجتي لصراع الآباء والبنين ومعالجة تورغينيف، لا من حيث الاشخاص، ولا من حيث الأحداث، ولا من حيث مايدور بين الأشخاص من حوار. وليس الامر كذلك في العناوين المبتكرة التي لاتخطر في بال اي كان. فلو انني ألفت كتاباً واخترت له عنوان «رسالة الغفران» ـ مثلا ـ لكان اختياري انتحالا مفضوحا. . .»[٢٢]

ولانعلم هل كان ميخائيل نعيمه الذي غادر روسيا القيصرية في سنة ١٩١١ طالباً صغيراً لايعرفه أحد، يُقدّر أنه سيعود اليها بعد زيارته الأولى بنصف قرن من الزمان، وقد أصبح من اشهر أدباء العربية وأبعدهم صيتاً، وانه سيجدها وقد أصبحت جمهورية سوفيتية اشتراكية، ومرت باكبر تجربة في تاريخها، وتبدلت من حال الى حال.

عاد نعيمه الى روسيا بعد فراق ستة وأربعين عاما، بدعوة من اتحاد الكتاب السوفييت سنة ١٩٥٦، ليزور «بولتافا» وسمينارها ـ وقد تحول الآن الى معهد زراعي ـ ويقف على مراتع صباه ومغاني شبابه الاول، ثم يشهد ماطرأ على روسيا التي أحبها يافعاً من تحول خطير في كل ميدان من ميادين حياتها، ويطّلع بنفسه على ماجدّ فيها خلال هذه الفترة الطويلة. وكان كتابه «أبعد من موسكو ومن واشنطن» من وحي تلك السفرة، وان كان يروي فيه كثيراً من ذكريات أيامه الأولى في روسيا أيضا.

وقام ميخائيل نعيمه بزيارة ثانية الى الاتحاد السوفيتي في شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٦٦، للاشتراك في الاحتفالات التي اقيمت بمناسبة الذكرى الثمانمئة لميلاد الشاعر الجورجي «روستافيللي»، وللمرة الثانية كان الطالب اللبناني

---

(٢٢) ميخائيل نعيمه، «سبعون»، ج ٢، ص ٦٠، على ان هذا، في رأينا، تفسير فيه نظر. وقد كان يصح اقتباس عنوان غير مبتكر لو لم يكن العنوان المقتبس لكتاب سابق مشهور جدا. ولايجرؤ كاتب روسي اليوم ان يضع على رواية جديدة يكتبها عنوان «الحرب والسلم» او «الجريمة والعقاب» او «الام». فهذه وان كانت عناوين غير مبتكرة الا انها تعيد الى الذهن فورا كتبا مشهورة اخرى.

المطرود من سمينار «بولتافا» في روسيا القيصرية موضع حفاوة الاوساط الادبية واوساط المستشرقين في الاتحاد السوفيتي[٢٣]. ويوم دُعي للتحدث الى الشبيبة السوفيتية قال لهم :

> «لدى زيارتي الاولى لروسيا لم اكن احسب ان هذه الزيارة ستحدث انقلاباً في حياتي. اما الآن فروسيا هي وطني الثاني . . . انني أحب هذه البلاد، أحب شعبها ولغتها وأدبها، وآمل انكم بتعلمكم لغتنا ستحبون شعبنا وتفهمون أحلام العرب وآمالهم»[٢٤]

ان الاستاذ ميخائيل نعيمه اليوم آخر اعلام المدرسة المهجرية (في امريكا الشمالية)، وعلى الرغم من بلوغه الثمانين فان نشاطه الفكري مايزال على قوته، وانتاجه الادبي على غزارته. مد الله في عمر فتى المهجرين، وأديب اللغات اللغات الثلاث، ومستشار «الرابطة القلمية»، وناسك الشخروب، ومفخرة الضاد، وأغنى الأدب العربي بالمزيد من ينبوع فكره الصافي وأدبه الرفيع.

(كتب في كانون الثاني ١٩٦٧)

---

(٢٣) نقلت وكالة (نوفوستي) السوفياتية للانباء بمناسبة زيارة ميخائيل نعيمة الى الاتحاد السوفيتي مقالا اشتركت في كتابته الكاتبة أ. موخينا، والكاتب سميرنوف، تناولا فيه جانبا من حياة ميخائيل نعيمة ودراسته في روسيا وحبه للادب الروسي، كما تحدثا عن مقابلة اجرياها معه. وقد نشرت جريدة (البلد) ترجمة المقالة الى العربية بعنوان «ميخائيل نعيمة يستعيد ايامه الروسية». انظر: جريدة (البلد)، بغداد، ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٦.

(٢٤) اذاعت هذا التصريح وكالة (نوفوستي) السوفياتية، ونقلته الصحف العربية. انظر ـ مثلا ـ جريدة (البلد) البغدادية في عددها الصادر في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦.



ايليا اهرنبورغ والصهيونية



واخيرا، وبعد حياة حافلة، مزدحمة بالاحداث، قضى ايليا اهرنبورغ، الكاتب الروسي الشهير الذي شغل اوساط الشعر والكتابة، والصحافة والسياسة، في الاتحاد السوفيتي وخارجه اكثر من نصف قرن من الزمان، عاصر خلالها الحرب العالمية الاولى، والثورة البلشفية، والحرب العالمية الثانية، وعهد ستالين، وفترة «الذوبان»، وحكم خروشوف، وتنحيته، وترك في الدنيا دوياً عالياً، وملأها مقالات وقصصاً، واختلفت فيه الآراء، ونال تقدير السلطات، وتعرض لغضبها، وقرأ كتبه الملايين من الناس بعشرات اللغات.

وربما كان اهرنبورغ أوسع الكتاب الروس المعاصرين شهرةً داخل بلاده وخارجها، ولولا منح «باسترناك» جائزة نوبل للآداب، ومارافق ذلك من ملابسات أحدثت ضجة ادبية وسياسية، ثم منح «شولوخوف» الجائزة نفسها، لكان اهرنبورغ - منذ وفاة ماكسيم غوركي الذي ينتمي الى جيل آخر - اشهر الكتاب الروس المعاصرين على الاطلاق.

وهنالك ناحية تعني القارىء العربي من أمر هذا الكاتب الروسي الكبير بصورة خاصة، فضلاً عن كونه كاتباً انسانياً عميق الاحساس، رهيف الذوق، وخصماً لدوداً للاستعمار، وهي ان اهرنبورغ كان يهودياً، ولكنه مع ذلك كان من أشد خصوم الصهيونية. وقد حاربها، وكتب الكثير في تفنيدها وفضح أباطيلها، وتعريف القراء السوفييت بحقيقتها، وتحذير يهود الاتحاد السوفيتي من شرورها. ويذكر «هاريسن ساليزبوري» - وهو صحفي أمريكي شهير كان مراسلاً لجريدة «نيويورك تايمس» في موسكو سنوات طويلة - في كتابه «يوميات موسكو» ان اهرنبورغ كان معروفاً بعدائه الشديد للصهيونية[1]. ويؤيد ذلك أيضاً كل من عرفه في الفترة التي

---

(1) Salisbury, Harrison E., *Moscow Journal*, Chicago, 1961, P. 314.

أعقبت اقامة الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي.

ولئن كانت أبواق الدعاية الصهيونية والاستعمارية تتباكى بدموع التماسيح على يهود الاتحاد السوفيتي، وتلفق الشائعات عن اضطهادهم بقصد إحراج الحكومة السوفيتية علها تسمح بهجرة اليهود السوفييت الى تلك الارض المغتصبة، فان كاتباً عظيماً مثل اهرنبورغ كان في شخصه وماناله من تكريم أمته خير دليل يحبط تلك الدعايات، كما كان في مواقفه المناوئة للصهيونية، واندفاعه في محاربتها قدوةً ليهود الاتحاد السوفيتي، وداعيةً الى القول بأن الصهيونية ليست حلاً لمشكلة اليهود، حيثما كانت لهم مشكلة، بل انها في كثير من الحالات، كانت سبباً في خلق المشاكل والمتاعب لهم.

وكان اهرنبورغ يتحدث عن نفسه كروسي وليس كيهودي، وكانت كتاباته وتعليقاته تحفل دائماً بانتقادات قوية لسلوك اليهود، وشجب صريح للصهيونية. ولكنه كان يحارب التمييز ضد اي جنس أو لون من البشر، كما يحارب التمييز ضد اليهود - أو مايسميه الغربيون خطأً «معاداة السامية» - وقد أعلن في حديثٍ أذاعه من راديو موسكو بمناسبة بلوغه السبعين انه طالما بقيت «معاداة السامية» قائمة فانه سيحمل في جواز سفره صفة اليهودي. وكتب في مناسبة اخرى:

«لقد نشأت في موسكو، وان لغتي الاصلية هي الروسية، واني لاأعرف (اليدش)[2]. إنني روسي، ومواطن سوفيتي، ورجل يعتز بالثقافة الاوربية، ولكن أجدني الآن مرتبطاً باليهودية بسبب شقاء الشعب اليهودي».

فما هي الوسيلة التي كان اهرنبورغ يراها كفيلةً بازالة شقاء ذلك الشعب؟

نشر في مارت سنة **١٩٤٩** مقالة هامة بيّن فيها أنه يرى حل مشكلة اليهود في العالم يكمن في تحقيق الاشتراكية في البلاد التي يكونون فيها وليس في تأسيس دولة يهودية على أرض العرب. وقد أحدثت هذه المقالة ضجة كبيرة في الأوساط الصهيونية التي غاضها أن يشهد عليها شاهد من اليهود في مكانة اهرنبورغ.

ولايزال الدبلوماسيون والصحفيون الذين كانوا في موسكو في تلك الفترة يذكرون الاهانة التي وجهها اهرنبورغ الى «غولدا مئير» وزيرة اسرائيل المفوضة في موسكو أوانذاك. وقد سجل تلك الحادثة في مذكراته «ولتر بيدل سمث» الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في الاتحاد السوفيتي.

و «غولدا مئير» التي اصبحت فيما بعد وزيرةً للخارجية ورئيسةً للوزراء، روسية

---

(٢) اليدش لغة يهود المانيا واوربا الشرقية، وتكتب بالاحرف العبرية.

هاجرت الى امريكا مع ابويها وهي في الثامنة من عمرها، ومنها نزحت الى فلسطين بعد سنوات، ولكنها لاتتكلم الروسية. وفي احدى الحفلات الرسمية في موسكو كان السفير الامريكي يحادثها. فشكت اليه قسوة مقالات اهرنبورغ ضد اسرائيل والصهيونية، وأعربت عن رغبتها في التعرف عليه زاعمةً انها تستطيع إقناعه بأنه مخطيء في عداوته لاسرائيل. ويروي السفير انه كان قد شاهد اهرنبورغ في الحفلة قبل مدة وجيزة، فطلب الى أحد موظفيه الدبلوماسيين أن يبحث عنه ويدعوه للقاء غولدا مئير. وماهي الاّ دقائق حتى حضر اهرنبورغ، فتم التعارف بينهما، وكان يكلمها بالروسية بواسطة مترجم. وبعد محادثة قصيرة سألت غولدا مئير فيما اذا كان اهرنبورغ يتكلم الانكليزية، ولعلها أرادت ان تختصر الطريق فتحادثه مباشرة. فنظر اليها اهرنبورغ لحظة ثم اجاب بالروسية: «إنني لاأتكلم الانكليزية، كما انني لأحترم يهودياً روسياً لايتفاهم الا بها».

ويعلق بيدل سمث قائلا: ان الوزيرة - التي ولدت في روسيا ولكنها قضت معظم حياتها في الولايات المتحدة وكندا - تأثرت كثيراً وانزعجت بطبيعة الحال، ولكن تصرف اهرنبورغ لقنها درساً لم تكن لتصدقه أو تقبله من أي مصدر آخر»[٣].

ولاشك في ان سيرة كاتب مثل اهرنبورغ وأدبه لايمكن الالمام بهما في بحث عابر، فذلك يتطلب دراسة بل دراسات مستفيضة، فقد كان اهرنبورغ كاتباً واسع الأفق، متعدد الجوانب، مرت سيرته - الشخصية والادبية - بمراحل مختلفة، وطرأت عليها تطورات عديدة، وعالج في كتاباته شتى فنون الادب من شعر وقصص وتعليقات صحفية ومقالات سياسية، وأسهم في الحياة السوفيتية الأدبية والسياسية في مختلف مراحلها بنشاط عظيم ونتاج غزير. وكان خلال هذه المراحل جميعاً مندمجاً فيها اندماجاً كلياً، وكان - كما قال عن نفسه في مذكراته التي نشرت في سنة ١٩٥٨ - مشغولا بـ (الحاضر) دائماً، لايلتفت الى الوراء، ويترك المستقبل للمستقبل، وكأنه يعمل بقول الشاعر العربي (الذي لم يسمع به حتما):

مامضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وقد ظهر انشغال اهرنبورغ الكامل بأحداث الساعة اكثر ماظهر، خلال الحرب العالمية الثانية، وانه كان يدرك تمام الادراك ان كتاباته التي كرسها للحرب لم تكن أسفاراً خالدة، ولم تكن - على تعبيرة - منحوتة من (شمع)، وقال:

---

(٣) Smith, Walter Bedell, *My Three Years in Moscow*, Philadelphia & New York, 1950, P. 267.

«ان الكتب العظيمة ستأتي فيما بعد، واذا كان مايكتب اليوم مقضيا عليه بالنسيان بعد يوم أو بعد عام، فان مصدر هذه الكتابات، وما أوحى بها، لن ينسى»[4].

وكانت حياة اهرنبورغ وسيرته معقدة حائرة كحياته الادبية. ولد سنة ١٨٩١ في أسرة يهودية من الطبقة المتوسطة في «كييف» عاصمة «اوكرايينا» وانتقل أبواه الى موسكو وهو في الخامسة من عمره حيث اكمل دراسته الثانوية. وكان في البداية تلميذاً هادئاً متفوقاً في دروسه، ولكنه سرعان ماانتمى الى الحركات الثورية وقضى بضعة أشهر في السجون القيصرية، كما روى عن نفسه في مذكراته الاولى التي نشرها في سنة ١٩٢٨، فاذا أُطلق سراحه بكفالة تمكن أهله من تدبير جواز سفر له، فغادر موسكو ـ وكان ذلك في سنة ١٩٠٨ ـ قاصداً باريس التي قُدّر له أن يقضي فيها اكثر من ثلاثين سنة من حياته. ويقول في مذكراته إن موسكو وباريس هما المدينتان الوحيدتان اللتان شعر فيهما بأنه في وطنه.

ووصل الفتي اهرنبورغ ـ الذي كان في السابعة عشرة من عمره ـ باريس لاجئاً سياسياً، وخاض مجتمعها الادبي، وأخذ يحيا حياة البوهيميين في «مونبارناس»، وينظم الشعر على طريقة الرمزيين. وعلى الرغم من أنه قابل «لينين» في باريس، فان نشاطه وعمله طيلة السنوات العشر التالية كانا في مجال الادب لا السياسة، حتى اذا اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى اصبح مراسلاً لاحدى الصحف البرجوازية الكبيرة وهي «أخبار البورصة» التي كانت تصدر في «سنت بطرسبورغ»، وبذلك بدأ عمله الصحفي الذي كان سيصبح فيما بعد إحدى معجزات الصحافة في هذا القرن.

ولما قامت الثورة في روسيا وجد اهرنبورغ في نفسه رغبة لاتقاوم في العودة الى الوطن، فعاد خلال الثورة البلشفية، ولكن موقفه من البلاشفة في البداية كان غامضا. وبعد ان تجول في البلاد، وكانت الحرب الاهلية قد مزقتها، وصل موسكو في اواخر سنة ١٩٢٠، ولكن اقامته فيها لم تطل، فعاد ثانية الى باريسه المحبوبة، ومع ذلك فأنه أخرج من فرنسة، فقصد بلجيكا ليكتب فيها روايته الاولى «مغامرات جوليو جورينيتو الغريبة وتلاميذه» ـ وعنوانها الاصلي أطول من هذا بكثير ـ فنشرت في سنة ١٩٢٢.

كتب اهرنبورغ خلال العشرينات والثلاثينات عدداً كبيراً من الروايات فلم تكن الّا للقلة منها قيمة أدبية جدية، وقد اصبح معظمها اليوم نسيا منسيا. وفي الثلاثينات

---

(٤) انظر مقالة: «الكلمة كسلاح»، مجلة (نوفي مير) ـ العالم الجديد ـ موسكو، كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير)، سنة ١٩٤٤.

لم يلتزم اهرنبورغ بسيطرة الواقعية ـ الاشتراكية ولا بمذهب «جدانوف» في توجيه الآداب والفنون، فوجه معظم نشاطه الى الصحافة، واصبح خلال الحرب الاهلية الاسبانية مراسلا حربيا للصحف السوفيتية. وعلى الرغم من تردده على روسيا بكثرة، فأنه قضى معظم وقته في باريس، وبقي في فرنسة بعد الاحتلال النازي، ثم عاد بعد اندحار فرنسة نهائيا الى موسكو.

سخّر اهرنبورغ ـ خلال الحرب ـ جهوده جميعاً للدعاية السياسية، وكانت مقالاته المتواصلة في الـ «برافدا»، جريدة الحزب الشيوعي السوفيتي، و «النجمة الحمراء»، جريدة الجيش الأحمر، بما فيها من روح وطنية عاطفية، ودعاية ساخرة لاذعة، قد لقيت إقبالا منقطع النظير، ولم يكن هنالك مايوازيها سوى بعض المقالات التي كان يكتبها «شولوخوف» و «آلكسي تولستوي»، ولكن هذه كانت تظهر من وقت لآخر، بينما كان اهرنبورغ، وكأنه في حمى من العمل، يقذف بالمقالة تلو المقالة، يوما بعد يوم، في همة مدهشة، ومن قريحة لاتنضب. وكان لمقالاته اثرها الهائل في بث روح المقاومة السوفيتية ضد الهجوم الالماني. ويقول «آلكسندر ورث» الصحفي المؤرخ في كتابه الضخم «روسيا في الحرب»:

«كان اهرنبورغ من العوامل المهمة جدا في المعركة الكبرى من اجل رفع الروح المعنوية الروسية، وكان يقرأ اهرنبورغ كل جندي في الجيش الاحمر. ويعرف عن الأنصار في مؤخرة العدو أنهم كانوا يرحبون بمقايضة أية غدارة إضافية لديهم بمجموعة من قصاصات الصحف المحتوية على مقالات اهرنبورغ. إننا قد نحب اهرنبورغ وقد لانحبه، ولكنه خلال تلك الأسابيع المفجعة قد أظهر حتماً قدرة خارقة على صياغة الحقد الملتهب الذي يشعر به الروس نحو الالمان في نثر رائع وملهم. فهذا الرجل بنزعته العالمية وثقافته الفرنسية استوعب ـ بما أوتيه من حدس ـ الشعور الحقيقي الروسي العادي»[٥].

وعاد اهرنبورغ بعد الحرب الى كتابة الرواية، و «سقوط باريس» اكثر رواياته طموحا، وهي تصور تدهور المجتمع الفرنسي بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٤٠، كما تُظهر مدى تفهمه العميق للأحداث، وشعوره القوي نحو فرنسة وشعبها.

وكتب «العاصفة» في عام ١٩٤٨، وهي تصف الحرب في فرنسة وروسية، وتطور العلاقات المتأزمة بين الاتحاد السوفيتي وحلفائه الغربيين بعد الحرب، ولكنها، من الناحية الأدبية، لم تلق نجاحا كبيرا.

---

(٥) Werth, Alexander, *Russia at War*, London, 1964, P. 379

وروايته الاخيرة هي «الذوبان»، نشرت في سنة ١٩٥٤ وأثارت كثيراً من اللغط والنقاش، وآذنت بعهد جديد من التحرر والتفتح في الأدب السوفيتي بدأ بموت ستالين، وتحدت سلطان النقاد الغربيين الملتزمين، حتى أصبح عنوانها رمزاً لهذه الفترة.

وكان نشر مذكرات اهرنبورغ، بأجزائها الستة، من الأحداث الأدبية الكبرى في السنوات الأخيرة. وقد أغضبت هذه المذكرات خروشوف أيام رئاسته لأنها كذّبت بعض اقواله عن عهد ستالين، فهاجمه بنفسه هجوماً عنيفاً، كما هاجمه زميله «شولوخوف» وصديقه «ايليجيف» الذي كان رئيساً للشؤون العقائدية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، هجوماً شديداً مليئاً بالغمزات القاسية، واتهمه بمعاداة السامية. ويروي الذين قابلوا اهرنبورغ في السنتين التاليتين لذلك انه كان في حالة من الكآبة والانقباض. ومع ذلك، فستبقى تلك المذكرات أعظم اعماله واهمها.

ان مكانة اهرنبورغ ستبقى ـ بلا ريب ـ خالدةً في تاريخ الادب الروسي، وهو سيُذكر كلما ذُكرت الحرب الوطنية الكبرى (كما توصف الحرب العالمية الثانية في الاتحاد السوفيتي)، وسترن كلماته طيلة أجيال عديدة، وستضيء كالنجوم الهادية في تاريخ كفاح شعبه، وذوده عن كل شبر من وطنه. فقد كان انساناً عظيماً، واديباً فريداً، ووطنيا مثاليا.

الباليه الروسي

لعل من اهم المتع التي يتطلع اليها السياح الذين يقصدون روسيا، والزوار الذين يؤمونها لفترة قصيرة او طويلة، هي مشاهدة «الباليه الروسي»، وقضاء أمسية في مسرح «البولشوي» في موسكو. ولاشك أن من يذهب الى الاتحاد السوفيتي، ويزر معالمه التاريخية، ومتاحفه الغنية، دون أن يحضر عرضاً للباليه في أحد مسارح موسكو او لينينغراد - وخاصة البولشوي - تكون زيارته ناقصة، ويفوته جانب من أهم مايستحق المشاهدة في تلك البلاد.

لقد اقترن اسم «الباليه» بروسيا، حتى أصبح هذا الفن يسمى «الباليه الروسي» وان عُرض في لندن أو باريس أو نيويورك، ولم يكن بين الراقصين أو المخرجين روسي. إنه «الباليه الروسي» وان لم يكن مؤلف القصة ولا ملحنها ولامخرجها من الروس.

كان الشعب الروسي في جميع عهوده يشعر بشعور خاص نحو الرقص. فهم يرقصون كما يغني الايطاليون، ويقول العرب الشعر، أو كما تطير الطيور وتسبح الأسماك. والفخر الذي يشعر به الروس بمدى رقي هذا الفن في بلادهم لا يدانيه فخرهم بارسال أول مركبة الى الفضاء، ولامقاومتهم البطولية في لينينغراد، ولاغيرهما من أعمالهم ومنجزاتهم. وهم - بلا ريب - محقون في ذلك. فقد نال هذا الفن في بلادهم من العناية اكثر مما ناله اي فن سواه، وأحاطته حكوماتهم - قيصرية كانت أم سوفيتية - برعاية بالغة، وأنفقت عليه بسخاء عجيب، حتى بلغ فيها مبلغ الكمال أو كاد.

ولانزاع في أن فن «الباليه» من أرقى صور الفنون الجميلة، وهو يمتاز عن «الاوبيرا» مثلا بمزايا عديدة. وقد يكون خلوّه من الكلام، السرّ الرئيسي في روعته. فالرقص من طبيعته أن ينقاد الى الموسيقى وينسجم معها انسجاماً كاملاً، بينما تأتي الكلمات في «الاوبيرا» لتقاطع الموسيقى وتزاحمها. والباليه يُتيح للمناظر و

«الديكورات» أن تكون اكثر روائية منها في اي فن مسرحي آخر، وكذلك اكثر فنية، وأقل تقيداً بالواقع، دون أن تتصف بالمبالغة او الاغراق في الخيال. ان مهمة الباليه هي أن تجتذب المشاهدين وتنقل اليهم القصة بواسطة الحركات الجسمية. فهو فن يهدف الى ترجمة الشعور الى حركة، ويتطلب انتظاماً ودقة في حركات الجسم لايقلان عما يتطلبه العقل من انتظام ودقة من أجل نظم قصيدة من الشعر. ولذلك فقد يصح تعريف الباليه بأنه شعر «مجسد».

ويرتبط الباليه الروسي، بصورة أساسية، بعناصر الرقص في المسارح الشعبية، وبالموسيقى الشعبية، وخاصة بالمشاهد الفكهة للمهرجين الذين عرفوا في روسيا باسم «سكوموروخي» في العصور الوسطى.

ومع ذلك، فان نهضة الباليه الروسي جاءت في بدايتها على أيدي الفنانين الاجانب. ويعود تاريخه، بشكله الحالي، الى أقل من مئتين وخمسين عاما. فقد أسست أول فرقة منظمة للباليه في العاصمة «سنت بطرسبرغ» في سنة ١٧٣٦ بوصول الراقص «لاندى» مع فرقة ايطالية مشهورة. وكان ذلك بدعوة من «بطرس الاكبر» الذي أراد أن يفتح نوافذ روسيا على الغرب. وكان إدخال الرقص الى روسيا في جملة مافكر فيه من مظاهر المدنية الاوربية. ان زيارة هذه الفرقة كانت بداية تيار متواصل من زيارات قامت بها الفرق الأجنبية الى روسيا بعدها. وخلال ذاك، كان عدد من أوائل الفنانين والفنانات الروس - مثل «بيديولا» و «كولوسوفا» - قد بدأوا بالظهور واكتسبوا شهرة واسعة.

اما اول فرقة باليه روسية محترفة فقد تألفت في سنة ١٧٤٢ خلال احتفالات تتويج الملكة «اليزابث» - ابنة بطرس الاكبر - كما أسست أول مدرسة باليه روسية مهمة في موسكو في سنة ١٧٧٣، وكانت نواة مدرسة البولشوي الحالية. وكان جميع طلاب هذه المدرسة وطالباتها من الاطفال الموجودين في معاهد الايتام. وجلب للمدرسة أستاذ ايطالي هو «فيليبو بكارى»، فبدأ عمله مع اثنين وستين طفلا، وكانت مدة الدراسة المقررة ثلاث سنوات.

ولقي الباليه في روسيا تشجيعاً كبيراً خلال العقود الاولى من القرن التاسع عشر، وسجل تطوراً عظيماً على يد الاستاذ الفرنسي «ديدلو» الذي أدخل تطورات مهمة على الديكور، والازياء، والميكانيكية، والمعدات الاخرى، وحقق الباليه الروسي بتوجيهه نهضة كبيرة.

وبدأ تفوق روسيا في ميدان الباليه في أواخر القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من أن معظم اساتذته فيها، وأبرز الراقصين والراقصات، كانوا من الفرنسيين او

الايطاليين، وان «كريستيان يوهانسن»، منشيء الاسلوب الروسي الاصلي كان سويديا تدرب في الدانيمارك، فأن الراقصين والراقصات الروس سرعان مابدأوا يحتلون أماكنهم الدائمة في الصفوف الاولى من هذا الفن، وأخذت مواهبهم تتجلى وتصقل، حتى أخذت فرق الباليه الروسية تقيم حفلاتها في لندن وباريس وغيرهما من العواصم الاوربية الكبرى، وتكتسح هذا الميدان بتفوق لايجارى، وتؤثر في توجيه هذا الفن، وتطبعه بطابعها الفريد. وقد أصبحت الفرقتان الروسيتان الرئيستان «مارينسكي» في سنت بطرسبرغ، و «بولشوي» - التي كانت أقل شأناً منها - في موسكو، الفرقتين الوحيدتين اللتين تعالجان الباليه بوصفه أحد الفنون الجميلة، باستثناء الباليه الدانيماركي الذي كان متخلفاً عنها، ولم يكن معروفاً مثلهما.

نعم، لقد كان الباليه من الفنون الجميلة، ولكنه كان فناً جميلاً وثيق الارتباط بالبلاط القيصري، نشأ وترعرع في حمايته. ولذلك اجتاز هذا الفن الجميل، على اثر قيام ثورة اكتوبر في سنة ١٩١٧، فترة حرجة، وأزمة موقتة. وفي الفورة التي صحبت تلك الثورة، كان بين رجالها من ينظرون الى الباليه بوصفه أحد وسائل لهو القياصرة، مثل مجوهراتهم ومحظياتهم وجيادهم... وكانت هنالك فعلا «راقصات امبراطوريات» معروفات بصلاتهن الوثيقة بالقصر، ونفوذهن فيه.

وكان من حسن حظ الاتحاد السوفيتي، والعالم أجمع، ان سادت آراء غير هذه. وقد أكد «لينين» نفسه على أهمية حماية الفنون ورعايتها، على أن تكون بعد الآن في خدمة الطبقة العامة، ووسيلة من وسائل تثقيفها ورفع مستواها. فأعيد تنظيم المسارح على أسس جديدة، وباشراف جمعيات متعددة. ولاشك أن اول قوميسار (وزير) للمعارف في حكومة الثورة «آناتولي لوناجارسكي» كان له الفضل الكبير في رعاية هذا الفن، وفي احتفاظه بمكانته الممتازة. فقد كانت ثقافة «لوناجارسكي» العالية، وتوجيهاته المستنيرة من اقوى الدعائم التي رسّخت السياسة السوفيتية في حماية الفنون والآداب، بتأييد من لينين. وهكذا واصلت فرق الباليه (الى جانب الفرق التمثيلية والموسيقية) أعمالها بعد الثورة بدون توقف تقريبا.

وكان موقف الباليه الروسي - بصورة خاصة - غريباً في بابه. فقد كان كثيرون من أبرع فناني روسيا (مثل دياغيليف وفوكين اللذين يعدان مؤسسي الباليه الروسي الحديث) خارج روسيا في ذلك الوقت. فلما انتهت الثورة، واستتبت الأمور، عاد الى روسيا منهم من عاد، وبقي آخرون في الخارج بسبب ظروف الحرب او لأسباب شخصية تتعلق بموقفهم من نظام الحكم الجديد. وبذلك أصبحت لفن الباليه الروسي مدرستان: إحداهما في روسيا، والاخرى في الخارج. وقد تطورت هاتان

المدرستان في اتجاهين مختلفين، وحققت كل واحدة منهما نتائج باهرة.

كان الباليه الروسي في الخارج ـ وقد تركز في فرنسة بالدرجة الأولى، واتخذ «مونت كارلو» مقراً له ـ قد أفاد من جو الحرية الذي يتمتع به، فأدخل تجارب جديدة أدت الى تطور هذا الفن في اتجاهات حديثة مختلفة، حتى أصبح مؤسسة عالمية ذات معالم واضحة.

اما في الداخل، فقد كانت الدولة تحيطه برعاية عظيمة، وتخصص له مبالغ ضخمة، ولكن، كان لابد له من التزام الخط «الرسمي» بدقة. وقد بقي الباليه «السوفيتي» ـ تمييزاً له الآن عن «الروسي» في الخارج ـ بمعزل عن التأثر بالتجديدات التي طرأت على اتجاهات هذا الفن في الخارج. وكان من الناحية «التكنيكية» استمراراً لأساليب القرن التاسع عشر. لقد ركز الباليه السوفيتي اهتمامه على «النوعية» اكثر من «الكمية»، ولذلك فانه، على الرغم من محافظته على الأساليب التقليدية، زاد اتقانا. كما أن توافر الامكانات، وعدم قلق الفنان من الناحية المادية (او التجارية)، ارتفع بهذا الفن في الاتحاد السوفيتي الى مستوى رفيع جدا.

ومع الفروق البارزة بين الباليه السوفيتي والغربي اليوم، هو تأكيد الأول على «النص» او القصة. فالباليه ـ كسائر اشكال الفن السوفيتي ـ كثيراً مايستخدم لأغراض سياسية. ولهذا السبب فأنه يجب أن يكون مفهوماً، وخالياً من الغموض، ولامكان في الفن السوفيتي للرمزية، والسريالية، والوجودية، وغيرها من المذاهب الحديثة. وموضوعات الباليه تُستقى في الغالب من الحياة اليومية، ومن تاريخ الثورة، وكذلك من الآثار الادبية، الكلاسيكية منها والمعاصرة.

ويقول آرنولد هاسكل ـ وهو من اكبر نقاد الباليه وخبرائه في العالم ـ ملخِصاً الموضوع:

«ان باليه الدولة في روسيا اليوم يواصل الى حد كبير تقاليده في عهد الامبراطورية، بصرف النظر عن التطور الذي أحدثه دياغيليف وفوكين. وبطبيعة الحال، كانت هنالك تحسينات معينة في (التكنيك)، وان موسكو حلت محل سنت بطرسبرغ مركزاً للباليه. ان الانعزال الفني كان قوة للباليه وضعفاً له بنفس الوقت. ومثلما تعرض الروس الى تأثيرات الرومانتيكية الضارة في السابق، فانهم الآن بمنجى من التأثيرات الغربية، الزائدة التكلف، الصادرة عن باريس. إنهم «يؤمنون» بالقصة التي يروونها، ولايعالجونها كمجرد مناسبة او ذريعة للرقص».

ان من يأتي الى موسكو، ويحضر الباليه في مسرح البولشوي، بعد مشاهدة الباليه في لندن او باريس، يشعر وكأنه عاد الى الباليه في أيام مجده الغابرة، بتقاليدها

وفخامتها. وبينما تعرض معظم الفرق الاوربية روايات البالية ملخصة او مختصرة، او نقدم مشاهدة ومقاطع منها، تعرض فرقة البولشوي، والفرق السوفيتية الاخرى، الباليهات الخالدة دون ان تحذف منها مشهداً، ولا لحناً، وقد يستمر العرض ساعات، ولكن التفاصيل الدقيقة تنال نفس العناية، وتقدم بنفس الدقة التي تناها وتقدم بها المشاهد الرئيسية.

ان اعداد الراقصين والراقصات للباليه السوفيتي يتطلب دراسة طويلة وتفصيلية، واختيار الطلاب والطالبات يخضع لفحوص دقيقة. وقد ادى هذا التأكيد على «التكنيك» الى ظهور مجموعة من الراقصين والراقصات من أعلى مستوى، يمكن ان تذكر بينهم اسماء اولانوفا، وبلستسكايا، وليبشينسكايا، وستروجوكوفا، ويرمولاييف، ونورييف، وعشرات وعشرات آخرين.

ومعقل الباليه السوفيتي اليوم هو مسرح البولشوي في موسكو، وان كانت فرقة لينينغراد، وفرقة ستانيسلافسكي ـ في موسكو ايضا ـ على مستوى رفيع جدا. وفي الاتحاد السوفيتي اليوم اكثر من ثلاثين فرقة للباليه، وهو عدد هائل لانظير له في اي قطر من اقطار العالم.

وتدار مدرسة «البولشوي» بدقة وانتظام خارقين، ويخضع طلابها لنظام صارم في دراستهم وتدريبهم وحياتهم. وهي التي تزود معظم فرق الباليه في البلاد بالراقصين والراقصات. وأساتذتها ومدربوها من اشهر الاسماء العالمية في هذا الفن. ويقبل الطلاب والطالبات في هذه المدرسة في السابعة من أعمارهم، ويتلقون تعليماً لمدة ثلاث سنوات، قبل البدء بتدريبهم على الرقص. اما الأولاد فأن تدريبهم الحقيقي لايبدأ حتى يبلغوا الرابعة عشرة من اعمارهم. والمنهاج الدراسي لكل سنة من السنوات مرسوم بدقة زائدة، وصرامة شديدة. وفي مدرسة لينينغراد تُبذل نفس العناية ويتبع نفس الاسلوب العلمي في التدريب خلال جميع سني الدراسة، مع عناية خاصة بالاسلوب «الكلاسيكي» الايطالي الصارم، و «التكنيك» المتناهي في الدقة.

والباليه السوفيتي ليس محدوداً في اشكاله، فهنالك باليه للأطفال، وآخر «كوميدي»، و «شعبي»، وحتى الباليه المصحوب بالغناء. وفرقتا «آلكساندروف» و «موئيسيف» معروفتان بصورة خاصة في هذا المجال.

ان الاتصال الوثيق مع الفنون الشعبية هو أحد الاسس التي يقوم عليها الباليه السوفيتي الحديث في تطوره. وقد نال الباليه اهتمام جميع الملحنين السوفييت الكبار، ولكن في السنوات الاخيرة ظهر هنالك تأكيد متزايد على المدارس القومية الحديثة

للجمهوريات السوفيتية. ومن المبرزين في هذا المجال الملحن الجورجي «بالا نجيفادزه» والأرمني «خاجاتوريان» اللذين تستفيد ألحانهما للباليه استفادة كلية من الاغاني والرقصات الشعبية لجمهوريتيهما. والحقيقة ان الفنون الشعبية للجمهوريات السوفيتية ذات القوميات المختلفة أخذت تزود الباليه بامكانات واسعة للمستقبل، وان التعاون المتزايد بين الموسيقى الشعبية القومية، وتكنيك «البولشوي» بمستواه العالي، قد يتمخض عن منجزات ممتازة تشهدها الأجيال القادمة.

في بيت تولستوي



«ياسنايا بوليانا» ضيعة واسعة ورثها الكاتب الروسي «تولستوي» عن أبيه ، وفيها ولد وترعرع ، وقضى زهاء خمسين عاماً من حياته ، وكتب أورع مؤلفاته ، وتحت أشجارها الباسقة يرقد في زاوية شعرية هادئة .

سعيت اليها في عصر سبت مطير لاقضي فيها ليلة بدعوة من إدارة متحف «تولستوي» ، فقد أصبح بيته متحفاً يؤمه الزوّار والسيّاح من مدينة «تولا» القريبة ، ومن «موسكو» التي تبعد عنها مئة وخمسين كيلو مترا ، ومن مشارق الأرض ومغاربها ، فترى بينهم العامل الروسي ، والسائح الأمريكي ، والطالبة الهندية ، والدبلوماسي العراقي .

وبعد عشاء روسي خالص مع مدير المتحف وأُمنائه ، وحديث طويل عن «تولستوي» وحياته ، وعن «ياسنايا بوليانا» وتاريخها ، أويت الى مضجعي في جناح مخصص للضيوف بجوار بيت تولستوي .

ونهضت في ساحة مبكرة من صباح الأحد ، قبل أن يحضر موظفو المتحف ، فخرجت الى الحديقة أجول في مماشيها ، وأطوف حول بيت تولستوي ، وهو مايزال مغلقا . وكانت السماء صافية ، والحديقة مطلولة النبات عذبة النسيم ، والغابة عميقة السكون ، لا تسمع فيها الاّ حفيف غصن هنا ، أو زقزقة طائر هناك .

ولما أخذت الحياة تدب في «ياسنايا بوليانا» ، وحضر الأمناء والموظفون ، فُتحت الأبواب ، فدخلنا بيت الكاتب العظيم ، فاذا هو بيت بسيط ليس فيه شئ من مظاهر الفخامة أو التكلف ، ويعد صغيراً بالمقاييس القيصرية . وهو في بساطته ينسجم كل الانسجام مع فلسفة تولستوي في الحياة ، وان لم ينسجم مع أرومته الأرستقراطية ، فقد كان أبوه من النبلاء ، وأمه اميرة .

وفي مدخل البيت قاعة صغيرة تغطي جدرانها دواليب ذات أبواب زجاجية ، ازدحمت فيها الكتب . وفي يسار القاعة سلّم يُفضي الى الطابق العلوي ، حيث

يواجه الداخل فِناء واسعاً فيه عدّة أبواب تفتح على غرف الدار . وعلى اليمين باب كبير يؤدي الى الغرفة التي كانت الأسرة تجتمع فيها يومياً ، وحدها أو مع ضيوفها ، وهي اكبر غرف الدار ، وكانت تتخذ أيضا غرفة للطعام ، وكان تولستوي ، بعد العشاء ، يقرأ فيها على أفراد أسرته وضيوفه فصولاً مما يكتب ، بصوته الناعم والقائه المتهدّج .

ان بساطة الأثاث في بيت تولستوي بصورة عامة لتبعث على العجب حقّا ، وليس بينها ما يتميز بطراز خاص أو يعود الى عصر معين . ولا يبدو عليها شئ مما يطبع الاثاث في بيوت النبلاء من مبالغة وتكلف . وكانت الأدوات المنزلية تضفي على غرفه دفئاً ، وتبعث فيها حياة . كل شئ في البيت تُرك على حالته ، وفي مكانه ، كأنما غادره ساكنوه أمس . وقد يعودون اليه غدا . وقد احتُفظ بكثير من الادوات والحاجات الشخصية للأديب الكبير بعناية فائقة ، وهنالك صور زيتية عديدة له رسمها كبار المصورين الذين كانوا يزورونه في «ياسنايا بوليانا» لهذه الغاية خصيصاً ، ويقضون في ضيافته أياماً ، وهنالك مكتبة هائلة تحتوي على كتب بعشرين لغة (ويقال إن تولستوي كان يعرف ثلاث عشرة لغة) ، وساعة عظيمة من صنع شركة «اردلي نورتن» جلبها الأمير فولكونسكي - جد تولستوي لأمّه - من لندن قبل مئتي سنة ، ولاتزال تضبط الوقت بدقة . والى جانبها كرسي ذو عجلات أُرسل الى تولستوي من موسكو وهو مريض في القرم في سنة ١٩٠١ ، وقد استعمل الكاتب هذا الكرسي مرة أخرى عند الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين في سنة ١٩٠٨ ، وكانت ساقه مهيضة . والجدران تغطيها صور زيتية لمصورين غير معروفين من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وهذه غرفة نوم تولستوي ، وفيها سريره القديم ، وعصاه التي كان يتوكأ عليها بعد أن هيضت ساقه ، والمغسلة التي كان يأبى إلاّ ان يفرغها بنفسه ، وملابسه البسيطة لاتزال معلقة في خزانة داخل الجدار . وعلى الجدران بضع صور لأسرة تولستوي التي كانت مؤلفة من ثلاثة عشر ولدا[1] ، مات خمسة منهم في طفولتهم . اما غرفة زوجه ، فهي على النقيض من غرفته ، واسعة ، مزخرفة ، ازدحمت على جدرانها الايقونات والصور .

وما أروع الشعور الذي ينتاب المرء وهو يدخل مكتب تولستوي الذي كتب فيه معظم رواياته الخالدة ، بينها «الحرب والسلم» و«آناكارنينا» ، وحبّر الرسائل الى من

---

(١) الولد يطلق على الذكر والانثى ، كما يطلق على المثنى والجمع



بيت تولستوي وأمامه (شجرة الفقراء)

كان يراسلهم من عظماء العالم ، والى من كان يكتب اليه من المعجبين به ، بينهم عالم أزهري اسمه «محمد عبده» ، وشاب هندي يدعي «غانـدي» ، وأديب ايرلـندي ناشئ هو «برنارد شو» . وفي الغرفة أمتعة وأدوات يروي كل منها قصة ، ويبعث على التأمل العميق . وخلف كرسي تولستوي تقوم الأريكة الصلبة السـوداء التي ولد عليها ، والى جانبها جهاز «فونوغراف» أهداه إياه «اديسون»، وعلى الجدار صورة «تشارلز ديكنز» التي جلبها تولستوي معه من انكلترة ، وكان «ديكنز» أحبّ الكتاب الانكليز الى نفسه . وهناك أيضا المنضدة التي كان يكتب عليها ، وفوقها أقلامـه تحمل آثار الحبر . لقد جلس تولستوي وراء هذه المنضدة للمرة الأخيرة ليلة العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٠ ، حين قرر أن يهجر بيته وزوجه وضيعته ، ويخرج ليعيش عيشة الزهد والبساطة ، وهو في الثانية والثمانين من عمره .

ان روحاً واحدة فقط بقيت غريبة عن تولستوي حتى النهاية ، وهي روح زوجه ، فلم تمتزج بروح هذا الرجل الذي تغلغل في أعماق النفـوس البشريـة ، وكشف سرائرها . وكلما أمعن تولستوي في روحانيته ، أمعنت زوجه «سونيا اندرييفا» في تمسكها بالواقع . وبينما كان تولستوي يجوب «ياسنايا بوليانا» مرتديا لبـاساً ريفيـاً بسيطاً ، تكسو وجهه لحية الانبياء ، ويعيش في عوالم الروح بين أحضان الطبيعة أو مغاليق مكتبه ، وقع على كاهلها تعليم أولادها وتنشئة بناتها وادارة شؤ ون زوجها . ثم قرّر تولستوي أن يفتح في القرية مدرسة لتعليم أبنائها على اختلاف طبقاتهم ، وتطبيق آرائه التربوية الحرّة ، كما أصدر مجلة تربوية ينشر فيها تلك الآراء . وكانت زوجه تعنّفه على الدوام ، ولا تنفك عن التذمّر والبكاء ، وتلومه على إهتمامه باطفال القرية الغرباء أكثر من اهتمامه بأولاده ، ولا تفهم كيف ينبذ مختاراً وسائل الراحة المتوافرة لديه ، مؤثرا التقشّف والتعب والعناء ، وهو في هذه السنّ ، حتى أصبحت حياتها سلسلة من المتاعب لا تطاق ، وقرّر أخيراً أن يهرب من بيته ومن «ياسنايا بوليانا» الحبيبة الى نفسه . وفي تلك الليلة جلس الى مكتبه للمرة الاخيرة ، وقد نام كل من في البيت ، وكتب الى زوجه رسالة اخبرها فيها بها اعتزمه ، وشكرها على الزمن الذي قضياه معا ، واعتذر اليها عن قراره هذا ، ثم نزل على أطراف أصابعه الى الطابق الارضي ، حيث كان طبيبه الخاص راقداً في غرفته ، فأيقظه ثم أيقظ حوذيّه ليعدّ العربة التي غادر بها «ياسنـايا بـوليانـا» للمرة الاخيـرة في تلك الليلة المقرورة . وتعرّض تولستوي خلال رحلته هذه للبرد ، فأُصيب بالتهاب رئوي ، ولفظ أنفاسه الاخيرة في محطة قطار صغيرة بعد أيام قلائل .

ان زوج تولستوي لم تفهمه قطّ وان عاشت معه ثمانية وأربعين عاماً ، ولكنها مع

ذلك لم تقتصر على أن تلد له ثلاثة عشر طفلاً ، وتتولى إدارة شؤونه ، بل كانت تعيد كتابة مؤلفاته بخطّها مرّة بعد اخرى ، وقد نسخت روايته الضخمة «الحرب والسلم» سبع مرات . وأراني أدلائي في إحدى زوايا الدار حوضاً حاولت ان تغرق نفسها فيه حين علمت بمغادرة زوجها ، ولكن سكرتير تولستوي الخاص وثب الى الحوض وراءها ، فأنقذها .

وأمام مكتب تولستوي شرفة تطل على الحديقة التي كان يعني بها بنفسه ، وعلى الغابة الحالمة التي كان يعشقها ، ومنها أيضا يشرف على القرية التي كان يقضي فيها الساعات الطوال يساعد أهلها ، ويفضّ مشكلاتهم ، ويبادلهم النكات .

وفي البيت غرف أخرى للنوم ، وغرفة للضيوف الذين كانوا يؤمون ياسنايا بوليانا لزيارة تولستوي ، بينهم تورغينيف ، وتشيخوف ، وكورولينكو ، وغوركي وغيرهم من مشاهير الأدباء والموسيقيين والمصوّرين .

وبعد الفراغ من زيارة البيت انصرف أدلّائي الى أعمالهم ، وتركوني وشأني حتى يحين موعد الغداء ، فبقيت وحيداً أُصوّر البيت ، وأطوف في الحديقة ، وأتأمل المزرعة والقرية ، وأقف على كل ساقية ، وأحيّي كل أثر . وكان في جانب قصيّ من الحديقة اسطبل خيول تولستوي . وعلى غير بعيد من البيت كوخ صغير جميل هو كوخ سائس خيوله وسائق عربته الذي أيقظه ليلة مغادرته .

وتقوم إزاء عتبة البيت شجرة عتيقة ضخمة ، كثيفة الأغصان ، وارفة الظل ، هي «شجرة الفقراء» الشهيرة التي كان ينتظر تولستوي تحتها الفلاحون والفقراء . وكانوا يسعون الى «ياسنايا بوليانا» من قراهم القريبة والبعيدة ، يسألونه النصيحة ، أو يطلبون قليلاً من المال .

وهناك تمثلت «تولستوي» يخرج من بيته ، ويتقدم بخطاه السريعة المتأرجحة نحو هؤلاء الذين لفحتهم الشمس ، وأرهقهم التعب ، فينحني له بعضهم حتى الأرض ، على الطريقة الروسية القديمة .

«ألديكم طلبات ما ؟»

فيجيبه أحدهم متلعثماً :

«انني أودّ يا سيدى . .»

فينهره تولستوى :

«أنا لست (يا سيدي) . . ليس هناك (يا سيدي) سوى الله . .»

ويقضي تولستوي حاجاتِهم واحداً بعد آخر ، فينصرف منهم من ينصرف ، ويجلس في طلب المزيد من الراحة من يجلس .



كوخ سائس خيول تولستوي وسائق عربته

وتُفضي الحديقة الى غابة أشجار باسقة ، ويقال إن زوج تولستوي احتمت مع طفلها الرضيع فيه تحت مجموعة من تلك الاشجار خلال عاصفة رعد شديدة مفاجئة . وقد وصف تولستوي ذلك الحادث في «آناكارنينا» .

كان تولستوي يعشق «ياسنايا بوليانا» ـ ومعناها بالروسية المروج الساطعة ـ وكان يجد متعته الكبرى في حياته البسيطة فيها ، وفي ملاعبة الاطفال ، وركوب الخيل ، والصيد ، والجلسات العائلية في أمسيات الشتاء حول «الساموفار» الذي يغلي فوقه الشاي ، وفي اخضرار اوراق الشجر في الربيع ، ونضج المحصول وقت الحصاد .

لقد كان تولستوي جزءاً من هذا المكان ، وأصبح هذا المكان جزءاً من حياة تولستوي وأدبه ، اذ وصف كل زاوية منه في أحد كتبه ، وخلّد كل شجرة ، وكل ساقية ، وكل منعطف ، في إحدى رواياته ، وكتب عنه مرّة : «بدون ياسنايا بوليانا لا أستطيع أن أفكر في روسيا ، أو في موقفي منها»

وكنت ، وانا أسير في الغابة ، كأنني أراه يلعب بين أشجارها طفلاً ، ويخطر على مماشيها يافعاً ، ويصطاد في مجاهلها كهلاً ، ويجول بين مسالكها شيخاً ، واكاد أتوهم في كل منعطف أنه سيظهر أمامي ، مرسل اللحية ، ، مفتول العضل ، باسم الثغر ، فيوقف جواده ليحييني بصوته الجهوري ، «دراستفيتي !»[٢]

وبلغت في قلب الغابة بقعة يرقد فيها تولستوي . وقبره ـ مثل بيته ـ مظهر رائع للبساطة ، فلا رخامة ، ولا نصب ، ولا صليب . بل مرتفع من الارض لا يزيد عن شبر واحد ، يكسوه عشب أخضر رقيق ، وتتشابك فوقه الأشجار العالية . وذلك كل ما أوصى تولستوي ان يكون على قبره . وكان على القبر ايضا إكليل جميل من زهور بيضاء وصفراء ، وضعه زائر مجهول . .

وقد اختار تولستوي هذه البقعة الهادئة بنفسه لتكون مرقده الأخير ، ويروي أنه كان يلعب فيها مع اخيه «نيقولاي» وهما طفلان ، ويبحثان عن عصا سحرية خضراء ، قيل إنها اخفيت هناك ، وان من يعثر عليها يستطيع أن يجلب السعادة للناس جميعا .

قضى «تولستوي» في «ياسنايا بوليانا» خمسين عاماً ، وهو يبحث من تلك العصا السحرية ، فلم يجدها ، ولكن مؤلفاته الرائعة لا تفتأ تجلب السعادة والمتعة والطمأنينة الى قلوب الملايين من الناس ، على اختلاف أوطانهم ولغاتهم .

---

(٢) «مرحباً !» بالروسية .

فهرس الأعلام

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ي)

كتب أخرى للمؤلف

اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى (بغداد . ١٩٦٧)
بيروبيجان : التجربة السوفيتية لانشاء وطن قومي يهودي (بغداد ، ١٩٧٣)
العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب الطبعة الأولى - بيروت ، ١٩٦٩
الطبعة الثانية - بغداد ، ١٩٨٤

جهاز الدبلوماسية الاسرائيلية وكيف يعمل (بغداد ١٩٨٢)
العراق في الوثائق البريطانية : ١٩٣٦ (بغداد ١٩٨٣)
خواطر وأحاديث في التاريخ (بغداد ١٩٨٣)
حكايات دبلوماسية الطبعة الأولى - بيروت ، ١٩٧٠
الطبعة الثانية - بغداد ، ١٩٨٤

في هذا الكتاب

السعر ٢/٥٠٠ ديناراً

منشورات مكتبة آفاق عربية - بغداد - المنصور

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٢٣٩ لسنة ١٩٨٤

طبع الدار العربية - بغداد